

أحمد مراد

لوكاتنة بئر الوطاويط



دار الشروق

دار الشروق
كتيب

لوكاتندة بير الوطاويط

أحمد مراد

الطبعة الأولى ٢٠٢٠

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

● دار الشروق

٧ شارع سيدي بيه المصري

مدينة نصر - القاهرة - مصر

www.darshorouk.com

darshorouk@darshorouk.com

رقم الإيداع ٢٠٢٠ / ١٠٥٦٠

ISBN 978-977-09-3403-1

تصميم الغلاف: آدم عبد الغفار

خطوط الغلاف: خليل زيدان

وصيتي / وتولى تنفيذها ست آريانا الطالانية «أم بيدرو»؛ القاطنة بالدور التحتاني غرفة نمرة ٤.

هذه هي رسالتي الأخيرة للعالم المظلم، كتبها بحبر الزعفران الروحاني الطاهر وأنا في كامل الوعي والإدراك، بعد أيام من الامتناع عن تناول «عُشبة يوحنا» التي وصفها لي الحكيمباشي «ساسون»، فتلك العشبة خبيثة، تركتني هامدا خامدا، لا بريق في عيني، ولا روح في أيري.

أكتب وصيتي هذه كي لا تتهموا مخلوقا بقتلي، وبخاصة «بشاف جودت أنزور» مدير اللوكاندة الشرقي - رغم أنه يسرني حقاً اتهام هذا الوغد زوراً، إلا أنه لا يستحق مثل ذلك الشرف - بعد محاولاته المضنية المتكررة في التخلص مني بدم السم في طعامي، والتدليس في شأني لدى القواصة، لطردني من الغرفة التي أملكها منذ سبع سنوات - رغم تسديدي الإيجار - وربما الزج بي ظلياً في غياهب السجون، لكن الله يرد كيد المعتدي وهو خير الماكرين.

إن الحمد لله، ولا يُحمد على مكروه سواه، لقد تأكدت بالأمس وأيقنت أن الداء قد تمكّن مني، ولا مناص من المصير الأسود، فالأفاعي متناهية الصغر نعتت فساداً في الأوردة وتنبول دون حُرمة أو هوادة في الشرايين، تسللت حتى الطبقة الثالثة من جلدي، وخرجت مع بولي. وقد استعنت بالأعشاب المدونة في تذكرة داود، وأوراق اللبلاب، ولم أجد للشفاء سبيلاً، في الأيام التالية ستغشى الأفاعي عيني، وتطل ذيولها من أذني، فيشمت بي الكارهون، ويعافني المارة في الطرقات، وقد رسمت فروع اللبلاب على الحائط الغربي كلمة «عُد»، فأدركت أن الأجل قد حان، وأن موتي قد آن، وأن الحزن الكامن في صدري القابض لأنفاسي منذ سنين طويلة، سينتهي إلى الأبد، وليس ذلك انتحاراً والعياذ بالله، بل هي تضحية واجبة، وخدمة لازمة، أقدمها بنفس راهبة للإنسانية، حتى تتوقف العدوى عندي، ويصير الرباء ذكرى.

إني راحل والأسف يملأ فؤادي، على الخلائق التي لم تُدرك بعد، ير إعجاز نبته اللبلاب، وفروعها المباركة المتسلقة، هي التي حذرتني من مؤامرات السلطان «عبد العزيز الأول» للنيل مني، وأرشدتني لمعرفة سيرة المهجين، الزاحف الأعظم، ساكن القمر الذي هبط على الأرض منذ قرون سحيقة، يستولي على أجساد الخلق ويتجلى لياني الاكتمال، هو مَنْ بث «الطاعون البقري» في الماشية بمصر العليا حتى ازدحم النيل بالجيف، وتحطى ثمن رطل الزبدة ثلاثة قروش، وهو مَنْ أخرج الكوليرا من كوارنتينا الإسكندرية، ونشرها في القطر، فتوالت الوفيات. لا عجب، فقد أتى إلينا بعد أن ناكح نسل حُكام الإنكليز والفرنساوية وجنس الآريين، وتوغل بين الطبقات العليا في الكهانة، أجاج الحروب الصليبية، الحرب الروسية الفارسية، وحرب الأفيون، قبل أن يتسلل إلى المحروسة طلباً للطقس الجاف الدافئ، ورغبة منه في التهام ذهب الفراعين، وشرب حيض الحريم - غذاءه المفضل المرتبط بدورة القمر - اللهم إني برسالتي هذه قد أبلغت الموقرة والزعانف منكم وحذرت الحريم والأرستقراط كائيزي الأموال من خطر المهجين القادم دون رادع، اللهم فاشهد.

وصيتي الذي لم يُسغى الوقت لتنفيذها بسبب اكتمال وجه الضرر وعمر صوغه المسموم السكك والحرارات:

- تسليم الكاميرا وزجاجات الكولوديون «أرجو الحذر فهو قابل للاشتعال يحتوي على قطن البارود والكحول» إلى الخواجة «كباسيكاليس» الكيميائي اليوناني بالأزبكية، وذلك لتسديد ديوني لديه والبالغة جُنيهين وخمسة وسبعين مليًا.

- توصيل ألواح الفوتوغراف الزجاجية التي تحوي عفاريت التصويرات الشخصية، وكذا صور المتوفين الجنائزية إلى ذويهم بلا مقابل، ومكتوب خلف كل لوح اسم المتوفى ونمرة بيته.

- يُباع العود، ساعة جيب «نوردمان فريرس طراز ١٨٥٥»، كتب التشريع والفقه، المنظار الفلكي، الأباريق، والسريير «بعد حرق المرتبة والملاءة»؛ وذلك لتسديد ديوني لناحوم المراهي بياب النصر، والبالغة ثلاثة جنيهات وستة عشر قرشًا، وكذا ثمانية ريالات أجرة الغرفة المتأخرة «مخصوص منها مصاريق إصلاح السقف، وشراء مزارب نحاسي لماء المطر» للتيس عديم المفهومية بشاف.

- مفاتيح أقفال الغرفة المغلقة «عدد سبعة» ستجدونها مُعلّقة في رفعتي. قبل فتح الغرفة تستوجب قراءة دفتر اليوميات المُعلّق في الأكرة لتبيان طريقة التعامل مع «عثر»، لقد أطعمته فأشبعته وأسقيته الكحول حتى لحد، والحذر واجب، إن تحرر من الجنائزير أو اشتد الغدر فقوته تفوق عشرة رجال أشداء، أنصح بإطعامه لوجه الله حتى توافيه المنية، فما جرؤت على قتله مثلها تقتلون خيولكم المريضة بدماء باردة.

- أرجو تسديد ثلاثة ريالات لشكيب عبد الصمد عامل مشرحة قصر العيني مع احتفاظه بحقيقتي الجلدية وأدوات التشريح، وكذا تكليفه بدفن محتويات برطمانات الفورمالين الزجاجية.

- الخضراوات المزروعة في الأحواض بالسطح من نصيب ست آريانا، وكذا القراميط النيلية الحية في البرميل الأحمر الكبير.

- وأخيرًا، خاتمي الفضي ذو فص العقيق الأحمر، وغليني، تُسلم للحرمة «عزيزة راتب الشيكشي» زوجة السيد «أنور جودة أبو شمعة» القاطنة ببيت رقم ١٦ بدرب الجمايز، وأرجو أن يكون ذلك في السر.

- أما جشاني، وبعد أن تتأكدوا من وفاتي بتركي ثنائي ساعات تحت المراقبة، وقياس درجة حرارة شرجي، على أن تكون القراءة أقل من ٢٩ درجة سيلزيوس، فصلوا عني جماعة - مع استثناء بشاف - واستعينوا بالكفن المفرد على سريري المكوّن من سبع طبقات، واغمروني بالمسك والعنبر، ثم ادفنوني بقرافة «الإمام» على مسافة متر من سفح الجبل، تحت شجرة اللبلاب التي زرعتها منذ سنين بحوش «السيوفي»، حتى لا تتسلل مني الأناعي السوداء إلى الأرض فتتشر وترعى في أجساد الخلائق.

- اكتبوا على شاهد قبري اسمي وتاريخ وفاتي، والآية الثالثة والسبعين من سورة الحج، مع الالتزام بالتشكيل المدوّن وبخط كوفي: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرِبْ مَثَلْ قَاسِمَعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْنَهُم ذُبَابٌ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ** . والسلام ختام.

سليمان جابر السيوفي أفندي

لوكاندة بير الوطاويط

٢٥ أمشير سنة ١٨٦٥م الساعة ٩ أفرنكي صباحًا



منذ سبع ليالٍ، وإتماماً لما اعتزمت عليه من إنهاء حياتي للتخلص من الحزن والكآبة، والأفاعي التي تفيض في أوردتي، أسكرت بعرق البلح عنتر، وأحكمت غلق غرفته بالأقفال بعد وداعه، ثم فرشت اللبلاب على صدري وصعدت فوق الكرسي وأحكمت الحبل الغليظ حول رقبتني ثم تلوت الشهادة، لكن الطرقات المزعجة ما لبثت أن انتهت على الباب: «افتح يا سليمان أفندي، أعلم أنك بالداخل». «بشاف»، صاحب اللوكاندة النمروء، يُطالب بالإيجار وقت انتحاري! راودتني نفسي أن أدفع الكرسي من تحت قدمي فتزهي روحى! لكن الكريه ألح في الخطب والنداء وتمادى فأخرج سلسلة مفاتيحه وشرع في فتح الباب حين تأخرت استجابتي. إن دخل، فلن يكون الموت قد تمكّن مني بعد، روحى ستتسلق الحبل الغليظ من بعد الشنق في دقيقتين - قياساً لوزن جسدي - ومن الوارد أن يتعلق ذلك الجاموس الشرکسي بساقي، فيثقل الوزن على رقبتني فتفصل لينال شرف فتلي، أو يكون له الفضل في إنقاذي فيجرسني أمام الزعانف والسوقة، وذلك أشنع وأصل سبيلاً.

دعمت الباب بقدمي، وألقيت إليه أني مُسدّد الإيجار خلال يومين لعله ينقشع، لكنه أخبرني بأن هناك زائراً في انتظاري. وارتب الباب ورمقت وجهه الباهت وكرشه العتيقة، رفع ابن الكلب شفته امتعاضاً كأنه ينظر لفأر، ثم أشار إلى نهاية الطرقة حيث وقف شبح يستند عصاه. لم يسعفني القنديل الهزيل في استكشاف الملامح، اقترب الزائر بخطوات لها وقع، وتبيّس في مفصل ركبتيه أدركت منه أن الساق اليسرى خشبية. رمى بشاف بنظرة أقنعت بالانصراف، ثم دخل بؤرة المصباح. عجوز وسيم تخطى منتصف الستين، اغترشت التجاعيد وجهه كورقة شجر خريفية، جبهة عالية، شعر مُستمرسل، عينا غائرتان، أنف صقر مدبب، وفم رفيع يتوسط لحية مهذبة بعناية فوقها شنب مغرور، استطعت تمييز أصول أرمينية في قسياته منذ الطلة الأولى، بدون دعوة تخطائي ودلف، صديري خيوطه من الفضة، حذاء من الجلد الطبيعي، ماسورة الغدارة مزخرفة بالذهب، والمقبض منحوت من حجر اليشم، تصنع فابريكة فرانكو جابريل الإيطالي.

وضع زائري المونوكل الذهبي أمام عينه اليمنى وتحول، فحصى تصويراتي على الجدران، برطماناتي الزجاجية، وتوقف للحظات أمام برطمان الجنين «المعدوم الملامح»، وحائط لبلاي، حتى ظننته يفتقه لغته والسر المخفي وراء فروعه، ثم داعب حبل الشنق الغليظ المتللي من السقف بمقبض عصاه العجيب الذي سرق انتباهي، لاحظ فابتسم ثم اقترب، وضع يده على كتفي وتكلم بصوت خفيض: «منذ خمس سنوات خضت رحلة صيد جنوبية قرب السودان، كان يوماً صحواً ومشمساً، اصطدت خمس غزلان «دوركاس» وأنثى تمساح تحمل في بطنها البيض، وفي غفلة مني، باغتني ذكر تمساح تخطى الشاني أذرع، أعتقد أنه الأب، عَض ساقِي في ملح البصر وبدأ في سحبني نحو المياه، انتزعت غدارتي وسط الصدمة، أطلقت عليه رصاصة لم تُثبته، دار حول نفسه مرة، فبتر فخذي بلا عناء، صوت العظام وهي تتكسر فتفصل لا يمكن نسيانه، ثم غاص في النهر».

قالها وصمت، فتدحرجت عيناى حتى ساقه، وتزامت الصور في تحيأتي، مياه النيل بللت قدمي وتناثرت الدماء على صدري ووجهي، أشعل الزائر غليونه بقداحة ذهبية ثم أردف:

«بعد دقيقة طفا التمساح نافقاً وقد أقنعت الرصاصة، أوقفوا نزيقي بعد عناء وتم كي الجرح بالنار، بالكاد

أفليت من ملك الموت. حين أفقت، كان التمساح مستلقيًا بجانبني، فارتجأ ذراعيه وساقيه للسماء وقد سحبه عبيدي من النهر وشقوا بطنه، تأملت ساقني التي استخرجت، مسلوخة بسبب عصارة معدته شديدة التركيز، فأمرت الطاهي وسط دهشة العبيد بوضعها في إناء ماء مغلي استكمالًا لسلقها، اتخذ الأمر عشر ساعات حتى صارت عظامي بيضاء كالشمع وذاب نسيج اللحم، أرسلتها لصائغ خصوصي فغمسها في ماء الذهب، ورصع المفصل بالأحجار الكريمة ثم حفر خاتمي عليها بخط همايوني، فأصبحت عصاتي التي أتوكأ عليها، لا يدعم انتصابك خير من عظامك. ألا يقولون ذلك؟».

تأملت العصا التي رفعها أمام وجهه فضحك ثم عقب: «لا تخف؛ فالتيسيح إن هاجمك يومًا، فلن تأكل إلا رجليك فقط»، ثم أشار لحذائه الجلدي: «كما أن لحومها ليست أفضل ما فيها».

نظرت إلى فروع اللبلاب على الحائط خلف كتفه عليّ أتلقى إشارة منها، لكنها أثرت الصمت الحكيم، وربما رؤيتها القصة المثيرة فلم تجرؤ الفروع على التلوي. يا مغيث! هل يأتي الخير من كهمل مبتور الورك التهم لحم التمساح الذي فضم سافه؟ هل يكون أحد رجال السلطان «عبد العزيز الأول» المأمورين برصدي واغتيالني؟ مد يده لجيبه فتحسست سكتني الصغير تحفزًا، لكنه أخرج منديلًا سعل فيه شأن كل من يزور غرفتي، فرائحة عنتر مهيبة لأغشية الضيوف، كان ذلك حين علا الطنين من الغرفة المغلقة. ارتجت الأقفال وارتعدت النوافذ بأزيز غير هين، التفت الزائر مغزوعًا فطمأنته بأن الباب مغلق، وأن كلبي بالداخل محموم يزجر. رمقني بارتياب، وكاد الفضول أن يستوقفه، لكنه ابتلع السؤال في اللحظة الأخيرة وعرف نفسه: «داغر بك رستم؛ كبير مستشاري أفندينا»، ولما لمس الشك في عيني أكد سؤالي بهزة رأس: «نعم أقصد الباشا الكبير»، ثم أشار للكاميرا: «سمعت أنك ترسم صور الموتى الجنائزية بتلك الآلة، وسمعت أيضًا أنك تتحدث معهم». أجبته بفخر استحققه: «وهم متعاونون جدًا حين أطلب الثبات للتقاط الصور». ابتسم ثم نظر في ساعة الجيب: «اجلب معدتك، فعلينا أن نتحرك خلال دقائق»، تأملت نور القمر المتسرب من النافذة إلى أرض الغرفة، ثم أخبرته بأني لن أستطيع الخروج الآن، وكان لم يسمعني أجاب: «من قال إن الأمر قابل للتفاوض؟ سأنتظرك في العربة».

تسمرت مكاني حتى تلاشى وقع عصاته على الأرض، ثم ضربتني موجات القلق، واندفعت الأفاعي الصغيرة تحت فروة رأسي وخلف عيني، تثير الهرش والقلق، كبير مستشاري أفندينا شأنه شأن العامة ممن لا يدركون الخطر وراء نور القمر وقت اكتماله، وما يزيد الطين بلة أن المسافة بينه وبين أذن أفندينا معدومة، مثل المسافة بين الهدهد وأذن سليمان، سيجعل من رنفي التعاون أمرًا مباشرًا بنفسي إلى مناجم «فازوغي» بجنوب السودان، أشغلاً شاقاً حتى الموت، أو تغريقني في النيل مثلما يحدث مع خصوم القصر! هذا إن كان مبتور الورك هو كبير مستشاري أفندينا بالفعل، وليس جاسوس السلطان عبد العزيز الأول متنكرًا في هيئة رجال الحاشية، ولم لا يكون ساكن القمر المهجين؟ تخفى في جسد كهمل عجوز كي يدفعني للخروج من الغرفة فأتعرض لنور القمر الخبيث ويبدأ جلدي في التساقط؟

ضربتني الظنون وطعنت الشكوك صدري، قبل أن تفلت مني ضحكة حين تذكرت أن المهجين؛ لا يدخن الغليون.

يا لي من أحمق!

وضعت الكاميرا والواح الكولوديون في الصناديق، وتحققت من حقيقتي، ثم دهنت وجهي بالمرهم

العازل وارتدبت القفاز وعويناتي الداكنة، ثم خرجت إليه بعد استعادة الرسالة التي تحوي وصيتي من صندوق بريد ست آريانا قبل أن تقرأها، تجاهلت دهشته من استخدامي شمسية في ليلة غير ممطرة اتقاء لنور القمر، وركبت عربته الفخمة. عيناى لم تتركأ عصاته طوال الطريق، والأسئلة لم تكف عن الإلحاح: «هل قضم التمساح أبرد مع الساق؟ وهل عثر العبيد على بقايا للأير في بطن التمساح فوضعه في برطمان فورمالين فوق مدفأته ليريه للزائرين؟ أو ربما يُعلقه الآن في سلسلة برقبته تحت الصديري، ذكرى اليوم الحزين، مثلما فعل مع وركه البائسة، كيف الحياة بدون أير؟ هل يملك ميسًا للبول؟ هل هو من الذهب؟».

لم تتوقف الأمثلة حتى وصلنا إلى حي بركة «الفيل» حيث اتخذنا مركبًا، أقلنا إلى سرابة مهيبة تحمل رقم تسعة عشر، فوقها اسم «عزت باشا الدفتردار»، هكذا قالت الياطرة النحاسية، أو ما تبقى منها؛ فالسرابة مُنفضمة بالكامل، كأن شهابًا أصابها، انهار نصف السقف، وتصدعت الأعمدة. دلفنا بحرص وسط رماد لم يبرد بعد، دخان خائى ورائحة شواء كانت لتبدو لذيدة لولا انقطاعى عن أكل اللحم منذ سنوات، قال داغر: «لم يكن بالسرابة أحد سوى عزت باشا، فهو أعزب، وأفاد الخدم والطباخون أنه قبل الحريق بساعات صرفهم، ثم فوجئ سكان الحي بلظى النار، لم تفلح فرق الطلومبخانة والسقاة في إخماد الحريق إلا بعد ساعات». دلفنا إلى السرابة عبر فتحة كانت يومًا بابًا، انثقت موضع قدمى بين شظايا زجاج نجفة عملاقة تحطمت وأخشاب مُدببة، عاينت اليهود والصالون، ثم صعدنا إلى الطابق العلوى فوق لوح خشبى تألف من ثقلنا، ولولا أيدي العبيد ثبته لسقطنا وسط الركام.

غرفة النوم كانت فخمة، بما تبقى منها استطعت تمييز رفوف مكتبة تبخرت أوراقها، بندول ساعة حائط، حُلي نحاسية كانت على أيدي كراسى تحطمت، تمثال لرأس أسد فوق بقايا منضدة، وجثمان مُنضمح على سرير.

«لم استعنت بي؟».

سألت مبعوث أفندينا فأجابني من وراء منديل يقيه رائحة الشواء: «القواصة ثيوس كسالى، سيئون وجود نية للقتل حتى لا يُطالبوا بالبحث عن القاتل، وعزت باشا كان من المقربين، أفندينا بنفسه طلب معرفة سبب الوفاة»، كان عني تعميق الحفر في جبهته شبرًا إضافيًا لأستشف الحقيقة وراء اتهام أفندينا، كان عني استفزازه: «لم تظن أن فى الأمر سبق إصرار؟ فالأمر جنى، الباشا سعى الحظ، دخن سيجارته الأخيرة فى سريره، نعس فنام فاحترق مثل كل محترم يحترق»، كز داغر ضروسه واقترب: «سليمان أفندي، نوم عزت باشا وهو على موعد مع أفندينا ضرب من المستحيل، كما أنه رجل من المقربين، حامل للأسرار، إن احترق صدقة فسيكون ذلك هو الاستثناء». كان ذلك كافيًا.

أغلقت الشبابيك حتى لا يتسلل نور القمر فيفسد حواسي، ثم شرعت فيما خلقت من أجله، نصبت الكاميرا على الحامل، وضعت العدسة، ثبت لوح الكولوديون فى ظهر الكاميرا وأحكمت غلق الباب الخلفى، ثم اندست تحت القماش السوداء، التقطت صورًا للغرفة بثلاث زوايا، قبل أن أرفع الحامل فوق السرير وأحرك الكاميرا عموديًا فوق جثمان المشوي. انتهيت فأغمضت عيني وتمتمت بالأدعية، ثم أخرجت عدستي المكبرة، اقتربت من المتفحم وهمست فى أذنه: «أيا النائم، قم من مُباتك، اجلس وأفض إليّ بأخر أسرارك، اعتراف صادق أمام بطريك الفاتيكان لتال الغفران، هل تذكر صيغة الندامة؟ أتفضل حشيشة مخلوطة بجوزة الطيب للتخلص من رعشة يديك؟ شامية أم يونانية؟ كوبًا من النبيذ؟ لا تستطيع التحدث

لأن الطقس حار خانق؟ لا بأس؛ فأنت تُجيد الاستماع، أنصت إذن ولا تقاطعني، وسأتيك بدهان زيت الصبار لتخفيف الحروق. منذ دخلت بيتك أيقنت بما لا يدع للالتباس مجالاً أنك لم تمت إلا غدرًا وغيلة، الدوام لله وحده، تلك العجينة بجانب سريرك كانت يومًا إبريقًا زجاجيًا، والزجاج لا ينصهر في درجة حرارة النار العادية، نارك تحطت الألف وخمسمائة سلزيوس، حرارة لا تتأجج إلا بتشجيع نطف انسكب عليك بكرم، حتى صارت غرفتك جحيماً مستعراً. الدائرة من حولك لا تحوي بقايا سيجارة تُبرر تدخينك قبل غفلتك، وجليونك الفاخر، يرقد فوق منفضة تبعد عنك أمتاراً! مصدر النار غير مُبرر، ويؤرته الأشد تفحماً، هي جسدك وسيرك، تبدو كجذع شجرة استهلك للتدفئة في شتاءٍ روسيٍّ قاسٍ، ومع ذلك لم تتخذ أطرافك الوضعية المميزة للمُحترق، لم تتفحم أوتارك وعضلاتك ولم تنفوس الذراعان والساقان كمُصارع مُتحفز لقتال، بل إن أطرافك اتجهت زواياها؛ نحو أعمدة السرير كالمصلوب! سيدي، لقد شد وثاقتك بحبل من الألياف تبخر مع النار، صُب عليك النفط صباً، واحترقت حياً واعياً تقاوم في يأس، تصرخ باسم قاتلك، بفم مفتوح عن آخره، ثم أصابك الاحتراق بصدمة، أقنعتك أن المقاومة لم تعد مُجدية، فتركت النار لتفشر جلدك وتشوي لحمك، غير مُصدق أن تلك هي نهاية حياة عامرة زاخرة بالأمال والمنافسات الحرقاء بينك وبين أقرانك، حتى تشققت مجتمتك من غليان الأفكار بداخلها وطفح المخ على مخدتك ولطخ الحائط. أرجوك، تماسك حتى نزور المشرحة فأتعرف عليك أكثر وأحكي لك ما أعرفه عن ساكن القمر الهجين، وقد أنجح في حشوك باللبلاب حتى تصعد روحك مع فروعه من الأرض، فترسم بالأغصان اسم قاتلك على حائط.

أنهيت حديثي مع المتفحم واستأذنت ذا الورك المبتورة في نقل الجثمان إلى مشرحة قصر العيني لاستكمال الفحص، فوافق دون كلمة واستدعى العبيد.

استقبلنا شكيب عبد الصمد، بسحته العابسة وسحته المفرطة. نصيحة لوجه الله، ممارسة الجنس مع الموتى لعنة على من يفعلونها، حتى وإن أنكروا ذلك، ما إن رأى داغر والعربة التي أتينا فيها حتى ففر فاه بأسنان صفراء، المسافات بينها بالذراع، ذات بخر ينفس جثث الموتى: «المشرحة نورت». قالها ثم جعل يُرغى ويُزبد وينثر أساء جثامين المشاهير الذي تولى العناية بها - يقصد تقطيعها - ثم ختم بالثناء على بركة تشريف المشرحة بزيارة داغر، حقاً، كل كلب على مزبلته نباح. انتهى شكيب ثم ركض أمامنا بخفة عرس خالية من العظام، فتح باب المشرحة حيث سبقنا جثمان عزت باشا المشوي واستلقى فوق الحوض الرخامي، تنحى داغر جانباً بعد أن اشتم النشوق، ووضع منديلاً على أنفه، أخذ يتأمل الثقافات، فوقها الملائات البيضاء المنحوتة على هيئة الجثث تحتها، فيما فتحت حقيبتي الجلدية وأخرجت الماسك، القفاز، المنشار، المضغ والأكياس.

من العجب أن النار كما تحرق الأجساد، فهي تحفظ أعضائها الداخلية، استأذنت المتفحم همساً ثم شرعت في فحص الرأس المتصلع بمساعدة شكيب، سلخنا الجلد ثم نشرنا الجمجمة في دائرة، من الداخل، كان الرأس خالياً من السوائل، دس شكيب أصابعه ففشخ الفم المتصلب، وكان فارغاً من الضروس، والأسنان منتزعة من جذورها، وبعضها تكسر لكنه ترك شظايا، وما حسبناه لساناً اتضع بعد استخراجها أنه بقايا أير الباشا! ألقيت نظرة بين ساقيه فتأكدت من وجود حفرة فهمست في أذنه على استحياء: «خارج من الحريقة قابله الغراب زغطة، من الواضح أن قاتلك يحمل لك ضغينة، اسحب نفساً عميقاً ثم كُح»، وتناولت المشط فشقت الحلق، سعل بصوت مجروح، ثم تقياً عملة ذهبية من فئة العشرة قروش، تحفور عليها تاريخ سك «١٢٢٣هـ»، محشورة في الحلق، لم يسعه الوقت أن يبتلعها، وضعتها في طبق واستكملت طريقي بالمشط، أفرغت المعدة بيدي شكيب، ثم فحصتها بأصابعه الغليظة التي لا تعرف الامتناع كحرمة تنتقي السوس من بين حبات الأرز، وجدت بقايا عنب وتين غير مهضوم، بالإضافة إلى الضروس والأسنان المهشمة.

انتهيت فأوليت شكيب خياطة جوانب الجثة، ثم اقتربت من مبتور الورك: «بلغ أفندينا السلام من العبد الفقير إلى الله، ثم أخبره أن تلك قتلة متعمدة مع الإصرار والترصد، دافع الانتقام والتنكيل فيها جيّ لا شك فيه، يحمل رائحة الحریم، فالأير مبتور قبل الحرق، ابتلعه الباشا عنوة وهو حيّ، بعد تكسير ضروسه والأسنان بكماشة غليظة، كما عثرت في حلقه على عملة من فئة العشرة قروش، القاتل لم يهتم بإخفاء معالم زيارته، بل أراد أن يُنكل بالضحية ويصنع منها عبرة ليشفى غليلاً ما، وليس القتل بدافع السرقة، وإلا لاكتفى بخنق ثم حرق، وما كان ذلك ليخفى عني أيضاً، في القصة زوج مخدوع وضلوع للحریم، غيرة، حسد، خيانة وانتقام، ألم يقل نابليون بونايرته: «ابحث عن الحرمة»؟

«عزت باشا كان يهوى الغلمان».

قالها «داغر» ثم تنحى بي جانباً وهمس: «لم يبالغوا حين قالوا إنك تفقه لغة الموتى، كيف تعلمت تلك الحيل؟»، أخبرته بأن أبي كان باشتومرجي المشرحة منذ تأسست، وذلك الأبله - وأشارت إلى شكيب - كان

عبده ومعاونيه، اشتراء بجنيه وثلاثة ريات من جلاب أعور. شكيب لا يذكر البلدة التي وُلد فيها، ولا يعلم لأبيه اسمًا، فقط هو شكيب، وأضافنا إليه «عبد الصمد» حتى نسب أبيه حين نحجب، مخلوق نادر من فصيلة «الشكيبات» التي لا تملك عضو الاشتزاز، مثله مثل دودة المش، لا تستمتع إلا بالانغماس في الحموضة والملوحة، وإن انغمست في العسل، تنفق. رباه أبي وعلمه التشريح فأحبه وأتقنه، وتفنن في تخييط الجثث والتفصيل، ولم يخرج من المشرحة منذ دخلها. أما «عبد الله»، فقد قضيت في تلك المشرحة طفولتي وصباي، الهو بين جثث الموتى كأنهم أقربائي، لم ينهروني يومًا، ولم أهيبهم، بل قرأت عن مصائرهم بعد الممات في كتابي «القول الصريح في علم التشريح» للعلامة «الدمهوري»، و«فتح الرحمن في بدء خلق الإنسان» للشيخ «علي الخياط»، حتى سمعت أحدهم يهمس بكلمات غير مسموعة، عجوز مُغطى بملاءة فوق نقالة، وكنت وحيدًا لم أبلغ الثالثة عشرة بعد، لم أصدق أذني في البداية، راقبته لساعات فلم يتحرك أو يهمس، ثم اقتربت، فأوحى إليّ بسبب موته الذي أغفله أبي وقت الفحص، خطوط بيضاء تصعب ملاحظتها تعلو أظافره، تلك علامات «مسحوق الميراث»، الزرنيخ، فهو عجوز وحيد، وأراد ابن أخته استعجال موته ليرث. ركضت إلى أبي، أخبرته بما علمت ولم أجروا على سرد سبب معرفتي حتى لا يظنني مناخوليا، فأبلغ القواصة بشبهة القتل، وتم القبض على الجاني وحضرت شفته، وأثنى عني أبي يومها فأهداني عدسته المكبرة، وهي العدسة التي رأيت بها نفس العلامات البيضاء تحت أظافره، بعد ثلاث سنوات، حين سقط أبي بعد قميء شديد تحسبوه شوطة الكوليرا التي ضربت البلاد سنة ١٨٣٤، لم يصدقني أحد حين صرخت بأن أبي قتل ولم يمت بالمرض، فنصف جثث الموتى كانت تُعاني الكوليرا، وأعراض تُسمُّ الزرنيخ، مُشابهة للكوليرا، هكذا ذهب السر معه إلى القبر. أما الكاميرا، فقد ورثتها عن جاري الأرمني «هاجوب»، مُخترف تصوير الموتى، طلب مني معاونته في حمل مُعداته نظير قروش، وحين وهن ودب فيه العجز، علّمني كيمياء الكولوديون وتركيب الكاميرا، وكان أول جثة ألتقط لها صورة جنائزية بعد موته.

استمع داغر لقصتي دون مقاطعة ثم همس بعد تفكير: «قالوا إن في عقلك مسًا شيطانيًا، ويبدو أن ذلك صحيح، لذا سأعتمد عليك في إيلاغ شيطانك رسالة مني؟ إن طالت أخبار مقتل عزت باشا أنف الجورناجية أو الفضوليين في أي من أنحاء المحروسة، فسأنفيك إلى مناجم فازوغلي، لتطمس عيناك، ويُجذع أنفك، وتعمل في سُخرة لن تنتهي إلا بموتك».

قالها ثم دس في يدي جنيهاً نابليوتيًا، عربون تقصّ وتحجّر، عني أن آتبه بالصور الفوتوغرافية، وأدوّن انطباعي عن القتل بخط مقروء، وسيكون أجري كمينًا كاملاً إذا عثرت على القاتل.

ابتلعت وعيده ولم أعقب، فالأرعن المغرور الأهوج، يجهل مع من يتحدث، سليمان جابر مختار ناجي سراج مهران عياد ذكي نصر أبو صبيحة السيوفي، الشهير بسليمان جابر مختار ناجي سراج مهران عياد ذكي نصر أبو صبيحة السيوفي، السيد المهاب، عالم الدهر، ومُصني الظهر، وتارك العصر الجاهلي بصلاة العصر، البطل الذي تلقى يومًا وعيد سلطان العثمانيين، وتهديد هجين من القمر دون أن تنفض في جسده شعرة! الآن يريدني أن أخافه؟ كان غيرك أشطر، ففي معظم الليالي أبأت أقلمس من يهودي نهار سبت، ولا أتقاضى عن استنطاق الموتى ونسليتهم بمررد دوافع قاتليهم أجراً أو بقشيشًا، أكتفي بهدايا ونفحات أهالي الضحايا المكومين، زبدة وخضراوات وسمك وعيش، لكني، غنًا فيك، سأشتري بنابليونك عوينات شمسية مُروّدة بالزجاج الأزرق الأفرنكي موضوعة باريز، زيت بريمو للمصاييح، أقفاص سُكر، عدسة جديدة للمنظار

الفلكي، رطلان زينة وزجاجة عرق بلح من شمارة «طانيوس»، وهدية من أجل عزيزة العزيزة، سلوان
الوحدة والهم والحزن، وسأدخر ما تبقى حتى أشتري من الوكالة جارية شركسية أتخذها نواة لحرملك مكنتظ
بالخور العين.



اليوم الأول لاستئناف تناول عُشبة يوحنا

حين اطلع الحكيمباشي «ماسون» على يوميّاتي خلال زيارته، ضحك كثيرًا، ثم أثنى على صراحتي، وخطي المنع في اليوميّات، وإن كان الإحباط قد أصابه بسبب عزوفي عن عشبة يوحنا التي يُرجع رغبتي في الموت دائمًا إلى عدم التزامي بتناولها، فهو يدعي أنها تحافظ على عقلي من الانزلاق في الكآبة السوداء، وتحسّن مزاجي، حتى وإن كررت على مسامعه كم تشعرني بالانزعاج والكسل، كيف تصبني بطفح جلدي وتورّم في اللسان واللثة، وكم تجعلني غيبًا بليدًا كتيّس عقيم، لا أستطيع التحدث مع الموتى أو أفقه لغتهم، والأدهى من كل ذلك، كم تخذلني أمام عزيزة حين نخني، أصير أنثى مثلها، أخت كريمة، عاجزة حتى عن مداعبتها. يسكت الحكيم ولا يعلق، يتركني في العادة لأجتر حالتي، حين أمتنع عن تناول العشبة، كأني أتمشى في وادٍ من البارود السلطاني الأسود، ثم تراودني رغبة محمومة، مدفوعة بحنجرة ألف شيطان كافر يصرخ في أذني حتى تنشق حنجرته: «سليمان يا سيوفي... لم لا تُشعل عود نقاب؟»، فأستجيب دون تفكير.

ربّت الحكيمباشي على كفتي ثم أخرج من حقيبتيه براعم النبتة، سحقها في إناء ثم غلاها حتى انساب السائل الأرجواني الكريه، تجرّعته على مضض فأحاط وجهي بكفيه وقال بعينين ملوّهات الشفقة: «إن قاطعت عُشبة يوحنا يا سليمان أو استبدلتها بالحشيشة، فستهاجمك الأفكار السوداء والخيالات، وربما تُصاب بنوبة فزع، فتلقى بنفسك إلى التهلكة، هل نسيت حين اختبأت بداخل شجرة أم الشعور العتيقة لثلاثة أيام كاملة بلا طعام؟ أم نسيت يوم ألقيت بجسدك أمام عربة السلطان عبد العزيز خلال زيارته للقاهرة منذ سنتين؟ ولولا عناية الإله لدهستك حدوات الخيل أو أطلق عليك القواصة بنادقهم؟ ألا تريد لمن حولك أن يصدقوك؟».

لم أملك ردًا غير الصمت، فمعرّفتي بغباء البشر وقصورهم العقلي عن استيعاب العلم الذي أتاني، هو رد لا يرضيه، فابتسمت، وهزّزت رأسي مؤمنًا على كلامه، فزفر مطمئنًا ثم أردف: «أحرص على كتابة يوميّاتك في تلك المفكرة، كي أراك وأسمعك، اكتب عن كل شيء وكل نفس تقابلها، اكتب حتى عني وقل ما تشاء، بلا حرج، ولا تتوقف يومًا عن تناول عُشبة يوحنا، مهما حدث يا سليمان».

تجرّعت السائل الأرجواني، ليس من أجل موقٍ أو حياتي، وليس من أجل عيون عزيزة، بل من أجل ألا يشمت بي السلطان عبد العزيز الأول ويحفل لموتي بين جواريه الفاتنات.

أدين بالكثير للحكيمباشي ماسون، رجل طيب خلوق، لا يترك صلاة في المعبد، تعرفنا منذ ثلاث سنوات، يوم طلب مني صورة لابنته المتوفاة ذات السبعة أعوام، زُرت بيته المتواضع، خُضت في الوجوه الحزينة حتى دلفت إلى غرفة صغيرته، ولم يمضي على وفاتها ساعات، أراد أن يُخلد ذكراها بصورة فوتوغراف، تقليدًا للأوروبيّة في توثيق موتاهم، قرار لا يجرؤ على اتخاذه المصراوية الذين يستعجلون دفن موتاهم إكرامًا للدد. ألبستنا الصغيرة فستانًا أبيض مزركشًا، صلبت ظهرها ورقبتها بخشبة ملفوفة بالقطن، وفتحت جفنيها بالصمغ دون أن يسقط لها رمش كما علمني الأرمني «هاجوب»، نصبت الكاميرا والتقطت الصور، ثم همست في أذنه بأن فقيدته سعيدة براحة من بعد ألم؛ فقد كانت تعاني داء الكبد، سألتني باستغراب كيف علمت، فأشرت إلى جبهتها الداكنة، ونوّهت بأنها ربما تركت رسالة من أجله في بيت الدمية الملون،

وناولته مفتاحًا خشبيًا. هرع المسكين للمبيت الصغير، يدفعه الشك ويغمره الأمل، في التواصل معها، فتح الباب الصغير فوجد رسالة بخطها: «سأنام في سرير الدمية من اليوم، جسدي لم يعد يؤمني، أرجو أن توافق يا أمي»، بكى الرجل بخرقة، احتضن جثمان صغيرته ثم سألتني: كيف علمت؟ في العادة لا أبوح بأسرار عمي، أخلق قصصًا تُجسد سيرتي وتؤكد الكرامات التي وهبني الله إياها، لكنني أشرت إلى أنامل صغيرته، وتحديدًا إلى الخبر الناضج حول الأظافر، ثم أخبرته بأنني وجدت مفتاح بيت الدمى تحت ذراعها، وكزاسها الصغير، منزوعة منه الورقة الأولى، بعدما تركت أثر حفرة لرسالتها على الورقة التي تليها.

بعد أيام زُرته، أحمل في يدي صورة فقيدته الصغيرة، تجلس في وداعة بجانب صندوق الدمية الذي أصر أن يظهر في الصورة، أعجبت تفاصيل الوجه والإضاءة، فأجزل العطاء، ونفختني أجرًا إضافيًا لقاء عشوري على الرسالة، أخبرني أنه حكيمباشي استبالية فلاوون، وارتاح قلبي للحديث معه، ثم دعاني للغداء.

على المائدة أسررت له همسًا بشأن تاريخ ساكن القمر، الهجين الزاحف، وكيف كان يسكن الكوكب الدائر بين المريخ والمشتري، وكيف تحطم ذلك الكوكب حين تحرك من مداره في خلاف عائلي وغضبة تنم عن سوء الأدب، ثم حكيت له بالتفصيل كيف نجا الهجين بالقفز على متن مذنب متجمد، وكيف سكن القمر، من بعد فناء بني جنسه، وكيف أتى إلى الأرض ليرتدي أجساد الخلائق، فمصنًا من لحم، وكيف يأكل الذهب الذي يستخرجونه من قبور الفراعين وينشر الأمراض الفتاكة التي كانت سائدة في كوكبه، مثل الطاعون البقري والكوليرا.

سكت ساسون ولم يعقب، مخالفًا كل من أفضيت لهم ببر الهجين، لحظات طالت، لم أنرا في وجهه سخرية أو استهتازًا، فقط ابتسم مطمئنًا، تركني لدقائق ثم عاد، وضع في كفي كيسًا يحوي أوراق عشبة يوحنا، مُدعيًا أنها ستساعدني على التركيز: «ستحذ عقلك وتقتل الأفاعي السوداء في دمك»، ومنذ ذلك اليوم لم يتخلف عن زيارتي كلما سنحت له الفرصة، ولا يرحل قبل أن يقرأ ما كتبت في يومياتي، دون أن يصادرها، ويتأكد من توغل مفعول العشبة في أوردتي، تتوارى من تأثيرها الأفاعي السوداء خلف أعضائي، وتصيب فروع اللبلاب بالشلل على الحائط، أنظر للسماء في المنظار فلا أرى لخطوات الهجين على القمر أثرًا، الكنبه المخملية تبتلعني، تمضغني، أصير ذبابة، أغرق في إناء غسل، نبضات القلب تتباطأ، أستغني عن التنفس، أترفع عن الجوع، عن الشبع، عن الاهتمام بأبعد من رموش عيني، سفينة تغوص لتلمس القمر، الأفكار تتلاشى، تبتدد كالسحب أمام العاصفة، وإن راودتني عزيمة: بجسدها البض الرودي المدملك تتغنج وتتلوى. أمتعض، أتمنع، أزهد، الرغبة فيها تتطاير كالكحول الرخيص، وحين أذكرها مُستلقية على السطح عارية بين أحواض الخضراوات الملونة وقت الغروب، وملح البحر يسيل بين الشرة والنهدين من بعد وطء طويل، لا يتحرك في جسدي عضو، كرئيس خصيان القصور، أرقب خصيتي المربوطتين بشعر الخيل، تضمران وتسقطان على الأرض بين قدمي، برضاء، ويأس لذيد تمتع قانع مُستكين مُستسلم، الذبابة تأبى الخروج من العمل، تنمرغ وتنغمس، تشمل وتضحك، وتغمز للنجوم بثلاثة آلاف عين، لا يُكدر المشهد المهيب سوى بومة اقتربت من النافذة، رمقتني بعينين مضيتين، ثم نعتت بسبة، قالت: «مناخوليا»، نعم، بنت الرفضي قالت «مناخوليا». لم ينتبني الشك للحظة أن تلك البومة تعرف نواعم مكرم؛ أمي. نعم، تلك كانت سُبها المفضلة، لقد حذرتني الحكيمباشي ساسون من الإنصات للبوم خاصة دون بقية الطيور، وحذرتني من تذكر اسم أمي، وقد وعدته ألا أخوض في حديث عنها، لكنني وعدته أيضًا أن أكتب ما يجول بخاطري مهما بدا تافها، فكلما طردتها من

رأسي ازداد صوتها حدة مع خنف شيطاني: «أنت عار». لسانها المذهب يخترق طبلة أذني، يلعقها: «يا خول» - لا مؤاخذه لا حياء في العلم - وتنادي بها في مقطعين بنغمة متميزة يسهل لأطفال الحي من أقراني حفظها: «يا خاا - وaaaaا»، البومة أمام النافذة تقلد نبرتها ونظراتها: «مخبول، موبوء، راكبك شيطان يا بعيد، يا ريتني دفتك بالحيا يوم ما اتولدت». أمي كانت لستمى إنجاب علبة سردين على أن تُنجبني، ولم تتوقف في ذلك اليوم عن تأكيد ذلك، كانت زيارتها الأولى لغرفتي باللوكاندة، بعد سنين انقطاع، أخذت تزوم وتلوم وتجتز ذكرياتنا الأليمة وتهكم، على هيتي، مسحتي، ملاحي التي تشبه أبي، على أثاث الغرفة، وحتى الهواء، لم يسلم من لسانها السليط، كلب مسعور ينيح في وجهك دون توقف، حتى مرّت مكّيني بسلاسة عبر رقبتها، دون استئذان، جمحظت عيناها في ذهول، فتحت فمها عن آخره بصرخة لم نكتمل، تقهقرت خطوتين قابضة بأصابعها على نحر تمزق وتخرق، تعثرت في طرف السجادة فسقطت على ظهرها محدثة دويّا أجبر جاري على الاطمئنان عني، واندفعت الدماء كنافورة عثمانلية تضخ الدماء بإيقاع نبضها المتلاحق، دماء داكنة لزجة، تتناثر على الوجه والصدر بخوار يائس، الهواء يختلط بالدم، يصنع فقاعات وردية صغيرة. جثوت بجانبها وقد تمكّني الهلع، حدجنتني بغضب يصارع الاستعطاف، رجوتها أن تنفر، أن تنسى إساءتي، أن تبسم، أن تشدو بأغنية أو تطبخ لي شوربة خضار، قبضت على رسغي بشدة حتى انغrust أظافرها في اللحم، فاحت كالحية بكلبات مبهمّة، فغrust السكين في محجر عيناها اليسرى، وأدّرتة مرتين، حتى سمعت طقطقة، انتفضت ست الحبايب، تشنّجت أطرافها، ثم خمدت حركتها إلا من رعشة في ساها خفتت رويدًا رويدًا قبل أن تسكن.

يا ما قالت لها جارتنا أم رمضان الشهيرة بغفوية السكرانة: «كُتر النخس يعلم الحمير الرفس يا أم سليمان».

عزيزي قابيل،

نحية طيبة وبعد...

فضلاً وليس أمراً، أنصحك بقتل أمك حواء بدلاً من أخيك الطبيب هابيل، فهي من دسّت سم «الزرنخ» لأبيك على مدار شهرين؛ حتى ظهرت الخطوط البيضاء في أظافره، ليخلو لها الجو مع «شقيق وزه» مُدرب الأفاعي وصاحب سيرك «وزه» المتنقل - الذي لم يعد متنقلاً - منذ انتصبت خيامه على ناصية حارتنا زمن الطفولة السعيدة.

ملاحظة: قبولك «أقناع السكر والعسلية والبطاطا المشوية» نظير ذهابك لشراء رطّي برتقال في شهر يوليو؛ لا يعني عن الرجوع إلى البيت في وقت مبكر مُباغت، وفتح باب غرفة نوم أمك بلا استئذان.

المخلص إلى الأبد

سليمان جابر السيوفي أفندي

نمرة ١٠ - لوكاندة بير الوطاويط

النيل لم يكن مطروحاً كموضع دفن يليق بجسد أمي، فبالإضافة لبُعد المسافة، واستحالة نقلها فوق حمار في تلك الساعة، فالتقواصة يحاصرون الضفاف ليقوعوا الغرامات على الفلاحين الذين يُلقون ببهائمهم النافقة من أثر الطاعون البقري في النهر، ويناوشون المازة ويفتشون العربات بحثاً عن مُصاب بالكليرا

يختبئ ليعزلوه، كما أن الزفت بشاف، إلهي ينشل، لا يكاد يغادر دكته بعد دخل اللوكائندة. أصابني الصداع النصفي، وتلاحقت أنفاسي، ورأيت الإعدام ذاتيا لا مفر منه، كان ذلك حين حدثت المعجزة، تحركت فروع اللبلاب على الحائط، أفاء خضراء استيقظت للتو من نوم عميق، أول اتصال بين البشر والنبات، تشكلت بثلاث كلمات: «سليمان.. دعها لي»، وتلاشى الصداع بفتة، ارتاحت نفسي وانجلت بصبرتي، ورأيت الألوان زاهية والسماء صافية، والطيور تطير وفي بطونها رز معطر، واشتممت في الهواء رائحة الأمل، أدركت ساعتها أن الله يعيش بين ضلوعي، أقرب إليّ من حبل الوريد، فخررت على الأرض ساجداً باكيًا ضارعا من الخشية، لقد اختارني واصطفاني من بين مخلوقاته واختصني بالتواصل مع جنس النبات عن طريق اللبلاب، لا يعينني إلا تكرار اسمي مع نبي زميل، سليمان بن داود عليه السلام، ورغم الفخر، سيكون عني أن أميز اسمي بكنية أو لقب أو شُرطة، وألا أحترف تسخير الجان، لا أحب أن أبدو مقلدا، كما أن سليمان دعا المولى أن يهب له ملكا لا ينبني لأحد من بعده، فلا تجوز المنافسة.

لا أعلم كم من الوقت مر قبل أن أستيق من نشوئي، مسحت دموعي وغمرت جثان أُمي بالملح، ثم سكبت عليه خليطا من كيباويات الفوتوغراف الحافظة، ضمنت سجادة جلد الجاموس المفرودة تحتها، وأحكمت الربط على كرشها بحبل غليظ، صليت عليها بعد رش المسك فوقها، ثم جررتها بصعوبة وأتمتها واقفة في زاوية الركن الأيسر للحائط، التفت لها صورة أخيرة رفضت فيها أن تبسم، ثم رفعت أمامها جدارا بطوب كنت أخزنه لبناء مصطبة للمنظار الفلكي بالسطح، باستثناء موضع طوبة تركته خاليا، أمام عينيها مباشرة، كي أنطلع عليها وقتما أشاء، أخفيته وراء صورة لجارية سوداء، التفتتها بناء على طلب من سيدها منذ سنوات، وما لبث اللبلاب أن تسلق الحائط في سرعة وزينه من أجني. منذ ذلك اليوم أنام عند الركن الأيسر من الحائط، حيث اللجنة تحت أقدام الأمهات.



صدق المثل الشعبي الذي قال: «الدراهم مراهم».

بجنيهاً مبتور الورك اشترت عوينات شمسية الأفرانكا ذات زجاج أزرق، أبدو فيها كأمرء النمسا المُرْقَهين، كذلك عثرت على عدسة للمنظار الفلكي بسعر جيد في سوق المستعمل، واشترت لعزيزة خلخالاً فضياً مشغولاً، أحواضاً جديدة للبلاط، مرهماً وافيًا من نور القمر، زجاجة كولوديون للفوتوغراف، قمع سُكّر، وترباصاً للبلاط حتى لا يباغتني زائر إذا عاودتني الكآبة وتكاثرت الأفاعي تحت جلدي ونويت كسر رقبتى.

وحين عُدت إلى اللوكاندة كانت بانتظاري رسالة مغلقة بختم أحمر يحمل اسم داغر بك رستم: «احضر حالاً إلى دار عصمت باشا حسن» وعنوان. جريمة أخرى؟ باشا آخر؟ مبتور الورك يترك عمله في القصر ليتولى أمر الجريمة في المحروسة! عزت باشا «المشوي» كان مدير خزانة الوالي، لديه من الأسرار ما يتمنى كل ملك أوروبي أن يشاركه، والآن عصمت باشا، رئيس طائفة التجار، وأحد أغنى أغنياء المحروسة، هناك من يتربص برجالات مولانا السيان، أو أن السلطان الخبيث عبد العزيز ينصب لي المكيدة، ويلقي بالطعم وراء الطعم حتى يستميلني ليختطفني ويطعمني لكلاّب الأستانة على مرأى من الجوّاري الشركيّات؟ اللعين لن يتغاضى عن تهديدي لمنصب الخلافة، ولن يسمع فيما فعلت يوم زيارته للمحروسة ووسط اهتاف المناقب للجنّد الأتراك «بادشا همز جوق يشا» حين تعثرت وأنا ألقى بجرة ماء آيسن أمام عربته المزخرفة، وسقطت أمام الخيول، وربما اشتعل غضباً لأن إحدى جواريه تفوّت في أذنه باسمي ولها في خلوة. لن أجيب دعوة مبعوث أنفدينا حتى وإن نثر الذهب تحت قدمي، ذلك فخ لا يقع فيه الصبيان، لست غشياً أو قليل المفهومية، ولا يُلدغ المرء من جُحر مرتين. هكذا أكدت فروع البلاط على الحائط. وما كان مني إلا أن مزقت الرسالة، أغلقت النوافذ، وحشرت خلف الباب كُرمياً حتى لا يباغتني مبتور الورك. واقطعت ورفات فرع نصر من البلاط فغلقتها مع مزيج القرقة والزنجبيل، نجرعتها حتى يبطؤ زحف الأفاعي تحت جلدي ونحمد الأفكار، ثم أعددت طعام عتر ونككت السبعة أفعال التي تعزلني عنه بعد وضع الكمامة المنقوعة في الزيت على أنفي، ودخلت في حضرتة.

وراء الباب، وحين اشتّم رائحتي رفرف بجناحيه في الهواء، تحيته المعتادة، لولا ثقل جسمه والجنزير الحديدى المحيط بساقه لكاد يرتفع، وضعت الإناء برفق بين رجليه الأماميتين، وربّت على ظهره الأزرق ثم رفعت الغطاء الجلدي الذي يغطي عينيه لتهدته، تأملني، فحص كل شبر في جسدي، ثم مدّ خرطومته مستنشقا مستشعراً قبل أن يدهس في الطعام بنهم، شفط بقايا السردين والفواكه الحامضة وأرجل الفراخ، بنهم مسموع، والتفت وراءه جامعاً فضلاته في جردل، فعثر تحراً مثل البغال. دلكت رقبته وسرحت شعره بمشط خصوصي حتى فاحت منه أمارات الامتلاء وأصابه الشبع بثقل، مسح رأسه وطقطق خرطومته ثم اضطجع فأوحى إليّ بكلمات: «لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد، بل خافوا من يقدر أن يهلك الجسد والروح معاً في جهنم. القتل سيكرر، وراء أقدم زاحف هجين، بل أكثرهم غلاً، فهو من جنوب القمر»، وارتشف جرعة ماء ثم أردف: «اسم سليمان بات مقروناً بمصير الموتى الذين ينادونه».

بثّ أفقه وحي عتر من طول عثرتنا؛ فقد نبأني بكثير من الأحداث التي شهدت على صديقه وجلاء

بصيرته، مثل ولادة الحرمة نوال زوجة خفاجة المكوجي لرضيع برأسين، وتاريخ وفاة أفندينا الأسبق محمد سعيد باشا الذي حذده بدقة قبل وفاته بأسبوع. سردت لمسامع عنتر ما حدث من أمر عزت باشا المحروق، ثم سأله الرأي والمشورة فأجاب: «طريق مخوف بالمخاطر ولا بد أن تكمله». ثم تحمل وحك ذراعيه واقترح أن أعاونه في الصعود إلى السطح ليفرد جناحيه، لعله يطير، المسكين لا يدرك أن أجنحته لن تحمله، كما أن عشيرته الآن في حالة بيات شتوي، لا يتحملون البرد تحت عشر درجات سلزيوس، خطوة واحدة بعيداً عن غرفته التي خصصتها له منذ عام ونيف وسيهاوى من عل كيبانو مسيو «روجه» الذي انقطعت حباله وقت عزاله، فتهشم فوق رأس عطوة اللبان، ذلك إن لم يتلق طلقات بنادق القواصة المميج، أو يطارده الجهال من الأهالي حتى يهلكوه، وقد يتحول جسد المسكين إلى مزار للعامة يتمتعون حوله بآيات الإعجاز والعجب.

طلبت منه التمهّل حتى فصل الصيف فاستجاب عن مَضض، سكنت حركته وكف عن الطنين والطفطقة، لوى خرطوميه وبرك مثل ناقة عجوز، فأغلقت عليه بابه ثم نزلت إلى الشارع من بعد صلاة المغرب، شاركت الناس فرحتهم بآخر ليلة في رمضان، أطوف وسط الجموع الساهرة حول مسجد السلطان حسن، شامتاً في قمر انسلخ إلى هلال هزيل، مُردداً وراء المنشدين أغنية: «رمضان مات.. رمضان مات»، قبل أن أنعطف إلى دكان المزين، شدّيت لجعني ودهنتها بالزيت، ثم اتجهت إلى قهوة الشرفاوي، دخنّت النارجيلة، ووزنت رأسي بقرعتين بوظة، استمعت إلى راوي يقص عن أنعام الربابة سيرة «عنتر العبيسي وعيلة» مضيئاً تفاصيل غرامهما عند البئر، ثم تابعت الحاوي، يلاعب نعباناً يتلوى، فتذكرت عزيزة وعنق عزيزة، وخصر عزيزة، وميّت نفسي بقاء دافئ مُقدر بعد ليلتين، ولتسأخني أيها الحكيمباشي ساسون! فقد توقفت عن تناول عُشبة يوحنا حتى لا يرتخي طرفي العزيز أمام العزيزة وخلخالها الفضي.



منذ أيام؛ حين عُدت من القهوة بعد الفجر، افترشت كنبتي، البوظة لها تأثير سحري حين تغوص مغرقتها في قعر الإناء لتأتي بالخميرة السفلية، ورغم الانتشاء، ورغم النعاس البادي في الأفق كالسراب، داهمتني الأفكار دون إنذار، من شهد هجمة الجراد الليبي الأخيرة على الدلتا سيفهم مقصدي، ازدحم رأسي بسرب نهم مهاجر، مئات الألاف من الحشرات تُصدر صريرًا مريًا يتصاعد ولا يتهاون، الأرجل الخلفية والأجنحة تحتك بأذني، والفكوك المسنونة تقرض الأثاث وتمضغ الستائر وتنهش فروع اللبلاب، عثر يُصاب بالهياج حين تتزاحم الأفكار في رأسي وتندافع، لا يقدر على كسر جنزيره لإنقاذي، فلادين من الهواجس تشتعل، هكتارات من الخواطر تتطاير وتتناثر في سماء الغرفة، حروب أهلية بين ضفتي عقلي، وظنون سوداء تُراودني، تتهمني بقتل هايل وإلصاق التهمة بقبائل، تدعى أبي دمست السم للإسكندر في طبق الملوخية الأخير، وترميني بحرق مكتبة الإسكندرية بعقب سيجارة، فيضان النيل يعلو ويهدر، تبلغ موجاته نافذتي، المياه تندفق إلى أرض الغرفة، نهر يبعث عن مجرى جديد، تجرف في طريقها جثث أبقار وحمر، وتماشيح ترصوص بغزال فوق منضدتي يشرب، قبل أن تنفض عليه وتسحبه تحت السجادة، المهجين يحتل جسدي، والسلطان عبد العزيز يدق بابي بعصاته العاجية، تلك لم تكن هواجس، كان هناك صوت طُرق على بابي بالفعل.

تصنعت الغياب، ولكن بشاف ولأنه فرندي ابن سنين كلب، أكد حضوري بنهيته المنفر، أكره وقع اسمي بصوته، ينوح كأرملة حرون تصنع الحزن على زوجها، دفنت رأسي تحت المخدة فانخلع الترباس الحديدي من الدفعة الثانية لكتف القواصة، لم يمهلني الوقت حتى أرندي عويناتي الجديدة، لم يمهلني الوقت حتى أدهن المرهم على وجهي ويدي، حملاني فوضعتني على حمار خصوصي ذي سرج من القطيفة، سار بي في حراستها حتى سراية عصمت باشا المظلة على النيل نمرة مبعة سكة المقياس. داغر كان في انتظاري، مُتمتع الوجه يُدخن غليونه في عصبية: «لا تجبرني على سجنك في قبو مظلم، لنكن تحت طوعي متى ذكرت اسمك، ألم أرسل لك رسالة؟»، لم أجرؤ على الاعتراض أو الإنكار، ما هي حدود رجل قضم التنساح ساقه وأیره؟ بالتأكيد ليس لديه وسيلة إلا العصبية حتى يفرغ غضبه. زفر داغر ثم مسح شعره واستطرد: «عصمت باشا حسن، رئيس طائفة التجار، قتلة أخرى يشيب له الولدان، القواصة اشتموا الخبر بسبب تأخره في الامتثال، حضروا وانتشروا ككلاب السمك، لكني منعتهم من مُعاينة الجثمان وأغلقت باب الصالون».

حين عبرنا البوابة قابلت المدعو «بوراك الأرناؤوطي»، مُفتش قواصة شرق المحروسة، رجل طويل مُتعجرف، مُقرز مثل السمك، حدجني باشمزاز من فوق شنب صر صاري الهيئة، وصافحني بسلام كسلام المواردي عن الفسخاني، ذلك الحفير الذي يتلقى الاتاوات، ولا يطيب له الطعام إلا من قوت زيد الفلاحين وألبانهم، لن ينسى اليوم الذي حللت فيه مُعضلة نهب محل الجواهرجي اليوناني واتهمت أحد رجاله بالفعل، واتضح صدق قولي، هم لصوح اللصوح، حاميا حرامياها، وكما يقول المثل: «قالوا للخاطبة توبي، قالت ومين يملأ جيوبي؟».

في الطابق العلوي كان رجال «بوراك» متشرين في كل ركن، ضباع جانعة تحوم، وجيوب امتلات بما خف وزنه وغلا ثمنه من جنابات المراية، ولولا صيري خلف الأعرج مبتور الورك لربما نفخوا شعر عانتي

ورضعوا عصيتهم في مؤخرتي. حدثت فيهم متعمداً الاستفزاز، ثم دلفنا إلى الصالون الفخم، أثاث مُذهب طراز لويز الرابع عشر، لوحة قديمة بالحجم الطبيعي لصاحب السراية بملابس التشريفة، وأخرى مع حرمة تؤكد المثل القائل: «إن دبل الورد ريجته فيه»، تقف وراء كُرسيه عالي الظهر المكسو بالقטיפيفة المشغولة، ولوحة نصفية لمحمد علي باشا، وأخرى لأفندينا الحالي، مدفأة من الرخام الإيطالي، فوقها شمعدان من الفضة تحت رأس مُخنط لثور في خطمه حلقة نحاسية، السجادة فارسية، والثريا ضخمة تحمل أكثر من مائة شمعة. تحتها، كرسي ذو ظهر عالي، مكسو بالقטיפيفة المشغولة، يحمل صاحبه، جسداً هرمًا اعتزل الحياة، دُرت حوله لأتأمل ما كان يُعرف يومًا برئيس طائفة التجار، المسكين كان عارياً كما وُلد، سميناً مثل بقرة حلوب مترهلة، رسغاه وقدماه مقيدة إلى ذراعَي الكرسي بسلاسل حديدية، أيرد في مكانه منكمش مذعور، فمه مُكتم بقماشة امتزج فيها قيئه بالدماء، وفوق دماغه قدر طعام نحاسية مكبوسة، موثوقة بحبل يمر أسفل الذقن، ذراعها مثبتة في ظهر الكرسي بمسامير كبيرة تضمن عدم الحركة، والخواف، لم تمنع الدماء من التدفق على وجهه وصدره وصبيغ الأرض من تحته.

قبل أن أقرب، قبل أن أمد يدي بسلام وأنحني في وقار لأمير التجار، سألت داغر عن مزاج الباشا «لا يبدو من أهل الغلمان!»، أشار إلى صورة زوجته: «تلك هي زوجته الثانية، بعد زوجة أولى تُوفيت ولم تنكشف على رجل، يقال إنها كانت شديدة الجمال، وكان يغار عليها حتى من الخدم، الزيجتان لم تُسفرا عن أبناء، لعقم مزمن أصابه، وله من الجوّاري شركسيات وسودانيات ويونانيات، يتخذهن محظيات رغم عمرٍ تحطى العمر»، وحين سألته أين كانت زوجته الثانية وقت القتل، أخبرني بأننا سنقابلها حين أنتهي من الفحص.

نصبت حامل الكاميرا، وزنته، وشرعت في التقاط صور للصالون، وللجنة من جميع الجهات، لمحاولاً أن أتجاهل وأتغاضى عن صوت النهش الرتيب الذي أشعل غضبي، وارتب الباب وصرخت في القواصة كي يكفوا عن الأكل بصخب، فرمقوني باشمئزاز، وبصق أحدهم على السجادة فأغلقت الباب. كم أنا محبوب بينهم، لكنهم لا يُراعون أن أعراض الامتناع عن عشبة يوحنا تجعل الأصوات في أذني عالية مدوّية، أسمع جِماع النمل، تأوهات وغنجه، أتنبأ بالفيضان والزلازل قبل حدوثها بأيام، والتقط صفيّر ساكن القمر حين يمر من أسفل اللوكاندة ليلاً. النهش لم يتوقف! وبعض الجراد الليبي لم يغادر رأسي بعد ليلحق بالسرب. توقفت عن الفحص، وأمرت داغر بك الالتزام بالصمت وأصغيت، حتى أدركت أن الصوت لا يأتي من القواصة، بل يخرج من جثمان شاهيندر التجار! اقتربت، فحصت وجه الباشا حتى مرّت بالعين اليمنى رعدة، ارتجف الجفن! الرجل حي؟ يُكافح من أجل البقاء؟ تمالكت نفسي وصرخت في داغر كي يأمر بعربة إسعاف نقل الرجل للمستشفى، ومددت أصابعي لألمس جفنه حين تشجعت ذراعُه فجأة، ثم ارتخت، تراجعت خطوة لمحاولاً السيطرة على أعصابي، لحظة، قبل أن يُشق جفن الباشا، من الداخل، سكين أسود حاد، سكين مشعر في نهايته خطاف صغير، هالني المشهد رغم اعتيادي جثامين الموتى، وتراجع داغر خطوة حتى تعثر وكاد يقع، قرن خنفساء كركدن سوداء مزقت أعلى الجفن، أزاحت مقلة العين بأرجلها، قبل أن تخرج لتزحف على رقبته ثم صدره، التقطت الخنفساء بمعدّل ووضعتها في البرطمان، متلبسة بجريمتها، ثم قصصت الحبل الذي يثبت القدر فوق الرأس، وخلعت المسامير التي تثبت الذراع بكباشة، ورفعت الفوهة بحرص، فإذا بالدماغ مثقوب، كسطح كوكب تلقى سيلاً من النيازك. اثنا عشرة خنفساء حفارة في طور النضوج، تُركت لترعى وتمرح فوق فروة رأس الباشا - بعد حلقتها بموسى ترك أثره على الجلد وشعرًا على

الأكثاف - ثم كُبت القدر فوفه لتضيّق عليها سبل الحرب، وأحكمت عقدها أسفل الذقن، لتبدأ الخنافس الصغيرة «الجائعة دائماً» في البحث عن طعام، وتشرع بلا تردد في ممارسة حرفتها الأثيرة: الحفر، صنع الأنفاق، في جمجمة ثم مخ رخولين.

تأملت ملامح الألم بين الأسنان، تشنج اليدين وانقباض أصابع القدمين، ثم تلوت ورد الرحمة والسكينة، قبل أن أهرس في الأذن الدامية من بعد امتئذان: «سيدي الباشا، لديّ خبران سيئان، لقد تلطّخت السجادة الفارسية أسفل الكرسي بدمائك، وأجد أن تنظيفها سيكون أمراً عسيراً، أنصحك بالملح والأمونيا مع الماء البارد، والدعك في اتجاه واحد. أما الخبر الثاني، فقد قُلت ببطء شديد؛ بل بأشنع طرق القتل، لا أستطيع وصف الملك أو تخيله، صوت ثقب جمجمتك بقرون الخنفساء الصلبة هو الجحيم ذاته، لعلك بكيت وتوسلت لساعات، وبالطبع صرخت حتى أزعجت قاتلك فأغلق فمك بقماشة كانت لباسك المستعمل، تمزيق اللحم لم يكن أسوأ مرحلة، حفر عظام الجمجمة استوجب نشرًا بطيئًا مؤلماً، ثم ولوجًا للمخ طري التكوين، مع كل قضة للخنفساء - التي لا يردع فكّها رادع - يتنفّض عضو في جسدك قبل أن يصيبه العطب، شلل تدريجي، خمس حواس تُفقد تبعاً، تصل الخنافس إلى أعصاب أذنك، فتجرب أن تصرخ دون أن تسمع صرخاتك، فقط تشعر بذبذبات المضغ ووقع الخطوات المشعرة الصغيرة حول رأسك طلوعاً ونزولاً، ثم ينقطع المدد عن شرايين عينيك، فينسدل الليل بغتة، وتكتسب الحكمة النهائية من الحياة، ثم ينجلي سمعك عن صوت واحد فقط، هميس ساكن القمر الهجين.

افتح فمك من فضلك، قل آلا، أسنانك وضروسك في مكانها، لا اعتقد أن شئ معدتك سيكون مفيداً، فالخنافس كانت كافية للحفر والتنقيب حتى مركز الروح في الرأس، دعني أفحص كفك وما تقبض عليه، دعني أقص الخيوط التي جيكت بين الأصابع لتغلقها، عملة ذهبية فئة العشرة قروش، بتاريخ سك «١٢٢٣هـ»، لا عجب، ذلك توقيع القاتل، استرخ، سأكتب لك دهاناً للتسلخات تجلبه من دكان العطار، ومسا أزرق للتهاب اللثة.

حين انتهيت، أفصحت لداغر أن القاتل هو نفسه من اغتال المحروق عزت باشا الدفتردار؛ فقد وضع توقيعه؛ عملة ذهبية يتركها لضحاياه، قبل انتزاع أرواحهم بتلذذ واستمتاع، مؤثراً المبالغة في تعذيبهم، بغضب ثلم، يمزق قبل أن يقطع، أما السرقة فليست من شيمه، فقد ترك خاتماً ذهبياً في قبضة الباشا وهو يخطط الأصابع، بالإضافة لتُحف مرصوفة في الغرفة، نحن أمام وحش برّي لا يخفق قلبه أمام صرخات أو تضرعات، وحش يفضل التنوع في وسائل القتل حتى لا يُصاب بالملل.

أين الزوجة؟

في نهاية الطرفة دلفنا من باب مُذهب، توارت جارية خلف ستائر القطيفة، وأزاحت أخرى الناموسية من فوق سرير منحوت بملائكة أولي أجنحة تنفخ أبواقاً من قرون الثيران. «ميسك» هانم، سيدة السراية، كانت راقدة على جنبها متكومة، حرمة في نهاية العقد الخامس، مصبوغة بالشحوب، تنفّس حشرجة، في ملامحها أطلال جمال حزين، جلست بجانبها، متأملاً ضمادة دامية تحيط كنفها، وأنامل باردة ترتعش، نادتها جارتها ففتحت عينها بصعوبة: «ميسك هانم، البقاء لله». التفت وتأملتني للحظة، قبل أن تصرخ بفرع: «ذلك هو المجرم، ذلك هو القاتل»، اجتاحني الحرج، وتبللت عرقاً، تحفز الهواء من حولي، ورفستني برجليها، غزال عجوز يُقاوم ذنباً، حتى نرف جرح كنفها فأشار داغر بك إليّ فخرجت وراءه إلى الطرفة.

«ماذا فعل ذلك المعتوه؟»..

الأرناؤوطي «بوراك» كان في انتظارنا يتنصت. حدجني بنظرة كريمة ثم اقترب من داغر بهمس، تفاضيت وابتعدت مُشعلًا سيجارة، ثم لاحظت دماء الحرمة على السجادة، وشمعدانًا ملقى في زاوية، تحت حائط فيه حفرة غائرة، سألت أحد القواصة فأخبرني أن ذلك من أثر مقاومة القاتل، قذفته الحرمة عليه ولم يُصبه، شرعت في فحصه حين علا صوت بوراك، أراد أن يُسمعني رايه: «سيضلك بتساويره المسكونة ومؤامراته الخرافية، وإن علم أفندينا بتاريخه وأفاعيله فسيرسله إلى فازوغلي أو يشنقه». الحفير، سارق الكحل من الأعين يتهمني بالجنون، لظالما أراد التخلص مني لشعوره بالغيرة والمنافسة، ولا أشك أن وراءه بشاف الشر كسي، يوسوس إليه بدمس السم في طعامي بأمر السلطان عبد العزيز، اللعين الذي سيأكله الحقد حتى يتدحرج من فوق عرشه بالأستانة بعون الله.

حين خرجنا من السراية سألتني داغر بك من خلف المونوكل الذهبي: «لماذا قالت حرمة وسك ما قالت؟»، أجبت: «إن في الحزن صدمة وتخريف وفزعًا، وما أسهل اللبس والخلط والتوهم، وقد تكون هيئة القاتل تشبهني، بعد أيام، حين تستفيق، ستزول الغشاوة عن عينيها، وقد يكمن مفتاح اللغز بين يديها». لم يبدُ مقتنعًا، ولم أبد مهتمًا، فلو علم من هو سليمان جابر السيوفي، واتصالي النوراني بالملا الأعلى، فسيخشع ويركع مثل المعيز الداجنة. استدعيت الجوّاري لأستجوبين عن الليلة السابقة وأبين فضيئها، فأشرن إلى غرفهن، يزورها الباشا للاسترخاء وللخلوة حين يرغب، فمسك هانم طيبة، تعطف عليهن، بشرط ألا يعلو صوت إحداهن ساعة الوطء، أما الباشا، ففي ليلة مقتله أغلق أبوابهن بالمفتاح، كما صرف العبيد في سابقة لم تحدث منذ زمن.

قبل أن أرحل نصحت مبتور الورك بإخلاء السراية فورًا؛ خشية عودة القاتل للسرقة. زفر نفسًا من غليونه، فكّر قليلًا، ثم شدّد على تفرّغي الكامل للبحث عن القاتل: «أريد دليلًا... أريد اسمًا»، فرددت في سري: «أتمنى أن يحدث ذلك قبل جريمته الثالثة، فهناك وحش لثنا انفتحت شهيته».



بعد زيارتي لسراية عصمت باشا عدت إلى غرفتي ببرطمان الخنافس، ألواح فوتوغراف ترسم الجريمة البشعة، وعملة كانت بقبضة باشا محفور الرأس، وضعتها بجانب العملة السابقة في طبق لم يعد لدي شك أنه سيزدحم بالعملات. غليت القهوة مع الحبهان وجوزة الطيب والمصطكي، ثم خلطت الحشيشة بالمعسل على النارجيلة ونفثت دخاني إلى الداخل، بين منحنيات محي وأسفل المعخير، وسرعان ما راق المزاج وانجلى ضباب الكآبة أمام عيني، وغادرت الأفاعي السوداء أوردتي - عني وعد بالرجعة - فانفتحت شهيتي، افتطفت الفول الحراقي والطباطم والريحان من أحواض السطح، صنعت سلاطة، ووضعت قمروطاً نيلياً سميناً على النار بعد تنظيفه وحشوه بالبهارات، ثم جلست أنأمل الخنافس التي أكلت للتو مخ باشا، ناضجة كبيرة، لا يتوفر مثل ذلك الحجم في المقابر، لقد تمت تربيتها في حوض خصوصي كي تصل لذلك النضج، كما تم تجويعها لزمن، فشيتها ونشها أسرع مما ينبغي، وضعتها في برطمان فيه فتحات، ووضعت لها أوراق اللبلاب عليها تتوب عن فعلتها، وساطعها لفظ السلم بعد أن تعترف، فمن قُتل يُقتل ولو بعد حين. فحصدت بعد ذلك العملة تحت العدسة المكبرة، بدت براقاً حديثة رغم تاريخ سكها العتيق، غير مستعملة، لم توضع في كيس أو تُداول من يد ليد، أي قاتل يترك عملات ذهبية مع ضحيته؟ هل يسدد ثمن القتل؟! دونت ملحوظاتي ثم خلعت ألواح الكولوديون من ظهر الكاميرا، أغلقت الستائر لتسود الظلمة، وغمستها في محلول مُظهر حتى انجلى التصاوير، ثم ثبتت الظلال بسيانيد البوتاسيوم، بدا شاهيندر التجار مُحيمًا برأس مُغطى بالقدرة، ومفرغاً برأس مثقوب بعد إزالة القدرة، أمعنت التفكير، مُحاولاً العثور على نمط للقتل والقاتل، ثم دَوَّنت في مفكرتي أن الضحيتين من الأعيان. ثريان، وعلى صلة بأفندينا بطريقة ما، الاثنان تخطيا السبعين، الاثنان صرفا الخدم قبل مقتلهما بقليل، هذا يعني أن هناك رسالة وصلتهما رسالة استدعت إخلاء السرايات من أجل زيارة مُرتقبة، ربما إغراء بميعاد حميمي مع جارية أو غلام؟ خديعة مُحكمة هيات الأجواء للمذبحة؟ فالقتيل الأول كان مديراً لخزانة أفندينا، والثاني رئيس التجار، الأموال تُعلن عن نفسها يا سادة، ترفع راية ملطخة بالدماء، هل هي مؤامرة داخلية؟ الضحيتان قُتلا لمعرفة بأسرار خاصة؟ ربما، فرغم ثورة البناء الألفرانكا التي تحتاج وجه القاهرة، مبانٍ وقصور فخمة، وشوارع مُبلطة، وأعمدة إضاءة ليلية، تُضخ فيها الأموال للمقاولين الفرنساوية تحت شعار «مثل باريز» ليتباهى أفندينا ويتفاخر باستقبال الملوك والسلاطين، إلا أن قرى الريف شحاً وجنوباً تحكي قصصاً أخرى، بل أهوالاً، فترعة السويس التي دشن أفندينا السابق حفرها منذ ست سنوات، تشبه فيلاً إفريقيًا جائعاً، تلتهم ألوف الفلاحين في سخرة سرمدية لا نهاية لها، فمنذ أيام على سبيل المثال، ومن مديرية قنا فقط، تم نزع وإجبار خمسة وعشرين ألف فلاح عني على هجر أراضيهم، تركوا المحاصيل فريسة للطيور والفئران والبدو الرحل، سيموت ثلثهم من البرد والشقاء، وستهلك الكوليرا البقية المتبقية، أما من أراد إعفاء ابن أو أخ من الحفر بالأيدي، فسيضطر إلى دفع ما يزيد عن ألف قرش، هذا بالإضافة لمصادرة الجمال التي تخطت أثمانها - بسبب موت الأبقار من الطاعون - أكثر من ثمانية عشر جنيهاً، مما حدا بالخلق في جميع الأنحاء - وأولهم أنا - أن يمزقوا تذاكر الهوية الشخصية حتى لا يستدل القواصة والعسس على نعمة بيت أو صلة قرابة ترجح أهليته للخطف. وتطور الأمر في بعض الحوادث إلى بتر الفلاح إصبعاً من أصابعه أو فقء عين؛ حتى يُستثنى من السخرة ليراعي أرضه. وإن أصابه الخط وأفلت، فسيكون عليه كي يتجنب الجلد أن يسدد الضرائب الباهظة التي فرضت على كل

مناحي الحياة: على الديار، على الحمار، وحتى على بائعات الهوى إذا تلبسن ببيعه، بتسلط من جُباة كفار لا يخافون الله، فنهَمُ أفندينا للأموال لا يتوقف، لم يسمع بالمثل القائل: «جبال الكحل تفنيها المراد، وكثر المال تفنيه السنين»، ناهيك عن تأثر سوق العبيد بالاضطرابات، فقد وصل ثمن العبد إلى عشرين جنيهاً، ووصل ثمن الجارية إلى أربعة عشر جنيهاً، مهزلة! وما يزيد الطين بلة، التحيز الكامل لبقاء جالبي العبيد السود، والتضييق السافر على تجار الجوارى البيض، نُصرة للأوروبيين وتشبهًا بهم، فأفندينا يتشدق على المنابر في باريز بأنه يكافح تجارة الرقيق، ولا يخفى على نحلة في جُحرها، أن أكبر جلاب للعبيد والجوارى في المحروسة، هو أفندينا ذات نفسه، فقصور الحرم لك تحوي أكثر من ثلاثة آلاف جارية من جواهر نساء الأرض، لا يسافر إلا بزمرة مُنتقاة منهم، كلما رسا يَحْتَمُ الفخم على الشواطئ الأوروبية نثر الذهب تحت أرجلهم كهارون الرشيد، بل ووصل به الأمر أن هادى بهن الد أعدائي؛ السلطان الأجوف الحقود «عبد العزيز الأول» الذي استضافه منذ عامين في زيارة أسطورية لا تقل بهاء عن ملاحم ألف ليلة وليلة، ليصبح أول سلطان للعثمانيين يدخل القاهرة زائرًا، من بعد كبيرهم الدموي ذي الأنف المعقوف «سليم الأول»، الخبيث الذي اقتحم مصر غازيًا منذ ثلاثمائة وثاني وأربعين سنة.

أو هي مؤامرة أوروبوية، نواة لتوغّل فرنساوي أو إنكليزي، وربما ألماني أو نمساوي، هدفها قتل الرؤوس المتحركة في حنفيات الذهب، يريدون ليكبّلوا يد أفندينا، مستغلين السخط الذي يعم الأرياف والأقاليم، لينخروا أرجل عرشه فيسقط، وتسود الفوضى!

أفرغت خواطري في المفكرة حتى تشابكت الكلمات، وأضفت في النهاية حتمية إعادة زيارة السراية - وهو سبب طلبي من ميثور الورك إخلاءها - لعلي أجد رسالة القائل التي مهّدت لقدمه، ولكن ذلك بعد لقائي بعزيزة بنت راتب الشبكشي.

خلعت ملابسي ووقفت أمام المرأة، والله الحمد أن المرأة لا ذاكرة لها، تأملت أرطالاً إضافية تبخرت من لحمي مقارنة بآخر لقاء جمعتني بعزيزة، الأفاعي في أوردتي تعبت نساذاً، تسكر وتمرح، تمتص الدهون وتنهش العظام، تمصفتني باستمناع، أخاف إذا دقت النظر أن أرصد جسدي وهو يتضاءل، يتآكل، مأسف الأثاث من خلفي يوماً، سأصير مثل الزجاج المنسحق، حتى أتلاشي.

حتى أتمياً للمضاجعة، كان عني اتباع الطقوس، أن أستحم وأغسل عانتي وأتطيب، وأن أنفض الحزن، وأنسى مرارة نهايتي التي تقترب حينئذ، فعزيزة هي ساعة الحظ الوحيدة في حياتي البائسة، عوّضتني عن فراق نبوية زوجة إسماعين كيشك، وحُورية «أم موسن»، ونرجس الحبشية، وسميرة المجنونة ذات الشامة، وتريزا أرملة إسكندر إسحاق، ونظلة السمينة، ونعيمة الشركسية التي غرقت في النيل وهي تستحم. فعزيزة نفخت عطرها في فمي، غرست في صدري أوراق تبغ لا تُزرع إلا في أراضيتها الملساء، وأطعمتني لحماً أبيض لا يحتاج ناراً حتى ينضج، ما إن أذكرها في أحلام البقطة، حتى تغني الدماء في عروقي، تُبقي وتجرف وتحرق وتسلخ جلد الأفاعي السوداء في فيضان ساخن مطهر، لتطفو جيئاً وتخرج من تحت أظفاري، وكما يقول المثل: «اعشق غزال.. يا تُفضها».

استقبالاً للعزيزة، أشعلت البخور، مسحت بزيت اللبلاب أطرافتي، وبزيت جوز الهند لجنتي وشاربي، أشبعت مسامي بالعطر، وتجرعت كوباً من العرقى المخفف بالماء، عمّرت أحجار النارجيلة، واستلقيت أضرب على أوتار العود، عمتاً جوزة الطيب تحت لساني، حتى التقطت أذناي خطوات الكعب الأحمر،

فتحت لها الباب فتسللت، قطعة مكتنزة رفعت بُرقعها وانغمست في حضني، ثم دفعتني إلى الكنبه وبركت فوقني، تشاجرت أمتعنا كشباك الصيادين، بعثرنا الأثاث وأحرقنا المخدات، وقاض النهر، ثلاث مرات، ثلاثة زلازل أصابت أريكة السلطان العثماني، وانتهينا، استلقينا على الأرض، قتيلين بعد معركة مع جيوش التتر، زمنا لن نعرفه، حتى ثاءب نهذاها وتطى، فنفخنا في السقف الدخان والأخبار والأحلام، وجلسنا حول الطبلية، أطعمتني من صنعة يديها ملوخية وكشككا ثم فطيرة بالعسل، وكالقط لعقت ركبتيها ثم أغلقت الخلل الذي ابتعته على ساق ملساء كريش النعام، ثم رقصت عزيزة من أجلي على أنغام العود، قبل أن أطأها مرة أخيرة، مسك الختام، جلجل صهيلها كقطار غشيم بلا مكابح، رعد بلا برق، حتى كدت أحمق أنفاسها بطرف السجادة وأكسر لها ضلعا، غطت بعدها على صدري في نوم عميق، بنفض ساخن ونهيج يُشبه في رائحته الأفيون الخام، غيبوبة تعلوها ابتسامة رضا لا تفارق الشفاء، ثم أفافت، وقد صارت أنثى أخرى، طلبت مني أن ألتقط لها صورة وهي عارية، عادة كل لقاء، كم تعثر بنهديا الثرين، وكم تتفاخر بالخلجات الحمقاء الطائشة، ولها كل الحق. رفعت للسقف ذراعًا، ووضعت بين شفتيها وردة حمراء، بدت في العدسة مُدملكة القوام، قلة قناوية خرطها فخار كافر وشرذ للحظات وقت نحت الخصر، لم أملك نفسي حين قررت الرحيل أن أسألها - رغم قسبي ألا أفعل في كل زيارة - عن آخر مرة وطأها أنور أفندي، ابتسمت ودون تردد أخبرتني أن ذلك كان بالأمس، وطأة لا هم فيها إلا رغبته المحمومة في وليد يحمل اسمه ويُرضي أمه، قالتها ثم زاغ بصرها، شردت للحظات، ثم أفافت فضحكت بصخب، وحكت عن جاريتها الحفودة أم مدبولي، والتي سألتها بخبث وحسد عن صريحها وقت مشادة مع أنور أفندي، فقالت لها إن ذلك صوت مُتعة إتيانه لها ليل نهار، ثم قلدت بروز عيني الولية حقًا، قبل أن تحتضني وتقرص أبري ثم ترحل.

أشعر براحة في وجود عزيزة، تكفلني مثل أم، تعاشرني مثل عاهرة غير مُحترفة، دون كدر، تصنع وجهي حين يحتاج، تحرش صدري كقطعة طريق أصيلة، وتترك أسناتها وأحمر الشفاء على رقبتي. لا أكاد أنسى أول لقاء بيننا، تقابلنا في مارستان قلاوون منذ سنوات قبل إغلاقه وتهجير المجاذيب لورش الجوخ ببولاقي حيث لم يعد المارستان صالحًا لإقامة البشر، كانت الممرضة التي تولت أمري بوصاية من الحكيمباشي ساسون، بعدما أحاطتني الكآبة ولم أعد أطبق الاختباء من المهجين وضافت بي السبل، أذكر صفعتها الأولى على وجهي، جاءت دون إنذار، خلعت بعدها ملابسني ووضعني في مغطس ساخن ثم بارد، حتى تفككت أوصالي، قبل أن تعزلني في غرفة مكسوة بجلد المعيز، لا يدخلها صوت أو نور قمر، تناولت الأعشاب التي ناولتني، فبمت بعمق، ثم استيقظت فوجدت الكآبة وقد تطايرت إلى سقف الغرفة، فكُت عزيزة سلاسي، وطلبت عنواني بحجة التقاط صورة فوتوغراف.

في اليوم المحدد طرقت بابي، دلفت، تأملت غرفتي بفضول، ثم صفعتني على وجهي، ولم أفكر في مقاومتها، ظننت في البداية أن ذلك تكملة للعلاج، حتى ففرت على صدري وأحاطتني بساقيها، واشتعلت كالكبريت في قلب برميل نطف، تضاجعا لساعات، بلا كلمات، فقط نهيج أنفاسنا الهمجي، خربشة بربرية، وآهات غنج خرمت طبلتي أذني وأصابت عنز بالطرش، قبل أن تضطجع على وسادة وينعس صدرها، سحبت الأنفاس من النارجيلة وسردت قصتها بسيقان منفرجة.

عزيزة ولدت في الإسكندرية، تربت تحت أب قاسٍ اعتاد صفعها كلما تكلمت، كلما شردت، وكلما

تنفست، حتى تسلمت إليها الأنوثة مبكرًا وانتفضت المفانن، فالتفت إليها، بدأ في لمسها، مُداهمة الكنيف وقت استحمامها، ثم وطأها بعد مقاومة لا تُذكر عقب وفاة أمها، لم تجرؤ المسكينة في سن الثانية عشرة على الشكوى أو الرفض، فقط أنجبت منه أخًا يشبهها، أرضعته عامًا، بندي ابنة أربع عشرة، ثم آتت به القاهرة تحمله، على ظهر بغل، وضعت في سبت مع ورقة مدون فيها اسمًا غير اسمه، وتركته على باب مسجد، لتبدأ في البحث عن الرزق. عملت عزيزة في بنسيون «الانسجام» بشارع كلوت بيه كعاملة نظافة، بالإضافة لتقديم بعض الخدمات «الخصوصية» للزبائن، وهناك التقت بأنور أفندي أبو شمعة، غلباوي بالمحكمة التجارية، يكبرها بعشرين عامًا، كان النزبل الوحيد من بين النزلاء الذي لم يطلب الخلوة بها، اطمانت له فباحث بالأسرار السكندرية، سمعها باستفاضة واستغفر عن مسيئته، ثم قرر مساعدتها ليكسب ثواب توبتها عن خدمات بنسيون الانسجام، عاجلها من السيالان الذي أصابها، طلب منها تغيير اسمها من تقيدة - اسمها الأصلي - إلى عزيزة، ثم تزوجها، وأوجد لها عملًا بهارستان قلاوون حيث تعلمت التمريض ورعاية المجاذيب.

لطالما قالت عزيزة إن أنور أفندي هو الأمان والسكينة، الأب الذي لم تحظ به في حياتها، الزوج الوفي المِعطاء الكريم العظيم الشهم اللبيب. ولكن «الحلو ما يكملش»، عادة غربية تسلمت إلى أنور أفندي لتفسد حياة مثالية، أصبح حين يدعوها للفراش، ومن بعد وطء مُتَعَجِّل، يطلب منها ردَّ الجميل! مُبادلة الوطء بوطء، بذير ظهره، لذلك عزيزة عجيزته، يستمتع ويئن مثل قطة في موسم التزاوج، ثم ينام بعمق وقد تهدل شاربه على جوانب فمه. تقبلت، على مضض، واستمرت تلك العادة في النمو والتملك، حتى طنت، نفر أنور أفندي من جسد عزيزة اللين البض، وزاغت عيناه وراء عبيد الحبشة السود، يترصدهم في الطرقات وفي الأسواق، حتى ادخر من مُرتبه سبعة عشر جنيهًا، واشترى عبدًا أبنوسي البشرة من جلاب شامي، يعمل في خدمة أنور أفندي نهارًا، وفي الليل، يختل به ساعة، غير عابئ بنظرات عزيزة، حتى وصل الأمر يومًا أن شَبَّهت عبده المُبتل عرقًا - بعد خلوة مع زوجها - بكلب البحر، وما كان من أنور أفندي إلا أن نهرها وقطع عنها المصروف يومين فتأملت عزيزة ورفضت، لينظر في وجهها في الصباح التالي؛ وبعد أن يفرش الامتناع ملامحه، يزن في طلب وريث من رحمها، لا أثق «أنها» أهلًا لتربيته.

من العبث أن يترهل جسد عزيزة وتفسد منحنياته السكندرية بحمل وإرضاع من أجل طفل سيُريه أنور أفندي قبل أن يستهدفه الهجين في النهاية.

تقول عزيزة إني الشغف، وإني العشق، وإن عزفي للعود عذب، وإن أيري المُحبب، تُحَرِّط من أجلها، كما تقول إن العشق المغروس فينا، رغم حرمانيته، مفيد للأرق الذي أعاني منه، ومفيد لمزاجها المضطرب من سيرة رجال حولها، لم يكملوا المسيرة رجالًا كما بدءوها، فعشنا خير من الحشيشة والأفيون، خير من الوحدة والجنون، عشقنا مثل لبن النوق، خفيف على المعدة ويشفي من أمراض القولون. لقد تزوجت عزيزة بأنور أفندي - دون وعي - لأنه يشبه أباه، متمسكة به لأن الحياة قاسية على حُرمة وحيدة خذها أبوها، ولأنه لم يضرها، مثل أبيها، كما أنها تتشي بصنع الرجال انتقامًا من كل ذكر، والقصد، أبوها.

المسكينة مريضة، مليئة بالضلالات، فريسة للأوهام، ومن صخرية القدر أنها لم ولن تدرك ذلك حتى نهاية العمر.

علامات الحب تشبه علامات الساعة، نسمع عنها ولكن لا نراها، ما هو الحب؟ هل هو الاشتياق؟ كما

يشتاق النبات للشمس والهواء؟ كما يشتاق المهجين لغزو الأجساد؟ أم أنه اسم مُهذب للرجبة؟ فعزيزة، ناعمة الجلد، بضّة بيضاء كجوارى الشرّكس، قوامها، لبوة في رشاقته، تمثل المرحلة الانتقالية ما بين القشطة والرّخام، متطرفة الرّموش، كستنائية الحصلات، لا تكف عن مغازلتي والغنج، ولا تمل من الاستماع إلى حكاياتي بشغف طفل ساذج، تصدقني دون تشكيك، ولا تجادلني، سريعة البديهة، تصدح في ذروة الجماع كوابور خرج عن السيطرة، فتُشعّرن بالسيطرة، عنّ الجبال والحيوانات والسحاب، تُشعّرن بالألوهية وهي تنفث النار جيلة، وتختتم كل حكاياتها بضحكة مُجلجلة تخيف البوم عن الشجر.

ملحوظة: لقد قلت تلك الكلمات يومًا عن نبوية زوجة إسماعيل كُشك، وحورية «أم سوسن»، ونرجس الحبشية، وسميرة المجنونة ذات الشامة، وتريزا أرملة إسماعيل إسحاق، ونظلة السمينة، ونعيمة الشرّكسية التي عُرفت في النيل وهي تستحم.

اللعنة على قناعاتي الزائفة، على شهوتي العمياء، لا يشفع لي إلا يقيني أن عزيزة، هي آخر حرمة في حياتي، الأنثى الأخيرة لذكر السليمان، ستقتلني يومًا بصفعة، أو تخنقني بين نهديا الأسرين، نهاية مخملية لبنة، أفضل من انتحاري المؤجل، هل أحببت عزيزة؟ لا أعلم، فمن بعد كل تلك النسوة، يت عاجزًا عن عشق نملة، فالحب بلاء، شمعة تُبْرِ لك الطريق، لكنها تسيح عن قلبك حتى تحرقه، فلا يبقى فيها إلا أني، أشتيتها، وأنها تداهم أحلام يقظتي وتصبغ غرفتي وصدري بالبهجة والسخونة، وإن كان عنتر يعترض عن زيارتها، وذكر اسمها مرة أثناء وحيه، لكنه أكد أن وجودها هام حاليًا، من أجل مسيرتي، وقد تأكدت أن هجين القمر لم يضاجعها بعد شربها اللبالب المغلي أمامي وعدم إصابتها بالتسمم أو الصفراء.



في تلك الليلة العجيبة وبعد رحيل عزيزة استأجرت حمامًا توجّهت به تحت شمسيّتي إلى سراية عصمت باشا، بحثًا عن رسالة القاتل، لم يكن من الصعب افتتاح باب الخدم، صعدت السلالم ثم دلفت إلى غرفة المعيشة، رائحة الدم ما زالت تثقل الهواء وتتخلل أخشاب الأرض، الجثة محفورة الرأس رُفعت من فوق الكرسي لتكفّن وتُدفن في صمت، وكل ثمين خفيف بالغرفة اختفى في جيوب القواصة الواسعة.

عنى ضوء قداحتي تأملت الرفوف، عصمت باشا كان قارئًا غيّا، كثير الأسفار، تحمل مكتبته خرائط وكتبًا لا تقدر بشمن، أهل سرفتها القواصة الأغنياء، هم كالجراد ينهشون ويخربون، لكن لا يقرءون؛ لذا يغفلون الدلائل، وتتوه خطوات القاتل في أغلب الجرائم بين أحذيتهم، ولا يلحظون عنصرًا أراد أن يتخفى ويندمج، عنصرًا أراد أن يذوب بين الأثاث والمتعلقات، أراد أن يصبح من أهل البيت، لكنه فشل. رأس خشبي أسود، بحجم كف اليد، لأسد، عيناه غاضبتان متحفزتان، فاغر فاه عن أنياب حادة. لفت نظري؛ لأنني قابلت نسخة منه، مُتفحمة، بين حطام سراية عزت باشا المحروق. التفتيته فنهضته، مُتقن الصنع دقيق التفاصيل، قاعدته مربعة محفور أسفل منها كلمة «المشاعني»، لا أذكر أن هناك نحاتًا أو فابريكة تحمل ذلك الاسم، دمسته في حقيبتي وفحصت المكتبة، انتشلت منها بعض الكتب النادرة، فلست أنزه من القواصة حين يتعلق الأمر بمكتبة رجل لم يعد عني قيد الحياة. ثم تأملت على الحائط لوحة تحمل شجرة نسب الباشا قنيل الخنافس، جده الأكبر كان من رجال المجمع العلمي الذي أنشأه نابليون بونابرت، وأبوه كان من نخبة محمد علي باشا. لم أتمكن من قراءة شجرة النسب المهيب بسبب الظل الذي غشيني وارتسم على الحائط أمامي، ظل جسم بشري، ظل ظلّ ثابتًا كالخجر، حتى طفق رقبته بصوت مسموع فانتفضت أوصالي، خلف النافذة، وعلى ضوء قداحتي الهزبل، لمحت شيئًا لم أشك للحظة أنه الزاحف الأعظم، هجين القمر بذات نفسه، ما كنت لأخطئ رائحته من مسافة ألف ذراع، أسمع صوت أنفاسه الثقيلة، وأرصد لمعة عينيه المضيئين كأعين السنوريات، يتأملني في صمت، تبيست في مكاني، كتائبيل المساحيط الحجرية المدفونة منذ قرون، لا تحركني إلا وقع نبض في أوردتي، يهز من الرعب والوجل أزرار الصديري الذي ارتديه، زمن أدركت فيه أن التبول اللاإرادي؛ حقًا لاإرادي، وقبل أن أبل السجادة تحتي، كسر النافذة وانقض، ركضت كما لم أركض من قبل، كما يهرب حمار بلدي هزبل من أسد، كما يهرب المرء من ملك الموت، بلا جدوى، خطواته لها وقع التماسيح وسرعة البرص على الخشب، زحف على الحائط، السقف، أسقط نجفة قبل أن يجثم فوق ظهري في نهاية الرواق المؤدي لباب الخروج. ثقله، صهريج ممتلئ بالرمال، قاومت، مددت يدي لسكيني الصغيرة، سلتها من حزامي وغرستها في رسغه بعزم ما أوتيت، وأدبتها، كما أدت السكين في محجر أمي يومًا، لم يابه، وربما شعر بالإطراء، تسلّفتني فضغط على صدري برُكبته حتى طقطقت ضلع، ثم انكسرت. صرخت في ألم فدمت يده حتى المرفق في فمي، وأحصيت عروق رسغه بلساني، ثم انحنى وهمس في أذني: «في هذا الصراع، سيفوز شخص واحد، وهو حتمًا ليس أنت»، قبل أن يعتصر جانبي رقبتي بأصابع مُصارع، فأدركت ما يتنوي، الهجين بخبرته الأزلية يضغط على شريان الأورطي، يقطع طريق الدماء عن رأسي، يريد أن يُحمد ثوري بين عظام الترقوتين، لحظات وبدأت أفتح بوجهة نظره، فكرة تفيد أن المقاومة والثورة لا مغزى لها، وقت ضائع، ثم كَسَت الزرقة جدران البيت والسقف، ووجه هجين لم أستطع تحديد

ملاحه بسبب الوشاح الذي يخفيه، فقط لمحت آثار حرق جعّدت جلد الجبهة، ثم أصابني الخدر، ولج عقلي كهف مُظلم مليء بالطوايط، انزعجت فهاجت فطارت فوطوطت وتخبّطت ثم تهاوت على الأرض، دفعة واحدة، أسماك نيلية نفقت وطفقت، وحتى الأفاعي تحت جلدي كُفّت ذيلها عن الحركة وبدأت في صلاة جنازية من أجلي، تعاطفًا، وكان آخر ما شعرت به، نصل بارد غاص في جلد رقبتي، يتجه للأورطي، اللعين لم يذكر اسم الله عني قبل الذبح، ولا سقاني مياهاً باردة، لست رسولاً إذن، لن تنزل عني رسالة، وقصتي لن تُحكى عن المفاهي بصحبة أنعام الرابة وفرع البوظة، النصل يشق اللحم، بسلاسة، لن أعود في آخر الزمان لأقتل المسيح الدجال، النصل يلامس الأورطي، لن أصعد إلى السماء السابعة لأقابل إبراهيم عليه السلام، ويبدو أن المهجين حين قرأ ما دار بخلفي من ذكر النبي إبراهيم أثناء سكرات الموت عدل عن رأيه! ظننت وقتها أن كبش الفداء قد نزل من السماء ليعفيني مثلما أعفى الذبيح يومًا، لكنه سجد على أذني، ودون أن يرفع مكينه من لحم رقبتي فمس بلكنة جنوبية تردد صداها في كهفي المظلم:

«سأحييك اليوم، لتصبح الشاهد عن الأحداث، وسأقتلك بعد نهاية القائمة».

لن أعلم كم من السنين مرّت، ولا أدري كم من الأنبياء بُعثوا من بعدي، قبل أن يسحبني السعال إلى حياة جديدة وعالم عجيب، التفاصيل فيه مزدوجة، من كل قطعة أثاث اثنان متجاورتان، هواء له رائحة الدم، عين نبت فيها شجر الفلفل الهندي الأحمر، وأخرى مُغلقة بورم في حجم فيل ناضج ابتلع خرطومه، طعم مالح يغمر الأنف والغم، ألم غير مُحتمل في صدري، وضلع مكسورة تتحرك مع كل نفس، تحتك برئة أو كبد، أو بالسجادة من تحتي، وأفاع سوداء تسلت من فمي وزحفت في شقوق الأرض. أما هجين القمر، فربما ذهب، وربما هو الآن بداخلي ينظر من عينيّ ويستعد للتحرك بأطرافي، كقنار من اللحم، بعدما لف أيره على عمودي الفقري وتبول ليعلم منطقته كالكلاب.

استغرقت مائة عام حتى تمرّنت على الزحف للخروج من الباب، وقرنين من الزمان بادت فيها حضارات واندثرت أمم، حتى التقطني ملاك عجوز بلا أجنحة، وضعني على حمار وأقلني لاسبتالية قصر العيني، أموت في كل خطوة مع رجرجة الحمار، حتى تلقاني الحكماء، صمدوا جراحني، لفوا صدري برباط ضاغط مدعوم بلوح خشبي صلب ظهري، ولم يُنوّه حكيم العيون لوجود هجين يسكن وراء عينيّ. أرسلت في استدعاء «شكيب عبد الصمد» من المشرحة، رثي لحالي وأكل وجبتي، ثم أوصيته ألا يُشرح جثثاني إن مت، وألا يعث به، فوعدني.

في الليل، اكتملت الفاجعة، الخطوات العابرة أمام باب العنبر أهلكت عقلي، أسقطت شعري وأذابت دهون كبدي، ثم تكاثرت الهواجس في سقف الغرفة ففمت رغم الألم، تحبّطت في الظلام ونجحت في الوصول إلى شكيب الذي هرّمني من الاسبتالية، حملني على ظهره في الشوارع المظلمة الباردة، دون عُويناتي، ودون المرهم العازل، مُدثرًا من ضوء القمر بيطانية، أكتم فتحات أنفي بالقطن لأتلاف رائحة عرقه وأنفاسه المختلطة بالفورمالين، حتى وصلنا إلى اللوكاندة. بصعوبة تسلّق جبل صعد شكيب إلى الطابق الأخير، لم أدعه للدخول وإلا نفق عثر من رائحته، ناولته كوب ماء، وأغلقت بابي بالترباس والأففال، رشفت من عشب يوحنا كوبًا ساخنًا أعانني على إطفاء حرائق الأفكار، ثم تأملت وجهي في المرآة، مُتحينًا اللحظة التي سينفض فيها المهجين ليغيب إرادتي، ويرى الحياة من خلال عينيّ، هناك صفارة قطار تصدر من رثتي في كل نفس، وخربشة أظافر من خلف الجدار حيث تسكن أُمي، تريد أن تطمئن عنيّ، أو تشمّت بي، وعلى النوافذ

تمر رجفة، تصدر من غرفة عنتر، المسكين ترك يومين بلا طعام، فروع اللبلاب كتبت كلمة «نجا» فضاءلت، تحاملت فزحفت، فككت أقفال الغرفة ودلفت.

حالة المسكين كانت مُزرية، مُرتم في الركن يرتعش، يطن بضعف، يحضر الأرض بساقه المشعرة، أزال بلاطتين، وإن ترك يوماً إضافياً لأخترق سقف الجار السفلي، أطعمته وسقيته، ورفعت من فوق عينيه الحمرابين الغطاء الجلدي فأريت ألف انعكاس لوجهي لم أميز بينهم ملامح المهجين، ثم جثوت على ركبتَي أمامه وسكنت في خشوع، حتى طلق بخروطومه وأوحى إلي: «إن الاقتراب من الموت يُنير طريق الحقيقة، والألم سيكون مُرشدك، لا تخف، فأنت مبروك، محمي بثلاث أرواح لن تمكن المهجين من اختراق لحملك وعظامك، لكنه عائد ليستنقذ منك شيئاً فاحذر»، قالها وأغمض عينيه وساد الصمت إلا من صوت تنفسه، كما يفعل دائماً، وكما تعودت، لا سؤال ولا جدال، فهو مخلوق عتيق، عُمره في الظروف العادية لا يتخطى الثلاثين يوماً، الآن أتم عامًا ونيّفًا. في عُرف الإنسان؛ هو مُعمر ضيق الخلق تخطى الألف عام، اكتسب من الحكمة ما لم يكتسبه بشري في فرون، بات يملك جلاء بوذا وفلسفة زرادشت وبصيرة كونفوشيوس، أحسده على معرفته رغم إدراكي لألمه ومأساته في تُقَد كل الأجيال من أحيائه وأقربائه، وأقدر خصوصيته حين يرفرف بجناح واحد، قاصداً أن أرحل ليختني بنفسه، ويبدأ في ممارسة التأمل، هو بُرائي المجنح، هو ملاكي الحارس، هو مُعجزتي التي مستجبر الكفار عن الإيثار برسائلي، فالمرء لا يقابل ذكر ذباب مُعمراً مرتين في حياته.

ما زلت أذكر يوم الثقيان، كأنه البارحة، كان خريفاً رطباً، وكنت أعابن جنباً بحى الفسطاط لحرمة تُدعى سعدية فتح الباب، رافدة على فراشها منذ أيام بشقة مُغلقة النوافذ والأبواب، نفضت أعضاؤها وبرزت عظامها قبل أن يلحظ الجيران غيابها من رائحة التحلل التي فاحت. وضعت كمامتي وقصصت الجلابية المزركشة التي ترتديها، ودونت الملاحظات في مُفكرتي: «يرقات الذباب تخطط طور الدودة، تحول أغلبها إلى شرائق داكنة مُغلقة، مما يعني أن الموت قد حدث منذ عشرة أيام على الأقل، نسبة للحرارة المعتدلة والرطوبة، وبما أن اليرقات تكدمت وتزاحمت حول الرقبة، فذلك يتنبئ بموضع ذبح مُحتمل، فالذبابات تتكالب وتزاحم لتضع البيوض في فتحات الجسم ومواقع الطعنات، خاصة إذا كان السكين حاداً، مزق وفتح، كشف اللحم ونثر الدماء على الحائط البعيد عن السرير، الضحية لم تُقتل في نفس موضعها، والقتل لم يكن بهدف السرقة، ففي الساق خلخال لم يسلبه القاتل، وفي الشكمية حلق ذهبي وجوز مباريم عيار واحد وعشرون وغويشة من الفضة. ولما علمت أن الحرمة كانت أرملة تعيش وحيدة أدركت أن من قتلها عاشق اكتشف خيانتها، أو ربما قريب للزوج المتوفى، أراد الظفر بالحرمة أو الانتقام لشرف العائلة المدنس». ودونت في مُفكرتي توصيات واحتمالات القتل، ثم نصبت حامل الكاميرا فوق الجثة، والتقطت أول صورة، حين قاطعني عنتر، طار قرب أذني فخطبها بجناحيه، هشته، ظناً مني أنه مجرد ذبابة عادية، فدار حول رأسي بأزيز عالٍ، قبل أن يقف على العدسة، أفسد صورتين فاشتعلت غضباً، وقررت قتله قبل استئناف التصوير: «التي ما يعرفك يجهلك يا عنتر أفندي»، وإذا به يدور في سماء الغرفة، دوائر منتظمة مرسومة ببرجل، لمحت خلالها الضئ الأزرق المنبعث من ظهره، قبل أن يقترب من أذني ويلقي بكلمة «اتبعني»، نظرت لكن حولي لعني أجد في أعينهم ما يُوحى بأنهم سمعوا ما سمعت فلم أجد، وتكرر الأزيز «اتبعني»، فراقبته والوجل يتخبطني، حظ فوق جمجمة الحرمة، فوق عظام الحاجب المُغطاة بشعرها الأسود الطويل، لم أفهم، فاقتربت، وللعجب لم يطر، تمشى برفق على يدي ثم استقر على كتفي، فأزلت شعر الحرمة لأستكشف ما خفي عني

وأرادني الخالق أن أراه، عظام الجبهة، كانت بارزة بالنسبة لحرمة، تلك الجثة ليست لسعدية فتح الباب! إن الجثة لذكر. حين أعدت النظر في فطر الجمجمة، وعرض عظام الحوض الصغيرة، انجلت الحقيقة كاملة، وتأكدت من وحي عنتر، ثم سألت نفسي من هو الرجل الذي يملك شعراً أسود طويلاً؟ «عجري». كان ذلك أزيز عنتر، ولما كان حوش العجر يقع على بعد دقائق من حي الفسطاط، خلف سور بحري العيون، اكتملت الصورة، وانضح بعد أيام أن الحرمة سعدية فتح الباب استقبلت في بيتها رجلاً غجرياً، قضت منه وطرها لكنه أراد سرقتها، فطعته في رقبته، وأصابها الفرع من الدماء والفضيحة، فحرجته من موضع القتل بجانب الخائط ووضعته فوق السرير لإنقاذه، لكنه مات، فهربت، ولأن أزياء العجر مُلوّنة، ولأن بعض رجالهم يرتدون الخلاخيل ويطيّلون شعورهم كالنساء، كان من السهل أن تخدعني العلامات، لولا عنتر.

انتهيت من الحمس في أذن القنيل العجري ثم بحثت بعيني عن الذبابة الملهمة فلم أجدها، فنشيت الغرفة حتى كادت أفقد صوابي، ولم ألتقط الأزيز إلا بعد ليلتين، في غرفتي، ضربني الفرع فتلفت حولي كالمجذوب حتى وجدته، يقف فوق زجاجة المصباح، يستأنس بالشعلة الخافتة، ويحك أقدامه ببعضها البعض نظيفاً، وينادي اسمي بتطويل الألف «سليمان»، لم أخطئ اللمعة الزرقاء في ظهره، لمعة ذباب الموتى الملقب بالعنتر، اقتربت بهدوء، وضعت سبابتني بجانيه فطار واستقر فوقها، ثم وضعت العدسة بيننا فأدركته عن قرب، حجمه كان أكبر من الذباب المعتاد، وأدركت ذكورته من ضيق المسافة بين العينين الكبيرتين، فالأنتى أعينها منفصلة بمسافة نصف عين، ولم يكن كالذباب متذبذباً مرتعشاً، كان حكيمًا ثابتاً، مؤمناً بالله، له كرامة، وما لبث أن حرك يديه وحكى قصته، فمئذ صار يرفقه وهو ينتظرنني بأمر أزي حكيم، مُسخر من أجلي، فحبول على خدمتي من دون بني جنسه، بدعم من المولى لمواجهة الهجين وحربه، وغير مسموح له بإبداء الأسباب حول ما يقول وما يفعل لأي كائن حي، أما معجزته، تفرد به الكلام المفهوم المبين، وعمر لن ينقضي إلا باكتمال الرسالة التي أتى من أجلها.

وتوالت الأيام، وتضاعف حجم عنتر، فهو يأكل كل ما يوضع أمامه مثل الخنازير، حياً أو ميتاً، لم يعد من السهل تركه في الغرفة ليظير بحرية أو يلتصق بالنافذة لساعات، وما كان لبشر من العامة أن يلحقه فينتشر الخبر ويجتاح الناس الفرع والخوف بسبب ظهور أول علامات الساعة، الذبابة التي تتكلم. حين أصبح عنتر في حجم رأسي، خصصت له غرفتي، وبث أنام على الكنب - وعلى قلبي زي العسل - فهو الرفيق المعين، الصديق الوفي الذي ساعدني في حل أكثر من لغز، والمعجزة التي سأقهر ببركتها الهجين يوماً. وإن كانت الرياح دائماً تجري بما لا تشتهي السفن، فالشيخوخة بعد شهور، أصابت عنتر المسكين بنوبات طيران أهوج، تأتبه وهو نائم، أجبرتني - رغم ضيق خلقه - على سلسلته بجنزير، حتى لا يطير غافلاً فيضطدم بالأثاث أو الخائط، وكذا أصابته الشيخوخة بضخامة مطردة، أثرت على صحته بالسلب، وأضعفت قدرته على الطيران، بالإضافة للتجاعيد التي ملأت وجهه وأطفأت المئات من العدسات في عينيه، حقاً، دوام الحال من المحال.



تذليل لليومية رقم ٣٤ المدونة بتاريخ ٢٥ شهر / وصية:

تغربنا الأيام تترى
وإنما تُساق إلى الأجل والعين تنظرُ
فلا عائد ذلك الشباب الذي مضى
ولا زائل هذا المشيب المكدرُ
إلا بسحق أفاعٍ لذيولها صدى
وقتل هجينٍ قمرٍ منتَمِرُ

الإمام «ابن كثير»

«عدا البيتين الأخيرين، من إضافات العبد لله»

أما بعد،

هذه هي رسالتي الأخيرة للأرض الغشيمة الملوثة بالأحقاد والمؤامرات الدنيئة، أفبقوا يا ملهيين، لقد افتربت الساعة، وأعلن الزاحف الأعظم مخططة النهائي للاستيلاء على النسل والذرية، وإشعال فتيل الحرب النهائية بين ملوك وسلاطين الدول، ليستولي على عروش المعمورة، ويقتات عن الذهب ودماء النسوة، ويعلن نفسه أمير أمراء الجنس الآري. لقد تبددت الضلالات والشكوك حين قابلته وجهًا لوجه في سراية عصمت باشا، فهو حق، مثل الشمس والقمر، مثل عزيزة، وعلمت يومها أنه وضع قائمة أقسم فيها أن أكون قربانه الأخير والشاهد على جرائمه الشنيعة، لسبب ما زلت أجهله، وما كنت لأنتظر يوم مقتني فيمضغني الرعب ويصقني، أو أصبح مهزأة للزعانف والضالين من العامة؛ لذا، فقد انتويت الرحيل وبشكل نهائي، بلا تراجع أو تحاذل، خاصة وأن صحتي قد تدهورت، وأنفاسي قد تقطعت، وبات جسدي فقص طيور أجوف، يُصفر الهواء حين يمر به، وبلغت الأفاعي في شراييني طور التضج والتناسل فبرزت من رءوسها القرون الصفراء المدببة، تحربش أعضائي وتثير الهرش المزمن في جلدي من الداخل، ومن ذيولها تدلت أجراس صغيرة تعتمد هزها في نغمة رتيبة تكاد تُصيبني بالجنون، وخلال أيام ستضع بيوضها، وستضاعف أعدادها، حتى تخرج من بؤبؤ عيني.

وقد استخرت الله، واستأذنت في الرحيل عن الأرض قبل نزول الرسالة وتولي الأمانة، وطلبت العفو من المهمة الموكلة لي مُعظماً بدرس «يونس» عليه السلام الذي ذهب مغاضباً، وتحركت فروع اللبلاب لترسم على الحائط كلمة «امضي»، فأدركت أنها العلامة والتصريح والعفو؛ لذا، وبالإضافة للبندود السابقة في وصيتي بشأن بيع حاجياتي وسداد ديوني، أضيف الآتي:

– ألواح الفوتوغراف الزجاجية، وكذلك ملاحظاتي حول الجريمتين الدمويتين تُسلم إلى داغر بك رستم كبير مستشاري أفندينا، مُذيلة باعتذار مني عن إكمال المهمة التي كُلِّفت بها، وكذلك اعتذار عن رد باقي الجنيه النابليوني، فالطاعون البقري والكوليرا، بالإضافة للحرب الأهلية في أمريكا، رفعت أسعار بعض السلع، مما ألحق بي إفلاساً غير محمود.

- مرفق رسالة منفصلة في جواب مُغلَق ومُزِيل بتوقيعي، لأفندينا إسماعيل بن إبراهيم باشا، مُدون فيها تحذير من سَطوة المهجين وطموحه في العرش، وكذا رسم تفصيلي لمخططة الشامل لاستعداداته الأمم الأوروبية ضد المحروسة، بالإضافة لنصيحة خالصة في أمر ترعة السويس؛ أرجو فيها بالتراجع والردم قبل الندم والخسارة، وقبل أن تلفت أنظار الأوروبيات وتحلب المطامع عنى الرؤوس.

- ومرفق طيه بلاغ رسمي مُزِيل بتوقيعي من العبد لله إلى قصر أفندينا، بشأن المدعو «بشلاف جودت أنزور»، مدير لوكاندة بير الوطاويط، أتهمه فيها دون التباس أو ارتياب، وبالدلائل القطعية التي لا تقبل الشك أو الظلم، بالشروع في قتلني بالسم للاستيلاء على غرفتي باللوكاندة، وذلك بمعونة السُّقا «عشري ربيع أبو طاقية» المقيم بتمرة ٦ حارة القباني بباب الشعيرة، فهو يدس السم في قربة المياه التي بحوزته حين يزورني لملء الزير، ثم يصدر في نزوله على السلم نغمة محددة بصاجاته النحاسية، لا يفهمها إلا بشلاف، تغيد بأنه نفذ مهمة قتلني، ولولا ستر الله وحايته، وقوة ملاحظتي وحصافتي، لَقُضي الأمر، وانتصر القتل الملائع.

- أرجو حبس المتأمرين وإعدامهما في ميدان الإسماعيلية الحديد ليكونا عبرة لأمثالهما، حتى لا يُكررا فعلتهما مع سكان اللوكاندة ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

- بشأن عنتر، لقد قررت تعديل البند الخامس به في وصيتي الأولى، بدلاً من العناية به وإطعامه، فإني انتويت أن نموت معاً، دسست له جرعة سيانيد في طعامه، ستهب الراحة الأبدية في أربعين ثانية، فأيامه في الحياة باتت معدودة، وحجمه فاق التوقع والاعتقاد، والعالم غير مُهيأ أن يعيش فيه كائن طاهر مثله، والمعجزة لا تورث من نبي لنبي بعده.

- أوصيكم بضم عظامي إلى بقايا عنتر في كفن واحد، وطني أجنحته فوقنا بعد فرش فروع اللبلاب، ثم دفننا في المكان المشار إليه سابقاً.

سليمان جابر السبوي أفندي

نمرة ١٠ - لوكاندة بير الوطاويط

الساعة ٨ أفرنكي مساءً



اللعة على عُشبة يوحنا، رغم أنها تصيفني بالسكينة، وتطفئ نداء الموت في عقلي، إلا أنها تحرمني الإجابات، دائرة مُفرغة، إن أفلعت عنها أستير ويصير ذهني حادًا كسكين اللحم المسنون، المح ظلال الشياطين، التقط نسيمة الملائكة، وأغزل خيوط الأسرار دون عناء، وإن كانت تغمرنني بالكآبة وتحيطني بالهواجس السوداء، تنهش غيطاني كالجراد النهم، ويصير رأسي، كفتي ميزان، لتعلو اليمنى؛ على اليسرى أن تنخفض، وداعًا للعدل والاتزان. كما لم يعد لدي أدنى شك بأن الحكيمباشي ماسون، يعتمد إلى إخماد شعلي بسبب خفي، يُريدني أن أصير من مجاذيب استباليته، لا هم لهم سوى دخول الكنيف، النوم المستمر، والحمول الإجباري بالأعشاب المسمومة. لا، فلتها بصوت عالٍ، لن أتناول عشبة يوحنا ما حييت، لن أصير مفعولاً به تنقاذه الأقدار، لن أصير خرقه مستعملة. تخلصت من طعام عنتر المسموم قبل أن يلتهمه المسكين، سمّرت ألواح الخشب أمام الشبايك حتى لا يتسلل نور القمر، ودعمت الباب بترياس حديدي عنيد، فرشيت اللبلاب على صدري ليمتص دخان الكآبة، ووضعت سكينتي الصغير تحت مخدتي، لن أبرح سريري إلا لقضاء حاجتي، أو لإطعام عنتر الذي دخل في خلوة روحانية، يتنهل في تضرع وخشوع ولا يجيبني حين أناديه.

بعد أيام هذا احتكاك ضلعي المكسورة باللحم، الالتئام أخذ مجراه رغم نزيف النحافة المستمر، الكدمات البنفسجية قررت الظهور بعدما اطمأنت أني أصبحت وحدي وزال الخطر، ولم تأتني عزيزة في ميعادها المعتاد، كما لم يظهر هجين القمر، ولم يلح في المرأة حين اختلست النظر، طعامي يكاد يتفد، وكذلك صبر مبعوث أفندينا مبتور الورك جالب المصائب، أرسل إلي زبائنه بمكتوب يستعجلني، فدفعت إليهم من تحت عقب الباب بالصور والملاحظات والاعتذار عن المهمة الموكلة إلي.

ورغم ذلك؛ فقد هاجمني سرب جراد أصفر، ملأ السقف والأرض والجدران، حك أجنحته في رأسي، ثم تسلل بداخلها عن طريق أذني، صغير مزمن، كصغير القطارات الليلية، بالإضافة لخرشة أظافر أُمي خلف الحائط، وندائها الخافت الذي لا يتوقف. توهضت واستعنت بورد السكينة والرحمة، وتذكرت من سير الأقدمين العطرة، ما طمأن قلبي ورطب فؤادي، فالملاحم تؤكد بأن الرسائل لا تمهبط إلا على من أصابه الخذلان والأسى، من تماقت الشرور عليه وتكالت عليه الأعداء، هل نسيتم جروح صلب المسيح؟ وهل نسيتم طريق الآلام الذي مشاء حاملاً صليبه؟ ذلك هو الطريق الذي زحفت تحت نور القمر دون غطاء يحميني، وبضلوع مكسورة، يوم نجيت من الهجين، أي قائمة كان يقصد حين قال: «سأحييك اليوم، لتصبح الشاهد على الأحداث، وسأقتلك بعد نهاية القائمة»، ولماذا قرر قتلني ثم أرجأ التنفيذ؟ وكم اسم تبقى حتى يأتي دوري؟ وما السر وراء رأس الأمد الخشبي الذي انتزع من حقيبي قبل أن يتركني بين الحياة والموت؟ ومن هو «المشاعلي» المحفور اسمه أسفل التمثال؟ الغاز أضافت للأرق الليلي المعتاد أرقاً، أشعلت ستائري وملأت رتني بالدخان، ما كان ذلك ليحدث لسليمان السيوفي، كذلك أكدت فروع اللبلاب على الحائط.

فمت، وجردت مكتبي بحثاً في كتب الأقدمين حتى عثرت على كتاب أفرنكي يتحدث عن الرموز السرية، قرأت فيه تعريفاً للأسد، رمز القوة والنبل والبطش بالأعداء، يصلح أن يكون نذيراً مهيباً قبل الموت، هل قرر هجين القمر طريد الكواكب أكل ذهب الموتى وشارب الحيض، أن يرجئ قتي ليرتدي

جسدي بعد قضاء مهمته؟ يريد أن يحيا بلاخني حتى أبلى وأهلك؛ ثم يغادرني، بعد أن يُلقى جسدي في خرابة مثل خرقة نجسة، ليستولي على جسد مسكين آخر؟ هيهات، سنلتقي ثانية، فذلك ما أوحاه عنتر، وألقاه في قلبي، وتلك هي المعركة التي بُعثت من أجلها، ولست مثل المسيح ولن أدير خدي، فإذا أتاني الموت، وفاضت الأفاعي السوداء مني، أقسم بالله، لن يهأ المهجين بجسد سليمان السيوفي، حتى وإن اضطُرت لقطع أبري المحبوب.

أيها الوحي؛ لقد تراجعت في قراري بالتخلي عن الرسالة، أنزلها عني متى شئت، فلن أبرح اللوكاندة « ١٠ » سكة بير الوطاويط، فالجسد يتعافى، والعقل يتهيا، أيدي بالملائكة والمعجزات، نبات وحشرات بأجنحة، وأطل في عُمر عنتر، وسأدحر المهجين بمشيتك، مثلما دحر داود جالوت يوماً.



أكتب تلك اليومية بعد انقطاع طال، من بعد إقامتي بمبنى المارستان المؤقت بورش الجوخ ببولاق.

ولكي تفهم السبب الذي أتى بي إلى المارستان أيها الحكيم باشي الموقر، سيكون عني أن أعود للوراء، أيام عصبية، لأسرد ما حدث بدقة متناهية لا تقبل الجدل ولا تخضع للنسيان. كنت وقتها قد أعلنت الحرب على هجين القمر ابن الكوكب الأحمر بعد هجومه العنيف على العبد لله في دار عصمت باشا حسن. انتظرت يومين إضافيين أصلاحت فيهما زجاج نظارتي، وخفت نبض الألم في ضلعي المكسورة، فكسوت جلدي بالمرهم، دسست سكينتي في الحذاء، وتلثمت بشالي مبتل يقيني عويل ريح الخماسين، فجبل المقطم نثر أثرته على القاهرة حتى غابت المعالم ونحبط الناس والحمر في السكك والأسواق، وكذلك لأتخفى عن عني الهجين، فقد هاجمني ليستولي عني تمثال الأسد، ولن يسكت حين يراني أبحث وراءه.

حين وصلت إلى حارة المشاعلية، تأملت سُخرية القدر، فسكانها الذين يُشعلون العواميد بوصيتهم ليُضيئوا ليل المحروسة، يسكنون حارة مظلمة كثيفة، لا تكاد ترى يدك فيها، حقًا باب النجار مخْلَع. نزلت من فوق الحمار وحاسبت المكاري ثم انجھت لبيت بخضر الأعرج؛ شيخ المشاعلية، عموز طيب تخطى الثمانين، رَغاي مثل غلباوية المحاكم، يحكي كلما التقينا قصصًا تعود لزمن بونايرته، بشغف ودهشة طفل، ثم يكرز عن ضروسه المثبتة حين تداهم سيرة «حلاوة»، يسرد قصتها بتفاصيل دقيقة وكأنها حدثت أمس.

منذ خمسين عامًا كان بخضر شابًا يافعًا، يُشعل عواميد نور شارع في نهايته بيت باشا من الأثرياء يملك جارية تُدعى «حلاوة» اعتادت الوقوف بالشباك للسنن بالفرجة على المارة. هام بها بخضر عشقًا حتى نجح يومًا ولامس الأصابع، فناولته بلعة ووعدا؛ أن يشعل العمود القريب من بيت سيدها، ثم يصعد ليُشعل سراجها. وتوالت الأيام، حتى اشتتم السيد شبعًا في خصر جاريته، أصبحت أقل رضا، مُتعلمة، تتلافى قضاء الليل معه بحجج واهية. راقب الباشا منزله، وصعد يومًا في غير ميعاده، باغت العشيقين في حُرقة الجارية، فقفز خضر من الدور الثاني، ليستقط عاريًا على ركبته فتكسر، تحامل ووثب مثل الجندب، واختفى في ظلمة الليل، ولم يجد السيد غير مصباح الزيت ليكرسه بعُزْن وغضب على رأس جاريته الأثيرة، ويبلغ القواصة الذين هرعوا للبيت والطلومبجية أن النار اختارت أعز جواريه.

يقولون إن راتحة شواء الدهن المحترق ملأت الحارة لثلاثة أيام؛ قربان العشق الممنوع.

وحتى يتعظ، ويُذكر نفسه دائمًا بالحكمة القائلة إن «علوقية القلب تخفي العقل يعرّض»، وإن إصلاح جارية وضبعة الأصل مهضومة النفس متهكة الكرامة هو ضرب من ضروب المستحيل، فقد قرر الباشا أن يحتفظ بجمجمة حلاوة، انتزعها من الكفن، ووضعها في مكتبته بجانب كتب الرحلات. وظل بخضر يمر أسفل البيت كل يوم، بخرج مزمن، وحزن يعضغ هامته، يضع السلم، يصعد، يلثع زجاج المصباح، يشعل فتيله، ويُطيل النظر بحسرة للشباك الموصد، ثم يتعد، مُرددًا أغنية حزينة بلُغة غير مفهومة.

حتى تسلل يومًا في غفلة من الباشا، وانتزع رأس محبوبته من المكتبة، غسله بهاء الورد ووضع على مخدة من الحرير، قبل أن يعلم بالصدفة، وبعد شهور، من خلال نعيمة مع سكان الحي، بأن حلاوة، محبوبته الأثيرة، لم تكن له وحده، كانت ملكًا لراوي المتهى الذي يصب الملاحم في أذنيها، خبّاز الحي الذي يرسل

الفطير الطازج كل صباح، وصاحب البقالة اليوناني الوسيم.

لم أجرو يوماً على سؤال خضر عن المنفضة القابعة على المنضدة بجانبه، منفضة على هيئة مجموعة تحمل آثار حرق، وعشق لأذع مغشوش، يدك التبع على الجبهة، ويطفئ الأعقاب المحترقة في تجويف الفك، بين الأسنان التي مسحها يوماً بلسانه.

حين انتهى خضر المشاعي من سرد مأساته، شربنا الشاي ودخنا النارجيلة، ثم سألته عن لقب «المشاعي» فأفاد بأن اللقب مُنتشر بين أهل المهنة، لا يقتصر على شخص بعينه، فكل من انضم للطائفة يحمل تلك الصفة بجانب السلام والعصا وحاوية النفط وشارة نحاسية تحمل نمرته، ولما سألته عن أعضاء الطائفة، أفاد بأن الانضمام ليس بالشيء الهين، فهم كالعائلة، وهو كبيرهم، شرط على من ينضم، أن يكون على صلة بخضر، بل وموضع ثقة «نحن نطلع على عورات البيوت من على يا سليلان أفندي»، ماذا لو انضم إليكم هجين من القمر؟ دار السؤال بذهني ولم أطرحه، فسألني خضر عن سبب بحثي، فأجبت باني أسعى لخلف تمثال أسد مفقود يحمل حفراً باسم المشاعي، كسا الغباء وجهه، ثم جرب الفهلوة لمساعدتي حتى استسلم.

ليس للطائفة قوة تُذكر ليُحضر اسمها على تماثيل الأسود، فالمشاعي مهنة على الهامش، عفاريت الليل كما يروق للأطفال أن ينادوهم، برغم تاريخهم المزعج كمستولي تنفيذ الأحكام في الشوارع والميادين، جلد وإعدامات وتجريس، يستدعيهم القضاة والقوافة، فيتسلمون الجناة، بالحبال والسياط والمسامير الحديدية، ينصبون المشائق على الأعمدة والأبواب، وبأمر العدل، يسلمون جلوداً ويقلعون أعيناً ويسمرون أعضاء، ويُعلقون رؤوس الجناة على الرماح فيطوفون بها على بيوت الضحايا ليزفوا البشري ويشفوا الغليل ويتلقوا النفحات. هم عبيد للأمر، مُنفذين بلا أعين تُبخلق أو البينة تُراجع حُكمًا، ولا يقررون عقوبة، فقط ينصاعون، وحين ينتهون، يعودون لمهنتهم الأثيرة، إضاءة مصابيح الشوارع بالنفط والنار.

قبل نهاية الجلسة استدعى خضر أعضاء الطائفة، كانوا تسعة عشر، ليس من بينهم جسد مفقود كجسد الهجين، اللعين ينتمي الأجساد الفنية، لا يُفضل الأعين المطفأة أو الهامات المحنية، بالإضافة لانتفاء وجود جرح في رسع أحدهم. لم يطل بقائي، شكرت خضر وقررت التوجه في اليوم التالي لوروش النحاتين، بحثاً عن نخات قد يحمل لقب المشاعي.



حين وصلت اللوكاندة، وقرب البوابة، كانت العربة الفخمة بانتظاري، يجرها حصانان رشيقان، ومن وراء نوافذها ستائر خضراء داكنة، يقف أمامها سانس يتحدث مع الرزيل بشاف الذي أشار نحوي فور ما رأيته، اقتربت فهمس السانس في أذني: «مسك هانم، أرملة عصمت باشا حسن»، ولم يُمهلي، نقر على الزجاج تنبيهاً قبل أن يفتح الباب للحرمة التي اتهمتني بقتل زوجها.

من وراء اليشمك الأسود رمقتني، عيان امتزج فيها الحزن بجمال عنيد، نظرت إلى شمسيتي فأغلقتها، ثم أشارت إليّ فصعدت، جلست أمامها مُتحفزاً، ساد الصمت قبل أن تكشف وجهها: «ما بدر مني يوم وفاة المرحوم زوجي، كان مهيناً، وغير لائق، لم أكن في كامل وعيي، ولا أعلم لم ظننتك القاتل الذي...»، وتحسرج صوته ثم تفرقت عيناها، فعلمت أنها رأت جثمان زوجها ورأسه المثقوب. تمالكت نفسها: «القاتل لا يشبهك، أنت نحيل كالورقة، وقد أبلغت داغر بك بالحقيقة حتى لا يتهمك زوراً، وإن كنت تبدو

غريب الأطوار، لم تستخدم شمسية في ليلة بلا مطر؟!، نثرت في وجهها كلمات مُبهمة عن الخماسين متقلبة المزاج، واحتمالية مطر مفاجئ، ثم سألتها عن يوم مقتل زوجها، فحككت أنها تنام منذ زمن في غرفة منفصلة: «كما تعرف أيها النحيف، إن بنت الدَّار عورة، مقارنة بالجواري الشرُكس». ابتسمت في أسى ثم استأنفت: «سمعت صوت زوجي وهو يصرف العبيد والخدم، قبل أن أغفو، وفي الفجر، استيقظت على أصوات مُتداخلة، بدا لي أن شخصًا يتحدث معه بحدقة، ثم سمعت صرخة فقممت ورجلة خائفة، على ضوء السراج توجهت لغرفته، وقبل أن أصل، تحرك ما ظننته في الظلام عمودًا ثابتًا، لم أستشف الملامح، هاجمني بقوة غاشمة، دفعني، واخترق نصل مكينه كتفي ممزقًا لحمي، صرخت، والتقطت الشمعدان في يأس، قذفته ناحيته فأخطأه، ثم تعثر خطايا فسقطت وزحفت، فأطبق عني وخنقني، حتى غبت عن الوعي، ثم استيقظت في السرير وسط الخدم والقواصة».

سألتها: لماذا تظنين القاتل أبقي عليك وأنت شاهد مُحتمل؟ أجابتنني بأن لا علم لها، فأدركت أن الهجين لا يأبه بمقتل غير ضحايا مُحددين، ينتقيهم طبقًا لمييار لم أفقهه بعد، معيار يحكمه التنكيل والتشهير والانتقام، هل كشف الضحايا سر توغله وارتدائه أجساد الطبقات الحاكمة عبر العصور؟ هل قرر التخلص منهم بتلك الطريقة لإرهاب أفئدينا تمهيدًا لارتداء جسده؟ وألقي في جوفي، أن داغر هو مُدبر تلك المذابح، فهو المسئول عن تتبعها والقاسم المشترك فيها، ولماذا قررت مسك هانم زيارتي؟

لم تتركني لهواجسي، أخرجت من كيسها المطرز مطروفاً فيه خمسة جُنيهاً: «لن أبخل بالأموال حتى أكتشف من قتل زوجي، أريد أن أكون أول من يعلم، أريد أن أثار منه قبل أن يصل إليه إنسان»، سألتها عن تمثال رأس الأسد، فأخبرتني أنه هدية تلقاها زوجها في علبة خشبية، بلا راسل، قبل وفاته بيوم. إن كان رأس الأسد علامة وإنذارًا من القاتل، فلم لا يسترده مباشرة بعد القتل والتمثيل بالضحية؟ لم يتركه ثم يعود ليستعيده؟ لا تفسير إلا إنه يريد للتمثال أن يُكتشف، أو يرغب في معاودة زيارة مكان الجريمة، الهجين يُعلن عن نفسه، مرحلة جديدة في طور السيطرة على البشرية؟

ملأت علامات الاستفهام مقصورة العربة حتى وارت مسك هانم عني، مددت يدي وسحبت الجنيهاً من بين أصابعها قبل أن تُغير رأيها، ووعدتها بشرف الكشافة الإنكليز والنضال الوطني الأمريكي أن أعثر على القاتل، ولو في آخر الأرض.

ابتعدت العربة، وحين دمسست الظرف في جببي، اصطدمت يدي بجسم معدني مستدير، راهنت عليه، قبل أن تلتقطه أصابعي، عملة ذهبية من فئة العشرة قروش، مخفورة بتاريخ سك «١٢٢٣هـ»!

حين صعدت إلى غرفتي وضعت العملة تحت العدسة، تأملتُها، شممتها ثم لحستها، الهجين كان أقرب مما تخيل، احتك بي وترك على بابي علامة «جنت ولم أجده»، يريد أن يُعلمني بأنني تحت عينيه، مُراقب، يريد أن يبت الرعب في نفسي، أما عنتر ودون الخروج من خلوته، فقد أوحى إليّ بأن العثور على صانع التماثيل الذي نحت اسم «المشاعني» سيكون فتحًا عظيمًا، يُقربني من النصر المؤزر خطوة، وأن من الأصحح شراء عبد أسود عتي، يحمي ظهري، ثم تنهد وأنبى وحيه قائلاً: «هأنذا أرسلكم كغنم في وسط ذئاب فكونوا حُكماء كالحيات وبُسطاء كالخنازير».

في اليوم التالي توجهت إلى ورش النحاتين، أصوات الدق والحفر تصنع - رغم العشوائية - نغمات رتبتها أذني في مقطوعة لا ينقصها إلا كيان الأثير، وللعجب! فقد عثرت على تمثال الأسد دون تعب يُذكر،

مرصوص وسط خمسين نسخة منه، في أغلب ورش النحاتين. التمثال ليس مُميزًا، مجرد قالب رخيص متداول لرأس أسد منحوت بدقة. بالحديث مع أحد أصحاب الورش، أنفخى إليّ بأنه لا يوجد نحات في الحي يحمل اسم المشاعني، وأن ذلك الرأس منتشر منذ ظهور في الورش، تاه اسم صانعه الأصلي وسط قوالب النسخ والتكرار، وإن كان يُرجّح أن الأصل تمثال من تماثيل الفراعنة التي غمّلت بها خرابات المساحيط بالجنوب، ويُقبل عليها الفرنسية والإنگليز لولعهم المرضي بقدمائنا البائدين. بدت الزيارة مُحبة للأمال، حتى سألت الرجل: هل أتاك شخص يرغب في حفر اسمه على التمثال؟ فأخبرني أن حفر الأسماء من اختصاص شخص واحد في الحي، خطاط ماهر يصبّ النحاتين في دكانه طلبات الزبائن من الكتابات اليدوية على التماثيل، فتوجهت إليه.

في ورشة بنهاية الحي كان يجلس، عجوز تحطّي السبعين، أحنى الزمان ظهره ركوعًا، لم ينظر ناحيتي حين دلفت دكانه، سألته عن اسم «المشاعني» فأجاب: «أهلًا وسهلًا، ابن بقية الريالات يا أخ؟»، جازيته بصنعة لطافة: «إنه أحد رجالي، ومأسد ذلك ما تبقى ولكن، صنف لي ملاحه، وأخبرني ماذا طلب، حتى أعاقبه عن عدم تسديد رياتك؟»، رمقني العجوز بشك ثم تكلم: «لقد أتانى منذ شهر، رجل مفتول كالثور، غليظ الصوت، في نصف وجهه الأيسر آثار حرق جعّدت جلده، ناولني ورقة مكتوب عليها كلمة المشاعني، وطلب مني حفرها أسفل قاعدة تماثيل الأسد، أنهيت الحفر ونسّلت التماثيل، تحجّج بأنه نسي الريالات، ثم.. فص ملح وداب.

كلمة تماثيل جذبت انتباهي وأجبرتني أن أسأله عن العدد: «لقد طلب حفر سبع نسخ»، سألته عن اللكنة، فأكد لي أن الشاب لا تُميزه لكنة من خارج القطر، وإن كان يميل أن أصوله ربما تمتد إلى أهل الجنوب. سددت له ما لم يُسده المهجين ثم رحلت.

المهجين قتل اثنين فقط من أصل سبع ضحايا، يتبقى له خمس ليفي بنذره الغامض، خطط لقتلهم في زمن كان كافيًا لتوجيه رسالة ثبت الرعب في الصدور قبل وصوله، أراد أن يُزلزل ضحاياهم قبل قتلهم بكلمة. المشاعني، اسم يجبرهم على إخلاء السرايات قبل حضوره، ما الرابط بين أسماء الضحيتين سوى العمل تحت ظل أفندينا؟ هل هناك قرابة دم؟ أصهار؟ تحكمهم ضفيرة عائلية؟ ولماذا ضمنني إلى قائمته؟ لا أشك في ضلوع السلطان عبد العزيز في تلك المؤامرة، ولا أخشى سوى أن يرى الناس سليمان جابر السيوفي، يسير بينهم وهم لا يعلمون أن المهجين القمري يسكن خلف عينيّ ويعدّل زر طربوشي.

المزاج بات سيئًا، وازدحام الهواجس في رأسي أنذرني بثوة سكندرية عنيفة، قدماي تغوصان في طين الكآبة والشك، رغبات ومخاوف تتسابق، تتكالب وتسهل كآلف حصان برّي في مضمار عرصه عشرة أمتار، يدوس بعضها البعض، ترفس بالحدوات، وتعفّر التراب في إعصار يخرق السحاب، ويهيج الأفاعي السوداء فتظل من أوردني بالآلاف لتتراهن، تُلقني بالريالات المعدنية في الهواء، وتخبّط بذيلها على كبدي طلبًا للبيرة، الهمس أصبح صراخًا، وأعين العامة تخترقني، أضع النظارات كي أصد الفضول القاتل، الأفواه لا تنفك تتناول سيرتي، والبوم عنى الشجر لا يتورع عن الطعن في كرامتي، ومن العجيب، أن يتنابنى الاحتياج وسط كل تلك المخاوف، خدر مُتمتع اسمه عزيزة، جزيرة تلوح في نهاية الطريق، جزيرة تريحني من السباحة وسط العواصف ومصارعة أسماك القرش. اقتربت من بيتها، راقت خصاص شباكها حتى نفدت برطمانات الصبر، فأرسلت صبي المكوجي برسالة، ونفحته قرصًا لقاء صمته، ففتحت الشباك ورمقتني

باستغراب شديد، كأنها لا تعرفني، ثم ابتسمت قبل أن تشير إلى السطح.

زحفت على سلالها، ثعبان جائع يتسلل لعشة فراخ، كمنعت في ركن حتى لاحت، مسحت الأسطح المجاورة بعينيها، ثم رمته بالجنون، ولم تحف ابتسامة ظفر بين شفثيها: «متهور يا روميوا»، ثم أخبرني بأن أنور أفندي للتو خرج للقهوة قبل وصولي بقليل، ولما لمست الشرود في عيني أحاطت وجهي بكفيها وسألني: «مالك يا سليمان؟»، قبل أن تجرني إلى عشة الفراخ، وطأتها وطرف جلبابها في فمها، حتى تشنجت ساقها حول خصري وارتعشت، فجذبتني نحوها، ودست رأسي في صدرها، تاركة العرق ليظهرني من الأفكار والهواجس، أسكتت زلازل التوتر التي انتابني، ثم ناولتني رغيف سمك وبصلة، أكلت بنهم، ثم سألتها، أين كانت في الأيام السابقة؟ ولم غابت عن ميعادنا المقدس؟

فأشارت البضة إلى بطنها!

لقد نجح الرغد في زرع الجنين في أحشائها، أنور أفندي أبو شمعة قرّر إهداء البشرية نطفته الغالية التي لا تقدر بثمن، ركلت دجاجتين وعضضت عن شفثي فهراً، وكدت أرحل فاستدركتني عزيزة: «ما في بطني ليس ابن أنور أفندي»، نظرت لبطنها، وقاومت دوازا ضرب رأسي، عزيزة تحمل لطفني، وريثاً محارباً سيرت اسمي وملاحى وليلاي، صالح سليمان جابر السيوفي. ارتعشت من وقع الاسم، وبكيت كما لم أبك من قبل، ثم جثوت على ركبتني متضرعاً، أمام بطن عزيزة، ضمت عجزيتها الكبيرة بيدي ووضعته أذني أمام شرتها، وللعجب، التقطت كلمة، اختلطت في البداية بنبضات قلب عزيزة، لكن أذني ميزتها: «قادم، قادم، قادم»، تتكرر بوقع ثابت، صالح يعلن عن نفسه، يُبشر الخليفة بتفجر الضياء وانبثاق الأمل، ينبي البشرية بعصر جديد ستسود فيه سلالة السيوفي وتحكم. ولكن، ما لبث الفرح أن تبدد سريعاً على صخر الحقيقة، تلوث بطحالب الهواجس، وظللته سحببات الخوف، الفرح بوليد يحمل اسمي يختلط بخوف عليه من مصير ينتظره في مواجهة زاحف قمري يعد العدة لقتل أبيه ويضعه في نهاية قائمة الموت.

ولم يُبدد الخوف سوى احتياج مفاجئ سيطر عن حواسي، عاصفة ساخنة دفعني لوطه عزيزة، حباً وتقديراً وعرفاناً، وحماية لأرضي بنثر سوائني عليها، حتى لا يقربها غيري، كأنما صراخها بكلوة يدي، متحملاً عضات أسنانها المتوحشة، حتى لا توظف صالح والفراخ والسلطان عبد العزيز، ثم ودعتها بعدما تركت في راحتها ربالات تشتري بها لحماً وسمكاً وجرجيراً ولبن ناقة، ولتنوح إن أرادت، مبتهجة راضياً، وقد تشنجت نواصي فمي من ابتسام لا إرادي، غير مُصدق أنني لم أعد سليمان السيوفي، لقد صرت «أبو صالح».

حين ابتعدت خطوات عن بناية عزيزة، التفت نحو شباكها، كانت بين الخصائص تراقب وتبتسم بوجه متورد، أملت طربوشي وبرمت طرف شاربي غامزاً عيني في حُبٍّ وولء، ورغم قصر نظري، ورغم الظلمة، شعرت أن أم صالح لا تنظر تجاهي، ابتسامتها تحيد مستبشرات عن وجهتي، التفت، وأمامي مباشرة، وعلى نفس زاويتي، كان يقف «سيد عجوة»، قزم أسمر وصيم الملامح، يملك ورشة نجارة تقع على ناصية الحارة، تحت المنشار عضلات ذراعيه وصدره رغم ضالة أطرافه نسبة لرأسه، يقف أمام دكانه في زهو غير مُبرر، في جيبه إزميل من الصلب، وبين أصابعه مطرقة، يثق بها لوح خشب أسمن مني، رمي عزيزة بنظرة متعلق، وابتسامة على ناصيتها سيجارة واثقة، ثم رمقني بسخريه بثت البرودة في مصاريني. التفت نحو عزيزة فأدركتها وهي تتوارى خلف الستائر، لن تتابع القتال عليها بين ذكرين متنافسين، مستفرغ لصنع الملوخية

قبل أن يعود أنور أفندي أبو شععة.

لاحت جرادة، حطت على أذني وهمست: «هل تحمل عزيزة في أحشائها صالح، أم عجوة الصغير؟».

أفلتت مني ضحكة، واستغفرت، لا أعيب في خلق الله، ولكن المقارنة مجحفة، فالعبد لله، حتى وإن ازداد نجاسة وهزالاً، حتى وإن كان قطعاً مُصاباً بالديدان المعوية، حتى وإن تبخر ظني عن الأرض أسفل مني، إلا أنني لا أقارن بسيد عجوة، ولا مجال للمنافسة على عزيزة، حتى وإن لبدت تحت نافذتها ليل نهار يدق بشاكوشه الأخشاب والمارة والهواء. كل ذلك، لم يمنعني أن أمر بمروزيق الجبروني، شيخ الحارة، لأتقصي الخبر اليقين، من باب الفضول، شربنا شايًا وسحبنا أنفاس النارجيلة، ثم سألته بإهمال ولا مُبالاة، عن سيد عجوة، فتبدل وجه شيخ الحارة للجدية وكساء الانزعاج، أغلق باب الدكان علينا، وحكى عن السنوات التي قضاهَا عجوة في الحبشة جليًا لأخشاب الغابات مع سفن جلب العبيد، والصدقة التي جمعتها بقبيلة «الحمر» الإفريقية، وقصة زواجه من بنت زعيمهم الذي طلب أمداً بالغاً ذا لبدة كثيفة؛ مهراً لابنته، وما كان من عجوة إلا أن ارتدى جلد لبوة وقبع بين حشائش السافانا لساعات، حتى اقترب أسد، راوده عن نفسه فتمنّع، وقبل أن يشتم رائحة الغدر، نظر عجوة جلد اللبوة، وصرع الأسد بضربة شاكوش عن رأسه، ثم أدركه بالسكين بعد أن سقى عليه. وعاد عجوة إلى القبيلة بالمهر الغالي، رأس الأسد، فأقيمت الأفراح والليالي الملاح، سبعة أيام بلياليها، وفي الليلة الأخيرة، وقيل الدخول ببنت الزعيم، حقن حكيم القبيلة خصيتي عجوة، ببوصة رفيعة، تحمل دماء ضيع فتى؛ ضماناً للخصوبة، مما تسبب في فحولة غير محكومة، لفصالة جسد سيد أمام قوة الجرعة التي تناسب جسداً كبيراً، فحولة لم تتحمل شدتها زوجته الإفريقية، وقبل مرور شهرين، وبعد أن أصابتها النسلخات وكسر بالحوض، بدأت في اختيار زينة فتيات القبيلة لتسد جوع عجوة، بدأت بصديقاتها، ثم قريباتها، إلى أن نفذت الفتيات، فوطأ عجوة الأمهات والصبيات، وكاد براود الماعز والغزلان، حتى قامت ثورة على زعيم القبيلة من رجال القبيلة، انتهت بمقتله وسلخ فروة رأس زوجته، ليهرب سيد عجوة في النبل على ظهر طوف خشبي، مُجتازاً المستنقعات والشلالات، مُصارعاً التماسيح، حتى وصل إلى القاهرة، يحمل تحت إبطه مرويّات، أسالت لعاب نساء الحي، طلّت الشعور من المشربيات ثم حامت الملاءات اللف حول الدكان، يراقبن ويتربصن، ويتمحكن في دماء الضيع التي تجري في عروق عجوة، عملاً بالمثل القائل: «قرن شطة ولا قدان آته»!

وانتهى شيخ الحارة من روايته ثم بصق على الأرض في هيق فاستأذنته في الرحيل.

الزّن على الودان أمر من السُّحر، وعزيزة مُصابة بالمناخوليا، شهوتها متدفقة مثل أرنية ولود. هل استهواها القزم؟ صعد إلى سطحها وركل دجاجاتها؟ دماء الضيع قد تفعل أكثر من ذلك، ثمانية أشهر وستظهر أمارات الخيانة يا عزيزة، ثمانية أشهر وسُكُزقين بصالح، أو طالح، وحينها، سأخرجك من جنتي مذمومة مدحورة، ولن تنالي خلاصاً أو غفراناً، حتى وإن دُفنت معي مثل أرامل الهندوسيات بعد وفاة أزواجهن على طريقة «الساقي».

«واللي يتف نفّة، ما يلحمهاش».

بعد أيام، تلقيت رسالة باللوكاندة، طلب حضور عاجل لالتقاط فوتوغراف لحرمة الخواجة «فرانكو

جابريل» التي توفيت اليوم، وعنوانًا كنت في غنى عنه، من ذا الذي لا يعلم بيت «فرانكو جابريل» أكبر تاجر سلاح في المحروسة، وأرملته ذات النفوذ همت إسحاق؟!

رغم المزاج المتدني لم أعود رفض الرزق منذ وعيت على الدنيا، حتى وإن نفحتني أرملة عصمت باشا خمسة جُنيهاً، رطل اللحم أصبح بخمسة قروش. كما أن قفة الهواجر امتلأت وفاضت، وأردت أن أريح كاهلي من ثقلها لبعض الوقت، انتظاري لضربات المجهين دون خطة متزنة أو رد فعل، يملؤني بالضعف والانزمام، بالإضافة لحيانة عزيزة القاتلة، أراها في أحلامي كل يوم، تُرضع رضيعاً من ثديي، وبالثدي الآخر يتعلق سيد عجوة.

نوضأت وصليت، سقيت لبلاي ورددت سورة يس، ثم وضعت الطعام لعنتر؛ الناسك الذي لم يخرج من تأملاته بعد، كان يستند الجدار، يضم أرجله الست على بعضها البعض في توازن عجيب، ويُغمغم بكلمات مُبهمة لم أفقه منها سوى كلمة «اقتربت الساعة»، ويرعش بجناحيه كل بضع ثواني.

أغلقت عليه بابه بعد تنظيف مُخلفاته، وحين فتحت باب الغرفة وجدت بانتظاري قطعة سوداء فاحمة، إلا من بقعة بيضاء ناصعة في ساقها، عيناها زرقاوان عجيبتان، لم تتحرك حين هسستها، فوضعت لها بعض اللبن في طبق، رمقني طويلاً ثم شربت، فحملت الكاميرا واتجهت إلى العنوان، مُلتماً بشالي يُخفي الملامح، مُستظلاً من نور القمر وساكنه شمسي، مُستريحاً في كل من اقترب مني، لم أعد أثق في الحمار الذي أركبه، أكاد أشك في شكّي، وأهش جرادات الظنون عن أدنى مُردفاً آيات سورة الفلق، داعياً عن عزيزة وعجوة، مُطمئناً نفسي بأنني مُعفى من القتل - مؤثماً - حتى تنتهي القائمة، ما زال أمامي خمسة أسود خشبية، عذ تنازلي المعركة أخيرة مع هجين القمر.

حين وصلت إلى حي الدرب الأحمر سألت عن بيت «فرانكو»؛ دار فخمة مُزينة شبايبكها بأحواض البنفسج والقرنفل، تقع على ناصية سكة سوق السلاح. دخلت تحت تكعيبية عنب، واستقبلتني عند الباب ابنة مكلومة في الأربعين، ملامح أوروبية شقراء، ولسان مصري، فادتني للداخل بين جدران عليها سيوف وبنادق وغدارات تكفي لغزو النمسا، بالإضافة إلى لوحة مرسومة، رجل يرتدي الزي الشعبي للبندقية، وتخفي عينه اليسرى عصابة قرمزية، وأسفل البرواز تاريخ وفاة يعود لعشرين سنة مضت، لم أجتهد لأعلم أنه أبوها فرانكو جابريل.

أثناء تجهيزي لسائل الكولوديون بحمّام البيت، وكما اعتدت، مارست الثروة مع جارية البيت التي أكدت حكاية، لطالما خالطتها الإضافات الشعبية. فرانكو جابريل؛ صاحب البيت، كان شاعراً مغموراً من مدينة البندقية، وتاجراً للساعات، قدم إلى القاهرة سنة ١٨١٤ ميلادي؛ طلباً للرزق، فتعرف على الحرمة «همت إسحاق»؛ سيدة مصرية شديدة الثراء، لا أحد يعلم مصدر ثروتها، هامت به فتزوجته وأكرمته وكسّته الحرير والموسلين، ثم أفتعته بترك تجارة الساعات الفاترة والعمل في تجارة السلاح معها.

فرانكو كان رقيقاً حاملاً، عجيبة طرية بين يدي همت إسحاق التي جعلت اسمه في بضع سنوات مُرادفاً لأكثر مستورد للسلاح في المحروسة، بل وتوسعت ورشته وتعهدت بتوريد الغدارات والطبنجات المُرصعة للمخاض من رجال القلعة والأمراء، أذكر أن داغر بك كان يحمل غدارة من صُنع تلك الورشة. فرانكو لم يُجد التصويب يوماً، ولم يكن ماهراً في التفريق بين أنواع السلاح، فزوجته هي من كانت تُدير التجارة، تقابل التجار وتُعقد الصفقات، حتى صافته الأقدار في يوم أغبر إلى مُبارزة شرف مع نبيل نمساوي أهان أهل

البندقية، وعاير فرانكو بأنه يعيش من أموال زوجته وخبرتها المشبوهة، فما كان من فرانكو إلا أن صفع وجه النمساوي بمنديله، إشارة لمبارزة تحل، دون أن يُعلم زوجته التي لم تكن لتوافق، أراد أن يفاجئها بصلابة لم تعرفها فيه منذ تزوجا.

وتقابل الخصمان، قرب النيل فجراً، أوليا وجهيهما شطر الشرق والغرب، ثلثت عليهما شروط مبارزة الشرف، ابتعدا عشرين خطوة، وانطلقت رصاصتان، اخترقت الغشيمة كومة رمال خلف النيل النمساوي، واخترقت الخبيثة محجر عين فرانكو الأيسر، فسقط مثل الشجرة. ألقي عليه خصمه النمساوي نظرة ازدراء وتشفٍّ ثم رحل، وبعد دقائق من سكون الموت، تلمل فرانكو، ثم جلس، بثقب غائر في محجره، يتألم كمن أصيب بشوكة في قدمه، ويتكلم في سرعة وعصبية. ظن الحاضرون أنها سكرات الموت، وأنه سيُسلم الروح قبل وصوله الاستتالية، ولكن الجراح أخرج الرصاصة من رأسه والذهول يتملكه، بعدما استأصل جزءاً من نصح الأيسر وأغلق المحجر بفيتل من القطن.

شفي جرح فرانكو في بضعة شهور، علّق الرصاصة في سلسلة ب صدره، وأغلق عينه بعصابة من الجلود المصبوغ، بل وتصالح مع النيل النمساوي الذي أراد قتله يوماً، وشرباً أنخاب النبيذ، لكن فرانكو لم يعد فرانكو، الإصابة سببت له نوبات مُكررة من الحكى والرغى، لا يمل من قص حكاية الرصاصة التي اخترقت جمجمته ولم تنجح في قتله، ثم تباغته نوبات من الجنون، يصير حاد الطباع، سليلط اللسان في المزاج، يسب ويلعن حتى طيور السماء، لم يعد الشاعر الرفيق الذي جاء القاهرة مسحوراً بجمال الطقس منذ سنين، بات مهتاجاً عابثاً يشتري الجوّاري البيض والسود دون حساب، ويزرع فضائحه أينما حل، يُجرس سمعة فابريقتة وأهل بيته، ويذر الأموال بلا رادع، ووصل به الأمر أن تطاول بعد مشادة وصفع زوجته على وجهها أمام الخدم حين واجهته بأفاعيله.

بعد شهر، وفي يوم عاصف لم تر القاهرة مثله، خرج فرانكو ولم يعد، اختفى أثره كمن لم يطر المحروسة يوماً، لتُحاصر الشائعات حرمة، قالوا إنها أنهت حياته درعاً للعار، وقالوا إنها كانت عشيقة للنيل النمساوي الذي فقأ عينه، وقالوا إنه هرب مع جارية شركسية لإيطاليا، وها هي المسكينة الآن ترقد على الفراش، جثماً بلا حياة، دافنة سرها في قلب فقد الحياة، وبجانبتها ابتها، تصنع لها صورة الموتى لتُخلد آخر هيئة لها بعدما سخرت من اختراع الفوتوغراف منذ ظهر.

في الحجرة، كان جسد الحُرمة العجوز مُمدداً على السرير، قسما صارمة، شعر أبيض لم تُجاره الصبغات، وبروز ذقن يدل على قوة شخصية وتحمل مسئولية، كانت ترتدي فستاناً أخضر مُطرزاً، وعقدًا من اللؤلؤ لم يخف جرحاً عتيقاً أغلقته العُز في الرقبة. ساعدت الابنة في رفع الجسد برفق، ووضعت المخدة من ورائه، فتحت العينين بالصمغ، وضبطت الإطار استعداداً لالتقاط الفوتوغراف، حين لاحظت في الجبهة، أسفل الشعر المُندل، جرحاً طازجاً لم يتلون، جرحاً غير حيوي، حدث بعد الموت، ثم التقطت أذناي صوت زئير بعيداً، التفت سريعاً فلمحت؛ أمداً خشبياً أسود يرقد فوق المنضدة، يترصد فريسة، ويرمقني في ثبات. تبيست، ثم تأملت الحُرمة الراقدة في وداعة وقلت في يري: «صيدي، لا أحد يعلم أنك قد قُلت، لا أحد يُدرك أنك ضحية الهجين الثالثة»، تحججت بعطب في لوح الكولوديون، وشغلت الخادمة بغني دلو ماء كبيرة على نار هادئة. مسحت بعيني وجه الحُرمة، بياض العينين، الأظافر والشعر، كل شيء يُوحى بوفاة طبيعية، ثم سألت الابنة عن اللحظات الأخيرة متصنفاً التعاطف، فهمست بحنجرة حرقها البكاء: «أمي كانت في

كامل صحتها، تناولت إفطارها ودخنت سيجارها، وارتدت ذلك الفستان دون سبب، ثم تزيّنت على غير عادتها، قبل أن تستلقي على السرير كما تراها الآن. مبروكة، وكأنها أدركت النهاية وأرادت أن يكون الوداع في أبي صوره».

فحصت الأصابع فلاحظت الأهلة البيضاء أسفل الأظافر واضحة جلية، القلب كان سليماً يضخ الدم للأطراف حتى آخر لحظة! تلك الحرمة لم تمت بسكتة القلب، وتلك الابنة لم تكن لتفادر الحجرة، فهي من النوع الوفي المخلص الذي يلتصق بأمه ويكي فوق يدها وتسيل برابيره حتى تتحلل الجثة.

وكان عني الكذب، من شدة الصدق، فتحت حقيبتى الجلدية، استخرجت قنبلة تحوي زيت «السكران» المركز المخلوط بخلاصة الداتورا، مزيج الأمزجة، غمست منديني في القنبلة، ثم ناولته للابنة: «امسحي وجهك وامتنشي. عطر مُهدئ للأعصاب»، ومثلما توقعتم، استنشقت برية ثم وضعته جانباً في استغناء، وكان ذلك كافياً، فزيت السكران لا يفادر الأنامل، تارجح رأسها، سفينة انتحر قبطانها، نظرت إليّ طويلاً، ارتحى جفناها لإراديّاً، ثم سقطت عن يد أمها كشوال فحم، أغلقت الباب وأزاحتها برفق، ثم اقتربت من جثمان الحرمة «ممت إسحاق، استأذنتها، مُردداً في حياء، أن لا حياء في العلم، ثم فككت أزرار الفستان الأخضر بحرص: «جسدك يا سيدي، خالٍ من الجروح، خالٍ من السحجات والكدمات، خالٍ من الأنوثة، عجوز زاهدة ويابسة. أخرجت مشرطى وشققت الجلد فوق وريد بارز فانسالت الدماء بكسل، لوزجة لا يُشجعها نبض، وردية باهتة، تلك علامة لا تُغفل، اقتربت من النعم لأتأكد من ظنوني، فرجت الشفتين اليابستين فانبعثت رائحة اللوز المميزة، مخلوطة بكيمياء أخرى لم أدركها ساعته، تماسكي، لا يا ست الكل، لن أخطب ابتك الوفيّة، ولا تحرك العجايز شهوة سليمان السيوفي يا حرمة فاعندلي، إنها علامة التسمم بالسيانيد، تسارع قلبك بغثة حتى ظننته سيهرب من صدرك، ثم تشنجت رثائك وتوقفنا عن التنفس دون استئذان، فارتك الحياة قبل أن تفهمي ما حدث، فسقطت في شلال الموت مثل جذع مقطوع، وأراهنك، فأداة قتلك ما زالت في الحجرة، السيانيد هو أسرع سموم البسيطة، ما كان ليُمهلك الوقت حتى تعثري عليه فتخلصي منه، أو تنادي حكيمًا يُسعفك».

انتهيت على عجل فضممت الفستان واتجهت للمنضدة، فحصت رأس الأسد بمنديل واشممت رائحته، لا أثر للسيانيد على سطحه، لكن المنضدة لم تحذلي، العملة الذهبية من فئة العشرة قروش، غفورة بتاريخ سك «١٢٢٣ هـ»، ترقد فيها بوداعة، ومقبض النافذة الخارجي، كان مكسوراً، بالإضافة لأثر غائر في نسيج السجادة، أثر لقدم كبيرة في حذاء جلدي عليه نقش جنوبي، لقد اقتحم الهجين الحجرة ولم يكتب بإرسال هديته من السم الزعاف. استكملت للفحص رصدت سيجاراً يرقد على الأرض بجانب السرير، التفتته بالماسك حذراً، لم يصل لمنتصفه، تفوح منه رائحة اللوز، عرق السيانيد، دسمته مع العملة في حقيبتى، ثم أبقت الابنة بنصف بصلة أثارت رثيها، وقبل أن تترن سألتها: «من أين أتى ذلك التمثال؟»، مقاومة للغشاوة ترنحت وأخبرتني، أن التمثال أتى بصحبة مرسال عريض الكتفين، وقبل أن تُنهي جملتها أتممتها: «في جبهته آثار حرق»، فعقدت حاجبيها: «كيف عرفت؟»، أجبتها بسؤال: «لم طلبت التقاط صورة للفقيدة؟»، قامت، والتقطت ورقة من درج بالمنضدة: «لم تكن رغبتى، لقد كانت وصيتها الأخيرة، وكأنها كانت تعلم الغيب، فالعمار بينها وبين المسيح لم يتقطع، ورغم أنها صخرت من الفوتوغراف طوال حياتها، ورغم أنها كانت تدعو بمهنة من يجهل أصول الرسم، إلا أنها كتبت ورقة صغيرة قبل وفاتها بدقائق،

وجدتها بين أصابعها»، وتناولتني الورقة: «إليك وصيتي، لا تحركيني قبل أن تلتقطي الجثمان فوتوغرافاً
أفرونكياً في موضع موتي، بفستاني الأخضر وعقد اللؤلؤ، صورة من يد سليمان السيوفي القاطن بنمرة عشرة
لوكاندة بير الوطاويط، لتذكري أملك إلى الأبد».

الهجين يُداعبني، فط يلاعب فأراً قبل أكله، يريد ليحكم سيطرته على الأحداث ليسخر مني، يستدعيني
لألتقط فوتوغرافاً لآخر أعماله الفنية، بعيداً عن أنف داغر بك، أرسل أسده الخشبي، روع الحرمة همت
إسحاق، وأهداها سيجاراً محقوناً بالسيانيد، تبخر مع النار في رثيها، كتم أنفاسها وأوقف نبضها فسقطت،
ثم تسلل للحجرة في خطوة مُبهمة لا أفهمها، كسر النافذة ووقف أمام ضحيته، ربما ليطمئن أنها قد تجرعت
السم؟ أو ليجهز عليها إن كان بها بقايا حياة، ولكن، لم تحن عن أسلوبه الأثير في القتل الجائر؟ لم تنازل عن
السفك والتنكيل والتمثيل كما اعتاد أن يفعل؟ ربما لأنها حُرمة ولها حُرمة؟! أو ربما لرغبته في إخفاء الجريمة
عن القواصة؟ لماذا استدعاني إذن؟

ولم تتأخر الإجابات.

فبدون إنذار، بدون تنويه أو إخطار، انفجر تجسد همت إسحاق انفجاراً صاخباً، شطر نصف الجثمان
العلوي لحماً وهسلوعاً ودماء، تناثرت على الأثاث والجدران، وتدحرج الرأس على السجادة بعدما اصطدم
بالنخفة، وسقطنا أنا وابنتها، على الأرض.

صمم، نار صغيرة اشتعلت بالمخدة نجحت في إطفائها، رائحة شواء وصريخ متواصل أجبرني أن أصنع
الابنة المكشوفة على وجهها حتى تهدأ، اقتربت من الحرمة، أو ما تبقى منها، ألقيت نظرة بين الضلوع،
وعاتب نفسي لإغفال الكيمياء الأخرى المتبعثة من فمها بجانب رائحة اللوز، وتجمعت الصورة أخيراً في
مخيلتي.

«سيدة همت إسحاق، لدي قصة قد تلتق منامك ليلاً، أجمدي، الهجين حنن السيانيد في السيجار - الذي
كان يعلم أنه مزاجك الأثير - لأنه راقبك، استنشقت السم مع دخان التبغ، تسلل إلى رثيك دافئاً ناعماً
فأقنعها باعتزال التنفس، وغار قلبك فأتبع، وتهاويت يا مسكينة بجانب المنضدة، مُحدثة في جبهتك كدمة لم
تجد الوقت لتتورم أو تتلون، واقترب الهجين من النافذة بعد سقوطك، زاحفاً أو طائراً، كسر المقبض
واقترحم، حملك فوضعك على السرير، البسك فستانك وزينك بالعقد، هياك لالتقاط الفوتوغراف، ووارى
الكدمة خلف خصلة من شعرك، ثم فتح فمك وغرم فمها يصل إلى نصف حلقك، صب سائل
النيتروجلسرين بقدر فنجان شاي العصاري، بدون نعناع، وبحرص يُجسد عليه، فالنيتروجلسرين سائل
شديد الحساسية للصدمات والارتجاج، ملأ معدتك حتى شبع، ثم ترك الوصية بين أصابعك، وصية
كفيلة بعدم تحريكك قبل أن أزورك، وخرج مثلما دخل. لم يُرد الهجين أن ينشطر جثمانك أثناء تحريك
جسدك، فذر بدقة أن النيتروجلسرين سيتفاعل مع ارتفاع حرارة المعدة الناتجة عن التفسخ فينفجر، بعد أن
أزور الحجرة وأقرأ علامات وصوله وألتقط لك صورة.

سماحيني يا صيدتي، ما كنت لأفلق راحتك بشرقي العلمية، فأنا أقدر الظروف، وأنفهم أن رأسك للتو طار
واصطدم بنخفة، وبقينا أصابعك صلداع عنيف، أنصحك بإغماض عينيك وكرب الماء الفاتر حتى يزول».

صوت انفجار الحرمة أفرع الجيران، استدعى حي سوق السلاح بأكمله، ازدحموا خارج أسوار السراية

مثل الفئران، قبل أن يصل أول القواصة، حبسني في البيت واستدعى رئيسه، الأرناؤوطي بوراك، دلف ببشرة زرقاء باهتة، نثر الغرور أمامه، رماني بالازدراء والتعالي، برم شاربه وهو يستمع لأقوال الابنة المكلمة في شك واشتمزاز، ثم طلب مني إفادة لسبب وجودي، فناولته رسالة الهجين، قرأها قبل أن يضعها في جيبه، ويدخل الحجر، غاب ساعة، ثم خرج فأمسك بتلابيبي: «لن تنطني عني حيلك يا سليمان يا سيوفي، تظهر مع كل مصيبة كفئران السفن، تمارس ألعاميك لتتقرب وتتودد لرجل أفندينا، حتى إنك لم تتورع عن دس البارود في جسد حرمة مسكينة ماتت في وداعة، لتؤحي بوجود نية في القتل»، «إحم إحم.. نيترو جلسرين»، أصاححت له المعلومة، ثم حكيت الواقعة من بين ضرومي، فما كان من الغشيم إلا أن أخرج المنديل المغموس في زيت السكران والذاتورا: «لقد خذرت بنت الحرمة يا خبيث يا معدوم الضمير، ولما غابت عن الوعي، رششت البارود وأشعلته لتؤحي بوجود جريمة، هل لك أن تخبرني لم يحمل رسام متجول في حقيبتة الجلدية مبضع الحكماء ومنشارًا وأكياسًا؟ لم يحمل زيت السكران والذاتورا؟»، «مُصور ولست رسامًا متجولًا»، أصاححت له المهنة، رفضت الإجابة عن الأسئلة، وطلبت استدعاء داغر بك، فما كان من الأرناؤوطي إلا أن جرجرنني تحريشًا ووضعني مكبلًا فوق حمار، أحاطني زبانيته، وساروا بي حتى فراقول الرميلة، وضعوني في زنزانة عفنة مزدحمة بالقتلة والأشقياء، نشبت ملاسبي ببخر أنفاس كريهة وعرق وبول، مضغني البق والبراغيث، واضطورت - كي أجد موضعًا لجسدي - أن أستمع نصف الليل، إلى مروييات «عزوز البيومي»، بلطجي فئسار في حجم ثور بلا قرون، تنساقط منه الأكاذيب بغشم يحجل منه إبليس ويتواري، جلس في ركن، واجتر من ذاكرته عشرين بطولة من بطولاته، دمر خلالها مقاهي القاهرة، اقتحم سرايات باشواتها، وأجبر أمراء بشنابات أن يناموا في بيوتهم من المغرب، ولم أنبته حتى سأله أحدهم بخبث: «في أي مهمة سجنوك يا معلم عزوز؟ انتكس الأخير للحظات لكنه غمالك نفسه، سب سبته، وبصق نخامته على ساق أحدهم، ثم أقاد بضيق أن القواصة عديمي الضمير قبضوا عليه - والكثرة تغلب الشجاعة - لأنه اقتحم بنبوته ورشة نجار «قزم» يُدعى سيد عجوة - تنبته كقط النقط صرير فأر - بعدما حكمت له فتاة هوى قصة رحلة ذلك القزم لإفريقيا، ودم الضباع الفريد الذي يجري في أورده، ووقعه الحارق على قلوب العذارى الهبل ناقصات العقل. فما كان من عزوز وبنخوة رجولة إلا أن قرر اقتحام دكان عجوة ليحطم كبرياءه وينكل به، ثم يكشف عن أيره ويفضحه وسط أهل الحي، فيُحوّله من أسطورة، إلى خرافة وعبرة تتحاكى بها النسوة. وتصدى القزم لعزوز، وجد فيه الأخير عزماً لم يجده في الرجال الطوال، وقبل أن يُكمل عزوز قصته، ارتفع في الظلام صوت بانس يقول: «وما سبب إصابة رأسك يا معلم؟»، فأجاب عزوز، بأن خصمه كان أخف حركة، وأعلم بحدود دكانه - زي القرد - ورغم أنه حمله بسهولة وألقاه في عرض الشارع، إلا أن الصغير الخبيث قذف عزوز بطوبة أخلت بتوازنه فهوى - حظ عوالم - ثم قفز فوقه وخطب رأسه بالشاكوش عدة مرات فأفقدته الوعي، مثلما هزم داود جالوت - عزوز لم يقل ذلك بالطبع - لكنه عقب في أسى: «لولا الشاكوش لقضيت على القزم، بشرقي، لأخصيه لما أخرج، ده إذا لقيت حاجة، ههههههه»، ولم تكتمل فرحة عزوز البيومي، فقد سأله نفس الصوت البانس ثانية: «من الأطول عضواً؟ أنت أم هو يا معلم؟»، فما كان من عزوز إلا أن قام فخلع بنطلونه وقفز على السائل يريد أن يضاحكه، حتى فرّق الأشقياء بينهما، وأدركت ساعتهما أن عجوة غريمي ليس بالخصم الهين، وأن عزوز لن يُجيب على السؤال حول عضو القزم أبدًا، لأنه قام بالقياس بالفعل.

ذلك القزم أرسل للتو بلطجياً في حجم الجدار، للمسجن، ضربه بشاكوش على رأسه وأهانته وسط أتباعه،

ماذا قد يفعل بي إن تصديت له يوماً وقررت الانتقام، بسبب تلقيم وتلقيح أم صالح بدماء الضبع؟
أنت في اختبار صعب يا أم صالح.

في منتصف الليل سكنت الزنزانة بعد صخب، وتعالى شخير الأشقياء، نبيق لا يقدر عليه الحمير، وضعت أطراف منديلي في أذني، حتى لا تتسرب الأفاعي مني إلى أرض الزنزانة، وبدأ ذهني بصعوبة في استجلاء الأحداث واستخلاص الحقيقة من بين الزيف والتشيت، ثم ترتيبها على نحو يكمل الصورة المهترئة، وقد دوّنت كل خاطرة بطرف فلم كويبة على رمقي حتى لا أنسى:

ذلك المهجين لا ينبغي قتلاً قدر ما ينبغي استعراضاً لقدراته على الافتراض، ولا معنى للتكبير والتشيل بالضحايا إلا لإزالة الرعب في قلوب الأسماء التالية في قائمته المزعومة. هناك صلة بين القتل، الثراء، الاتصال بالقصر، كل على طريقته، ولا أرجح ضلوعهم في مؤامرة ضد أفندينا؛ فهم في نهاية العمر، يخاف مؤسسة مطيعة لا تبتغي إلا السكينة بين أرجل العرش. هل يتم التخلص منهم حتى لا يُنصحو عن أسرار يكتُمونها؟ ذلك ينتهي مع طريقة القتل الفاضحة، وربما هم عقبة أمام المهجين الذي يريد الوصول للحكم، سبع ضحايا، سبع عقبات، كصعود سبع سلاوات لمقابلة الحى الذي لا يموت، نعم، فرقم سبعة مقدس في الديانات القديمة.

أعتقد أن قتل ثلاثة حتى الآن كفيلاً يثبت الفرع في الباقين، سيكلمون، سيستغيثون ويصرخون بهلع، حتى ينجوا بحياتهم؛ فاهجين لم توقفه الحروب أو المجاعات، ولم يصمد أمامه عرش ملك أو إمبراطور، سيزحف عن كل من يشتهي فيتخلله ويخرقه ويرنديه ليعيش بداخله، الوقت يضيق، والقائمة تتناقص، دوري في الصف يقترب، وساعة الرمل في رسغ زاحف كافر، والأفاعي في جسدي تتكاثر وتتوحش، يا لها من نهاية مُفجعة لتاريخ سليمان السيوفي!

بعد ساعات تُودي اسمي، أخرج عني رسول من لدى داغر بك، رغم أنف بوراك الأرنأووطي، خرجت أمامه مُتبخترًا، وكأن الليلة فرح أمي، ركبت عربة مُغلقة، صعدنا من ميدان الرميّة إلى سراية القلعة في صمت، دلفنا من البوابة المذهبة إلى رواق ثم دهلز، فحُتم فيه ماء دافئ، ساعدني خادم على الاستحمام، ولما خرجت كانت بانتظارني ملابس تناسب مُقاسي، ارتديتها ثم اتجهت إلى مبنو الورك. كان يجلس في غرفة واسعة خلف مكتب فخم مخفور بالنقوش. جلست أمامه في صمت متأملًا العبد الأسود الذي يقف بالباب، بدا كمسرور السياف في جموده وثباته، ولاحظت بعد مراقبة أنه لا يرمش. لما انتهى داغر من قراءة الأوراق خلع المونوكل ورمقني بغضب مكبوت: «كيف سؤلت لك نفسك تخدير ابنة فرانكو؟»، فأجبت: «لم يكن باليد حيلة، كان عليّ فحص الجثمان، الحرمه همت إسحاق هي الضحية الثالثة»، ضربت الدهشة ملامحه، وأدركت في لحظة أن الشرود الذي علا وجهه، وراءه خيوط عنكبوت تتكوّن وتتواصل بين أسماء الضحايا، ترصد نمطًا متكررًا. صبيت في أذنيه تفاصيل ما حدث في بيت الحرمه همت، وما قبله من أحداث، لم يقاطعني، رمقني بصمت حتى بدأت أحصي النتائج وأرتبها من أجله: «سيدني، كل الضحايا متصلون بالقصر، وربما بأفندينا نفسه: عزت باشا مدير خزانة الوالي، عصمت باشا رئيس طائفة التجار، والآن الحرمه همت إسحاق، صاحبة فابريكة السلاح الأشهر في بر المحروسة، ومستولة توريد السلاح الخصوصي بأرباب القصور والأمراء، الثلاثة من المقربين والمُرضي عنهم، من هم الأربعة الباقون؟ ولم لم يتم نشر أخبار تلك الحوادث؟ أكاد أجزم أنك تتوقع الاغتيال التالي».

بدأت كلماتي الأخيرة اتهامًا صريحًا واريته بالنظر إلى السقف، ومقني المبتور ثم قام فدار حول مكتبه، أشعل غليونه، وتطلع من النافذة للحظات طالت، قبل أن يلتفت: «لقد أخطأت بتكليفك لك إنفاذ تلك المهمة، لا أراك إلا أرفع عن تخليق الخرافات والحكايات لتحلل الريالات التي تتلقاها، إني أعفيك من المضي في البحث». لم أتمالك نفسي، ركبني شيطان الغضب، غير عابئ بالمثل القائل: «ارْقُصْ للقرود في دولته»، وقفت وتطأير لعابي على لحيّتي: «لقد هاجمني المهجين، كسر ضلعي، وأمر لي بأنه وضعني على قائمة القتل، والآن تريدني أن أتخلى عن البحث؟ تطلب مني أن أصير ضحية المهجين التالية، لعلك تُخفي أمرًا لا تريدني أن أعلمه»، رفع حاجبه: «عن أي هجين تتحدث أيها المعتوه؟»، «هجين القمر»، اقترب المبتور مني، سحب مقبض عكازه فانفصل، شاهراً نصلًا حادًا مشقوق الحافة، وضعه على رقبتي بعد دفعي إلى الحائط: «هجين القمر؟ كان يجب أن أصدق رئيس القواصة منذ البداية، ما أنت إلا مجذوب من مجاذيب الصوفية، ضرب الجنون رأسك، لا تنفك تبني من الخرافات قصورًا. ارحل، نورًا، ونحن من الله في كل صلاة ألا المحك مصادفة».

قالها وأشار إلى مسرور السياف فانقض عني، جذبني خارج الغرفة بأصابع حديدية، مسح بجسدي بلاط القصر ثم ألقاني خارج البوابة.

في طريقني للوكاندة تعثرت خطواتي، بحثت في السماء عن قمر يترصد خلف السحب المتأمرة، ذلك الكائن الذي تغزل فيه القدماء وهم لا يعلمون أنه ير شقاء أهل الأرض، أتماشى المارة كما يتحاشى المجزومون، لا يساورني الشك أن المهجين يُراقبني من ركن مُظلم في كل خطوة، يتحين فرصة الانقضاض، ليفرغ لحمي ويحشو جلدي بأطرافه، بعدما كفر بي مبتور الورك، طردني من جنته لألقى مصيري، وحيثًا وقد لطمختني لعنة أزلية من زاحف معدوم الضمير والحراشف.

وصلت إلى بيتي بأعجوبة، أغلقت أبوابي، نوافذي، وفتحات جسمي الثماني، وتكوّعت في ركن تحت بطانية ثقيلة بعدما دهنت بالمراهم الحامية جلدي، وفرشت فروع اللبلاب على صدري، مُجترًا مرارة الخيانة، مداويًا طعنات الغدر بصبر الأنبياء على الابتلاءات، مُقاومًا أرقًا عنيدًا كافرًا ينوي المكوث إلى يوم القيامة، لم تفلح معه عُشبة يوحنا، حولتني إلى ذنب مُستنفر متأهب متيقظ بعد التهام شجرة فهوة، جفت جفوني وتقيحت، لثلاثة أيام متواصلة، لم تُراودني خلالها إلا فكرة واحدة: الهرب خارج القُطر، خارج الأرض، حتى داهمتني رؤيا في غفلة سريعة لم تتخط ثواني، رأيت فيها مركبًا ذات شراع، تقودها جارية سوداء لم أر وجهها، ورياحًا تحملني جنوبًا للسودان أو الحبشة، أرض لن يطاردني فيها المهجين، مستنقعات وأحراش تحميني أشجارها الباسقة من نور القمر، قد أجد علاجًا قبلي للأفاعي السوداء التي تمرح في أوردتي، أو يهرسني فيل ليريجني من الشقاء، وربما أنال حقنة مُعبأة بدماء الضباع، تُخلد اسمي في قلوب النساء وأحشائهن.

لذا توكلت على الله، واستبشرت حين رسم اللبلاب كلمة «فِر»، رَصَصت حقيقتي بما خفّ حمله من غرقي، لم أنس الكاميرا، لم أنس مراهم الوقاية من نور القمر، ولم أنس رسائي، سيرتي الذاتية وتاريخ مسيرتي في رصد رحلة الزاحف وقصة هروبه من الكوكب الأحمر، ثم استقراره في باطن الأرض الأجوف وفي أجساد الخلق المغيبين. انتهيت، ثم دخلت غرفة عترة، كان في حالة تأمل، فككت جنزيه ووضعت عليه جلاية زرقاء فضفاضة بعد طي أجنحته، ثم لففت يديه بالشاش ورأسه بشال حتى بدا كالتاجين من حريق، عازمًا على إبداعه تكية الدراويش المكفوفين، فليس فيها من خدم البوابة وحتى الدراويش الأكبر، مُبصر

واحد، هناك سيجد التقدير الذي يناسبه، فهي ملاذ العاصي والجانح، والذباب اللاسع، لا يبخلون على نفس بتلقي النور الإلهي، ولا يكشفون سر أعتى المجرمين إن آتاهم هاربًا، ما دام يطلب العلم والمعرفة الإلهية، سيبتجلونه دون أن تراه الأعين، وميسمعون كلماته وحكمته، فهو ليس زئانًا كما يترأى للبعض، سيُلقي من وراء ستره بحجكم وتعاليم، كفيلة بأن تضعه في مرتبة الأولياء الصالحين، وإذا أسلم الروح بعد عمر طويل، فسيدفنونه في تابوت مكسو بالحرير الأخضر، وبينون فوقه مقامًا يطل على الشارع، فوقه طربوش من الجوخ الأحمر، ويُعلقون على قضبان نافذته، صندوقًا خشبيًا يضع فيه الهائمون دعواتهم وشكواهم.

والقيت إلى عنتر بقرار الرحيل فأبدى سعادته في زيارة تكية المكفوفين، وسباع التواشيح: «ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدي إلى الحياة، وقليلون هم الذين يجدونه»، لكنه عقب: «ولكن ليس اليوم، فلدينا زائر»، لم أفهم كلماته حتى التقطت أذناي قطعة في أخشاب الأرضية تحت وطأة خطوات ثقيلة، خارج الغرفة، ارتعش أنفه وتألقت عيناه فأدركت أن غريبًا في بيتي، أغلقت قفل الجنزير حول قدم عنتر خلصة قبل أن يستوعب، وتجاهلت أزيزه ورفرفة جناحيه حين خرجت من غرفته، حتى لا يشبك المسكين في قتال. جرجرت أوطال الرعب وجنازير الشاؤم، ورفعت المصباح، على الضوء الخافت رصده، كان يقف في الركن المظلم بجانب المنضدة، يفحص حفييتي، رفع غطاءها ونثر ما فيها، يومياتي عن الأرض بجانب قدميه، وصور القتل بين يديه، ودون أن يلتفت، وبلكنة جنوبية لا تُخطئها أذن، قال: «أتعلم أن لك مشية مميزة يا سليمان أفندي؟ تبدو كالمهدد، لا يكاد كعبك يلمسان الأرض. سرت خلفك حتى حتى النحاتين، واصطدمت بك عنوة في زقاق المشاعلية»، قالها ثم أخرج من جيبه عملة ذهبية، ضربها بإبهامه فطارت في الهواء لألتقطها - فأدركت كيف وصلت العملة إلى جيبِي: «لا تنك تنبش وراثي، هل علمت من أنا؟ أم تلزمك جثث إصافية لتدرك؟».

قالها ثم التفت، بلثام يُخفي وجهه، بدا بشريًا أصيلًا إذا استنثيت عينيه اللتين تلمعان كأعين السنوريات، ورائحة غامضة يعجز أنفي أن يفسرها: «أتيت لتقتلني؟»، سألته فأردف: «لكنك فعلتها حين التقينا أول مرة»، سألته عن مغزى تمثال الأسد، وحرصه على زيارة موضع القتل ثانية ليستعيده، فابتسم، أو كذلك قرأت في عينيه، عقب: «الأسد علامة لن يفهمها إلا الجناة المدونة أسماءهم في القائمة، أما الزيارة الثانية، فهي من أجلك، أردت أن أتعرف بالمغفل الذي يسير فوق خطواتي، من يضع قدميه على الأثر ويظن كل الظن أنه امتلك الحقيقة، كان عنيّ مقابلتك وجهًا لوجه، فأنفي لا يغفل رائحة الأغبياء». اقترب خطوة فابتعدت اثنتين: «اغفر لي قصر النظر، وما كنت لأدعي الفطنة في وجود سيد القمر، إنها هو اجتهاد من العبد لله في سبيل معرفتك»، ساد الصمت لحظات فاستشعرت قبول السؤال: «لم أردت أن تبت الرعب في قلوب الضحايا قبل مجيئك؟ لم لم تقتلهم دون إنذار»، طفق فقرات عنقه: «ربما أساعدهم على تقبل القدر المحتوم، أو أزيد تخبطهم وأذيب الدهون في أمعائهم كي يُكفروا عن سيئاتهم، ألم تلاحظ أنهم لم يُجربوا الاستغاثة؟»، «ولاحظت أيضًا أنك تعتمد زرع الألم والتنكيل بأقصى الطرق، لا يراودني الشك في كونك تُريد، رغم اللثام الذي يُخفي وجهك المشوه، أن تُعرف»، لم يبدُ عليه الغضب من ذكر التشوه، ولم يبدُ عليه التأثر، فقط أردف: «القتل فن مُحرم، مثله مثل الرقص والقناء والشعر»، قالها وهو يتأمل برطمان الجنين «معدوم الملامح» قبل أن يدير غطاءه ليفتحه، دس أصابعه في الفورمالين الحافظ وأخرجه، تأمله للحظات، شم رائحته، لحسه استفهامًا، ثم أعاده إلى البرطمان ثانية: «أنت الهجين؟ ساكن القمر الزاحف؟»، نظر إليّ، أفلتت منه ضحكة

ولم يُعقب، كأنها ألقيت كلماتي على حائط بارد، تسالت أصابعي لسكيني استغاثة فبث الشلل في ذراعي بنظرة من عينيه المضيتين، وازداد طوله شبرين، لم أملك سوى إطالة الحوار بينما لعله يُفصح عن خبط أتبعه، أو أبطئ قضاء وقدراً شاء الرب أن يكون تنفيذي عن يديه: «ماذا تريد؟»، ساد الصمت قروناً، ثم أجاب وهو ينظر للفوتوغراف: «صور الموتى»، مطلب شرعي وحق لكل كائن حي في الاحتفاظ بصور لأعماله الفنية. عرضت عليه طباعة نسخة مجانية، «لا أريد نسخاً، أريد للعمامة في البيوت والشوارع والمحال أن يشاهدوا تلك الصور، أريدها أن تُطبع بعرض الصفحة الأولى لجريدة «الوقائع المصرية» في عددها القادم، وأن يكتب تفاصيل الحادث «مكتوبجي» قصر أفندينا بذات نفسه، ويُبدلها بتوقيعه»، ألقاها وكأنه يطلب كوب ماء ورد، فأفلتت مني ضحكة عصبية، لم أكن أعلم أن أهل القصر يملكون حق الدعابة، ثم أدركت خطئي حين قذف برطمان الجنين «معدوم الملامح» تجاهي، ولولا انحراف طفيف لانكسر في وجهي بدلاً من الحائط. أخبرت المهجين أن ما يطلبه هو المستحيل الخامس، فجورنال الوقائع عاد للطباعة منذ شهر واحد فقط، بأمر من القصر، أفرج عنها بعد سنين من المنع والانقطاع طوال عهد أفندينا الأسبق سعيد باشا، عدو الجورنالات والمجلات، كما أنها الجريدة الرسمية للقطر، لسان القصر!

كان لم يسمعي زفر بصوت مسموع، وانبعثت منه روائح عدم الرضا ونفاد الصبر، فعرضت عليه أن يرسل الصور للجورنالات الأوروبية، فمعظمها معارضة مُناوئة كالحریم الثرثرة، تشتتني الحكايات الساخنة والأخبار المثيرة حول حاشية أفندينا. اقترب، حتى لم يعد بيني وبين الحائط من خلفي موضع نملة، سرت القشعريرة من رأسي حتى قدمي، وجلجلت الأفاعي السوداء بداخلي، أجرام كنانس تعلن البشري باقتراب حملة صليبية: «ألم تسأل نفسك كيف يُقتل ثلاثة أشخاص بثلث المكانة، ولا يصدر عن القصر بيان، أو يتسرب للجورنالات والدوريات خبر؟»، سألت ولم أملك إجابة، فقط تمثيت ألا أبلل سروالي في حضرته، جذب كفي وقبض على رسغي، ثم أغمض عينيه وتمتم بكلمات عجيبة: «بحق العمار، وسكان البحار، والأكام والحمامات والأزقة والأسواق، بحق العهد الذي تعاهدتم به على باب الهيكل الكبير، بعلمناش، مهرافس، شعمونش، أجيني يا أحمر، وما هي إلا لحظة، وخرج من وراء ياقته، عقرب أحمر، له زوج مغالب ضخمة، وذئب بنهايته إبرة داكنة، تمشى على رقبته، كتفه ثم عضده فرسخه، وما إن استقر بأرجله الثنائي في كفي المشدودة إلى قبضته، حتى ارتفع الذئب وارتعش، استعدداً للسع راحتي. لم أملك رفاهية الصريخ، ولا القوة الكافية للهروب من أصابع المهجين الغليظة، اقترب، ومن بين ضروسه همس: «لا تتحرك، ولا تصرخ، حتى لا يلسعك، نصبر العقارب قليل، إنه الآن يشتم رانتك، يحفظها، يستطيع أن يستعيدها بمجرد ذكر اسمك، ويستطيع أن يتعقبك، من بلاد الصين، لن يوقفه صار أو طائر، ولن يستسلم حتى يأتبك فيغرس إبرته في إحدى عينيك»، احتمالية القفز من النافذة راودتني عشر مرات في عشر ثوانٍ، ولولا أصابعه التي تشبه الكلابات السرطانية، لفعلتها دون تردد، سكنت للمحطات، تأكد من نفاذ الرعب في كياني ثم أردف: «أبلغ أسيادك تحذيري الأول والأخير، إن لم تُنشر صور الفتى ومن تحتها أساؤهم وألقابهم، مصحوب ببيان وافٍ بالتفاصيل، في صدر جورنال الوقائع المصرية، العدد القادم ليلة السبت، سأستأنف القتل، ولكن تلك المرة ستكون الأضحيات أكثر سمّة، وأثقل وزناً، وستصرخ كالخراف حتى يصل صوتها للمكافر إسماعيل فيتقلقل فوق عرشه، ولا تنس اسمي.. المشاعني، فالنار يخ، لن يُكتب دوني».

تخشب حلقي واحتقنت دماغي، هززت رأسي مؤمناً على ما قال لعله يستدعي العقرب، لكنه استطرد: «إن لم تُنفذ ما أمرتك، إن اخترت الحرب أو تنصّلت، فسيتبعك العقرب الأحمر حتى يحدك، ولو في آخر

الأرض»، قالها ثم غتم بالكلمات الخفية، فتحرك العقرب، اتخذ نفس الطريق حتى توارى وراء يافته، ترك بعدها كفي فسحبته قبل أن يبدل رأيه، ثم مد أصابعه للمصباح الذي أحمله، أدار فتيلته بهدوء فانطفأت الشعلة، ساد الظلام دقيقة كاملة، لم أجرؤ على الحركة، ولم ألتقط صوت رحيله، جمحظت عيناى حتى كادتا تبظان من محجربها بحثاً عن ظل يتحرك، ومرت دقائق طويلة، قبل أن أدس يدي في جيبي وألتقط الولاة، احتكت أحجارها فاشتعلت وللعجب، المهجين كان يقف كما تركته، على بُعد شبر منى، انتفضت، نظرت في عينيه فارتعشت النار وانطفأت، حككت حجر الولاة بهلع حتى استجاب، وفي تلك المرة، لم أجد للمهجين أثراً!

أصابني شلل، وفقدت ساقاي القدرة على حنى فبركت على الأرض، حمار مهزوم ناء بحمله، حتى إننى لم أجرؤ على تتبعه أو مراقبته من النافذة، دعيت الله أن يقتل بشاف في طريق خروجه، أو يلکم أعمدة اللوكاندة حتى تنهار على رأسي فأرتاح، واشتعلت في رأسي حرب أهلية، بين شعب همجى، لا أحد من أفراده يستوعب الحوار الذي دار للتو بينى وبين الزاحف الأعظم، شيطان القمر، مُتجسداً في هيئة رجل مفتول قابل للاشتعال، أعطاني رسالة واضحة، إنذاراً، وكلّفني بتبليغه لقوم فقدوا إيمانهم بي، يُريد أن يُعرف، مثلما أراد الرب أن يُعرف حين خلق الكون وخلق الإنسان.

المهجين لكنته جنوبية، قوته غير محدودة، لا تسري عليه القوانين الأرضية، لا يهزه سلطان العروش، ولا يابه إلا لتنفيذ ما انتوى عليه منذ انفجر كوكبه واعتلى سطح القمر، لن يردعه رادع، سوى نُشر صور الموتى في الجورنال الرسمي، ليثبت الرعب في النفوس، ويكسو بصبغة الهلع من تشرفت أساؤهم بالتدوين في قائمته الدموية، المهجين يُدشن مجده الأرضي في الجورنال الرسمي، يتجنى، طالباً عون العبد لله، عارضاً العفو الشامل عن روجي، رافقاً سداً صخرياً في وجه فيضان الدم قبل وصول الدور في القتل للاسم التالي، الحروب الأهلية في رأسي لا تنتهي عادة بانتصار فئة معينة، فدخان الخسارة يُظلل رأسي، ورثاي تحتلان برائحة الدماء، لا تترك خلية في مكانها، تُبعثرن، تُبدّدن، وتُمارس الأفاعي السوداء بيع السلاح بين أعضائي لتؤجج العداوة والبغضاء.

لم يتشلني من كبوتي إلا صوت خربشات أظافر أمي، قمت منزعجاً واقتربت، أرحت أغصان اللبلاب ووضعت أذني على الجدار، فنادت بصوت خافت: «سليمان.. سليمان»، أجبتها: «نعم يا أم سليمان، أتريدان ماء؟»، فصرخت بخنفيها الشيطاني: «صالح مش ابنك عشان أنت خول يا سليمان»، لعنتها في سري، وضربت الجدار بقبضتي حتى توزمت، ثم التفتت الجنين «معدوم الملامح»، حكيت له حدوداً أمانة الغولة، ثم قبلته ووضعت في برطمان جديد ملأته بالفورمالين، أفرغت بعد ذلك حقيتي ووضعت فوتوغراف القتلى في ملف، وعزمت النية ألا أقضي ليلتي في غرفة باتت محطة من محطات المهجين وعقره الأحمر.

أعلم أن اللجوء لمارستان ورش الجوخ بحي بولاق أمر مشين، لكن المضطر يركب الصّعب، فبعد نوبة أرق تحطّت الثلاثة أيام وانتهت بزيارة المهجين لغرفتي باللوكاندة، يتحول المارستان من ملجأ مُهمل للمجاذيب والمُعذّبين بأمراض الدماغ المزمنة - عافانا الله وعافاكم - إلى جنة من جنان سلاطين العثمانية، حتى وإن اعتبرني الحكماء مريضاً من المرضى، أو محسوماً بالجان، حتى وإن تسلسلت بجانب لمعي سامويل

الذي يدعى الألوهية، أو نمت على ساق خليل كاظم الذي يضاجع القبط، لا بأس باصطناع المناخوليا أحياناً، ولا مانع من حمامات الماء البارد التي تصيب جسمي بالصدمة، التغيير سنة الحياة، وعلى الأقل سأحظى بنومة آمنة وراء باب حديدي يحميني، بعدما انقلبت حياتي رأساً على عقب.

خُضت الشوارع فوق حمار استأجرته، مُراقباً خيالي حين أمر أسفل مصابيح الإضاءة لأتأكد أنني أركب فوق الحمار وحدي، الأشجار تطرح ثمار الزقوم، تهز فروعها البوم لتهوي فوق ظهري، الوطاويط تتنافس لتشخ على رأسي، وتواب الأرض يكرهني. حتى لاحت بوابة المارستان الصدئة، خلعت قبعة الحكمة وتوضأت بمياه الجنون، طلبت اللجوء للمستشفاء برعشة مشلول وصياح كصياح الديكة، مُدعياً رؤيتي لطائر عنقاء عملاق يطير في سماء القاهرة. استقبلني تومرجي ضخمة الجثة، فوق رأسه قفص حديدي يحمله من اعتداءات المرضى، وعلى مريئته إفرازات النزلاء الصغراء، لم تبد عليه الدهشة مما قلت، فأمثاله اعتادوا الشياطين التي تطل من أعين المرضى، فقط سأل عن اسمي، عنواقي، دونها بخط رديء في سجل عتيق، ثم قبض على عضدي بأصابع عملاقة، جرجرتني إلى ساحة تتوسطها شجرة حمير عتيقة أنضت إلى عمر ضيق في نهايته مغسل رطب، جردني من ملابسي دون أن يطلب مساعدتي، وضعني في سروال واسع فوقه قميص فقد أزراره، ثبت الحزام الجلدي حول خصري، وأغلق أصفاده على راسي، ثم وضع طوقاً ضبط النفس الجلدي على رقبتني، وجذبني من سلسلته، مكارري يجرح حماره المطيع، تجاه حلة نحاسية ترفد فوق نار هادئة، رفع الغطاء وغمر الكوز، سحق أنفي بسيابة وإيهام، ثم صب خليط أعشاب النوم المرة في حلقي، لم أتردد في تجرعها، «من قال إنني أملك حق الرفض؟!»، رغم معرفتي بتأثيرها الذي يسلب الإرادة، قبل أن تحدثنني نفسي بأن تلك الأعشاب طعمها مختلف، ربما تكون مسمومة، فبشاف صاحب اللوكاندة ابن هرمة وإيده طابلة، ولن يتورع عن رشوة تومرجي المارستان ليفتلني. وعملكني اليقين فتقيأت في غفلة منه، بعدما دفعني إلى غرفة مزدحمة بثلاثين نزيلًا وأغلق أصفادي على حلقة حديدية بالجدار.

قضيت ليلتي ما بين همس المجاذيب واستراق النظر إلى السحاب الخبيث من وراء قضبان نافذة السقف، مُتمسكاً بأوراد النجاة وكشف البلاء، داعياً على داغر بك مبتور الورك بأن يقضم التمساح وركه الأخرى، ليسير بعصايتين البقية الباقية من حياته، وعزيزة بنت الزانية، متمنياً لها أن تُلقى في نار جهنم بعد أن يغزها الزبانية بالحراش في مؤخرتها التي أعشق، حتى رُفع أذان الفجر، فساد الصمت بين المجاذيب، تيممت، وسجدت دهرًا، مُستحلبًا النوم، حتى توقفت الأرض عن الدوران، وحين رفعت رأسي، لاحت في السماء عنقاء عملاقة، بجناحين مهيئين، رأس نسر، وجسم أسد، وريش في لون الذهب، لم أصدق عيني حين مر الظل العملاق، ولم أتمالك نفسي حين دارت دورة قبل أن تطير تجاهي، تُسدد منقارها المذهب إلى رأسي، وتغفق بصوت أصابي بالطرش، اندفعت نحو النافذة بسرعة هائلة، دفعت القضبان بمخالبها فانهار السقف، لتحط بين المجانين في شموخ، التقت اثنين لشبع جوعهما، ثم دنت مني، تبولت لإرادتي، ثم انتابني خدر عجيب، مسلوب الإرادة عاجزاً عن الاستغاثة وغير مؤهل لرد فعل يُذكر، مدت منقارها وهمست في أذني: «سليمان! مش عاوز تشوف ابنك؟».

تلك لم تكن العنقاء، تلك كانت عزيزة «أم صالح سابقاً» عشيقة الضبع سيد عجوة، تقف أمامي ومن ورائها شمس ناصعة تشوي حدقتي، في غرفة ضيقة لا تمت بصلة للعنبر الذي صُلِّيت فيه الفجر على أجساد المجاذيب. عزيزة كانت تحمل بين يديها لفة، بها طفل، ميزت قدمين صغيرتين فانتعش فؤادي، وضعته في

حجري فتأملته، جسد طفل ورأس ضبع، فتح فمه ليتأهب فلاحاً الأناب، وقبل أن أستوعب، قضم عضدي فاستيقظت.. في البداية لم أستوعب أن تنتمي الركبة التي تضغط على صدغي الأيمن لنهر من الأيسر في الأرضية الحجرية، عظام وجهي تنشرح، تنفتح، ويدي عاجزتان، كفي اليسرى مربوطة بقدمي اليمنى مثل جمل هائج يقاوم الذبح، أتأمل من إبرة غليظ ينسلت من جانب رقبتى بعد حقن صائل حارق لم أختبر ألمه من قبل، دقائق معدودات لم أميز فيها من يهاجمي، حتى بدأ مفعول المهدي يسري، ارتخت أطرافى كمنديل مُبلل ولانّت عظامي، وهنت عزيمتي ويشتت من المقاومة، استلقيت على جانبي وبدأت في استيعاب من حولي، التومرجي ذو القفص الحديدي وتوأم له يشبهه، الحكيمباشي ماسون، ومن ورائهم عزيزة في زي الممرضات الأبيض، تنظر إليّ بلامح قلقة مشفقة، كأني شيخ المجذوبين. علمت من الحكيمباشي بعد دقائق أني حين أتيت المارستان ليلاً، وتقيأت الأعشاب المهذبة، بدأت نوبة هلوسة لن أدون منها - حياة - إلا الصريخ بصوت عالٍ، الشب بأقذع الألفاظ، تجريسي لسيرة سيد عجوة والنداء على عنقاء تطير في سماء العنبر، وانتهت الفقرة بخلع سروالي وإخراج أيري في تباؤ، والتبول على جيراني المجانين، حتى اقتحم التومرجي العنبر وهذا بي سرنجة وهو يُغمغم: «قلة النوم تعمل أكثر من كده».

في اليوم التالي أفقت، عاد إليّ رشدي وانزوت هواجسي في شقوق الجدران، فأدركت أن السرنجة كانت تحوي مستخلص عشبة يوحنا وزيوثا أخرى. زارني ماسون ليطمئن على حالتي، فطلبت منه نزع الطوق الجلدي والسلاسل، وأخبرته أني جئت طواعية، وهرناً، بعد لقائي بالهجين. نظر في عيني بقلق، ثم همس: «عزيزي، أنت لا تتناول دواءك، جافاك النوم أياً طويلاً حتى تبدلت الحقيقة في عقلك بالأحلام، وقد استمعت بأذنك ما اقترفته في الليلة الماضية، لا أريدك أن تشعر بالذنب أو تلوم نفسك، ولكن، هل تريد أن تنهي عمرك هنا؟ - وازداد همسه همساً - أفندينا أصدر أمراً سرياً بعدم خروج نافدي الأهلية من العنابر، وإخصاء الميوس من حالتهم حتى لا يتناسلوا فتنتشر أمراضهم بين الذريّات، ومن تأكد مرضه فسيتم منعه من الزواج، وشدد بعدم عودتهم للسكك والميادين، حتى لا يفسد وجه العاصمة حين تُستقبل الضيوف والخواجات، ما رأيك؟»، طلبت منه أن يُمهّلي حتى آتبه بالبراهين والأدلة على صدقي، فقام يتمشى، فراشات الصبر تطايرت من حوله، فتح الباب وأشار للتومرجي ذي القفص: «سليمان أفندي سيُشرفنا في المارستان بضعة أيام، ولن يخرج قبل أن نتحدث ثانية»، وأغلق الباب، على رأسي.

قضيت ساعات طويلة قبل أن تأتيني عزيزة بالطعام، تخفي عشقها المزيف بلامح صارمة، حتى انفردنا، فسألني عما جاء به إلى المارستان بعدما زُرت مطبخها وركلت دجاجاتها وبشرني بغلام حلیم. واجهتها ببقيتي، حول علاقتها الآثمة بالمدعو سيد عجوة، وكيف اختلط الشبق بالخيانة في عينيها وقت وداعي، وكيف تلقت سهام الغدر بصدر مفتوح، وكيف أن «النخلة لما تطرح قوطة تبقى نخلة شرموطة»، وما كان منها إلا أن صفعني قبل أن أسترسل، ثم هزت أردافها: «عاجوة!! قال عجوة قال!!»، ثم شهقت: «ده حيا الله بوصة، عُقلة صُباع، لا بيهش ولا بينش»، وحين سألتها: «كيف عرفت؟»، أخبرتني بأنها ذات يوم، ولما كان الفضول قد بلغ بفتيات الحي وجيرانها من النسوة عنان السماء، أرادت أن تأتين باليقين لترتاح النفوس من التهنيدات الساخنة، فطلبت من سيد عجوة الصعود إلى الشقة بحجة إصلاح درفة الدولااب، في غياب أنور أفندي، ثم راودت القزم عن نفسه، وقالت هيت لك، حتى ظن أن الحظ أتاده، خلع سرواله، ففربت المصباح وتلقت الصدمة، فدماء الضبع التي لحقت في عروق سيد عجوة، لم تكن سوى أعشاب كركديه مغلية مع الينسون.

انتهت عزيزة من سرد قصتها فجعلت بضحكة رنانة، ثم احتضنتني ورق صوتها وهي تهمس: «بقا يا عايب، يا ساكن الزرايب، تشك في ميرة وسمعة عزيزة الشيكشي؟!»، وأمسكت بكفي فتذكرت قبضة الهجين والعقرب الأحمر للحظة فسحبت يدي، قبل أن أستجيب لها مستدركا، مصممت شفتيها في حق، ثم فردت أصابعي على بطنها الثاني، فأفلتت مني ابتسامة، وضمتها بحنان، فقلبي قلب أرنب يفيض بالغفران، ناولتني جرعة أخيرة من العشب المهدئ، وطلبت مني الراحة حتى تهدأ أعصابي وتصفو مخيلتي وأغادر مارستان ورش الجوخ بسلام.

أغلقت خلفها الباب فبركت في ركن، ألعن الشك والظنون، وأتحسر على خيالات أعانت مركبي في البحر، وضلالات صنعت في شبكتي الخروم، خروم تسلفت منها الحيتان والخوريات والأخطبوط، وما باليد حيلة، وكما قال الحكيم ساسون، يجب أن أتوقف عن لوم نفسي وجلد الذات، فالزمان ملعون يقرب من نهايته، قيامة تدنو، تبرص بنا دون أن نشعر، وجنس بشري بلغ قمة الغرور، ماذا سنرى بعد اختراع التليجرافات الكهربائية؟ أي جنون ينتظرنا بعد ماكينات الخياطة **Singer**؟ هل منظر يومًا مثل الحرائم؟ أو نبلغ القمر فننسنه بالبارود؟ إنها النهاية المفجعة يا أفندية، والحمد لله على سلامة الوعي من الخرف حتى الآن.

سبحت بعدد أنامني وتلوت في سري أوراد الغوث، حتى طهرني البكاء من خطيئتي وغسل صدري، فأغمضت عيني، غبت عن الدنيا لساعة أو يزيد، حتى حان المغرب، تسلل صوت الأذان مع أشعة الغروب الحمراء من بين القضبان، ثم لاحت جرادة، حكّت أجنتها فانبهت، رددت السلام فتمشّت على الجدار ثم دارت دورتين قبل أن تحط فوق كنفي اليسرى، اشتكت من قلة الزرع، وسوء معاملة جرادات تربت بينهن، وغياب الضمير في البيع والشراء، ثم مصممت شفتيها، واختتمت أخبارها بحكمة: «تحت البراقع سم نافع»، وقبل أن أتمعن في المثل سألتني: «بالحق، ماذا كانت عزيزة لتفعل إذا اتضع صدق رواية سيد عجوة حول دماء الضباع التي تسري في دمه؟».

قالتها ثم ألفت السلام وطارت، مؤاربة الباب لقبائل التتر والصليبيين حتى يدخلوا المارستان إن شاء الله آمين.

خلال يومين من الإقامة في مارستان ورش الجوخ، مارست السمع والطاعة بين يدي التومرجية ذوي الأفاص الحديدية، وتحت إشراف عزيزة الشبكشي، إن كان لك عند الكلية البلدي الحبل حاجة قل لها «يا ستي»، شربت الأعشاب المنومة بالكوز، وبصقتها في الأركان، اندمجت مع المجاذيب، غثيت وفليت القمل وتحملت انتفاضاتهم المستيرية، وتقبلت بصدور رحب زيارة حُرمة عقيم وطلبها المرور فوق وجهي وأنا مُكبِل ومغمض العينين - حتى لا أكشف قعرها - سبع مرات، لتنفك عقدة رحمها، وتنجب طفلاً كما وصف لها العراف. صدقني التومرجية والمجاذيب والنمل، ولم يصدقني الحكيمباشي سامون، ابن اللثيمة لا تنطوي عليه الأعراض، ما إن نظر في عيني وسمع إجاباتي عن أسئلته حتى أدرك بخبرة يهودي، أن النوم يُجافي عيني، وأن الأرق مزمن، وأن عقلي يعمل بكل طاقته كقطار بخاري يلتهم في الدقيقة ألف رطل من الفحم، فأنا إذن، لا أتناول العشة المهدئة. ربت عن كتفي وطلب مني - وكأنه اختيار - التمهّل في الخروج ليطمئن على حالي، حتى اضطرت بصنعة لطافة وخفة يد نّشال أريب أن أسرق مغابيع طوقى الجلدي من جيب التومرجي، وأنسلل في جنح الليل هارباً.

«قالوا للمشنوق غطي رجلك؛ قال إن رجعت عائبوني».

في طريقي للقلعة كتبت رسالة لمبتور الورك حول زيارة المهجين لغرفتي، وطلبه نشر صور القتل في جورنال الوقائع وكذا وكذا، أدخلها الحارس إلى جناحه، مُرفقاً بها ظرفاً يحوي صور الموتى، وانتظرت في حوش الديوان ساعة، قرصت فيها أظافري حتى وصلت إلى كوعي، قبل أن يخرج الحارس برسالة مقتضبة ووجه صارم: «تمام».

في غرفتي باللوكاندة، كمنتُ يومين، أوصدت أبوابي ونوافذي، بيأت شتوي وددت لو اكتمل بشرقة تُعلّقني فتخفيني عن الأعين، لعني أخرج فراشة، أو ذبابة، أو أموت بداخلها فيتحنط جسدي كأجساد الفراعين، فالهجين يترصدني، والعقرب الأحمر لا يكاد يغادر تحيلتي، أراه في كل غفوة وأنتفض مع كل ظل يتحرك. وحين انقطعت الأسباب وضربني اليأس في مقتل، دلفت إلى رفيق الدرب عتري، رفعت عصاة عينيه ثم سأله المشورة، فتلمل في جلسته، شخص بيصره للسقف وغاب لدقائق، ثم طلب الحشيشة، سحب أنفاس النارجيلة، ثم أخبرني بكلمات يُغلفها الوجل: «إيّاك يخلصك، فالعقرب الأحمر عدو عظيم، يعود لأزمة تسبق بُناة الأهرام، لا يخدم إلا أسياد الجنوب الجبارين، أسياداً لا تعرف الهزيمة». سرت فشعيرة على جلدي وغمرتني الشفقة على سليمان السيوفي، فناولني ليّ النارجيلة، سحبت نفساً أشعل السعال في رثتي ولم أتمالك نفسي فبكيت، ضمنني بثلاث أرجل ثم همس: «ذلك العقرب مُحقق غايته ولو قامت الساعة، لن يفعلك هروب وإن بلغت قعر عُحيط، ولا سبيل لنجاتك إلا بالعمل الشاق والتركيز، فعقلك يفقد وهجه حين تتناول العشة المسمومة، وحين يتجنى عدوك اللدود»، سحب نفساً لم يُخرجه، ثم أردف: «يسر على خطواته، ضع نفسك مكانه، وفكر في الرابطة التي يُخفيها الأسياد. قطع طريق المهجين يكمن في كشف سره ومُباغتته، وبينكما ميعاد لا تفوته، في منزل الضحية الرابعة، ستجمعكما جلسة»، انتهى فسكت، كما تسكت العواصف، دون مقدمات، أغلق ثلاثة آلاف عين وهام في ملكوته، وضعت العصاة على عينيه وأغلقت الباب بهدوء، عاقداً العزم على تنفيذ نصيحته.

بدأت بعثي بمد الخيوط الرفيعة فوق مسار حركة الهجين في عُرقتي، لرصد آثار زيارة بدون ميعاد. بصمة قدم أمام الشباك أرشدتني لمكان تسلكه إلى الغرفة، رصصت فوقها حبات الأرز وراء بعضها البعض فأفضت بمقاس قدمه، ما بين نمره خمس وأربعين وست وأربعين. الهجين - وليس شكاً في مقدرة على الطيران - قادر على تسلق الجدران، أو النزول بسهولة من سطح اللوكاندة، لكنه قبل أن يفعل، دهن وحلاً فيه عفونة خضراء جافة. ألقيت نظرة من النافذة إلى الشارع فوجدت الأرض جافة يكسوها الغراب، ثم ميزت بصعوبة حبلاً مشدوداً، بين السطح ورافعة بير الوطاويط، فالتقطت شمستتي وقفزت سلام اللوكاندة، وما هي إلا لحظات حتى اقتربت من البئر التي حفرها «ابن حنزابة» وزير بني الإخشيد، لنقل المياه إلى سبعة أسبله تروي الناس بين خطي باب زويلة وجهة الخليج.

لقرون، ظلت البئر مصدرًا للري والارتواء، وفألاً للخير تتوارثه الأجيال، وعنوان إرشاد لعابري السبيل والتائهين، مواكب موالد أهل البيت يقضون ليلتهم متحلقين حولها مستأنسين، وزقات الأعراس لا تكتمل حتى تمر بها ويُسقى العريس شربة ماء من دلوها تُبشره بالخلفة الصالحة.

وتناثرت الحكايات حول بركات مياه البئر التي لا تنضب، والعذوبة التي تروي الخلق وتأسر القلوب، كان أكثرها تأثيراً، حكاية مفادها أن البئر بعد أن تتعمق في الأرض عدة أميال، تنحرف شرقاً وتُعبّر أسفل البحر الأحمر، ثم تتوغل في أراضي الجزيرة العربية حتى تصل إلى خزان مياه غويط، يخرج منه فرع آخر، في نهايته، بئر شيدها عاشق العشاق، شاعر العرب المقدام، عنتر بن شداد. بئر شهدت لقاءاته السرية بمعشوقته الأييرة؛ عيلة، في ليل الصحراء، تحت الأنهار المكتملة، حيث هنيء بخلوات أشعلت جذوة الغرام، خلوات جعلت من عنتر، أفضل من نطق بالغزل في شعراء العرب.

أما الحكاية على الطرف الآخر - بئر القاهرة - فقد اتخذت منحني آخر، حيث اتفق الناس بدون اتفاق، أن من دقق وتمقن في مياه البئر ليالي اكتمال القمر، وألقى إلى البئر بيرة أو قرش، فسيرى وجه حبيبته التي لم يصادفها بعد، وسيكون حُبها جارفاً كاسحاً مثل فيضان النيل، مثل حُب عنتر لعيلة. ولا أعلم أي شقي اختلق تلك القصة المهرثة، وأي عقول مريضة صدقتها، ربما هو تاجر أقماع شكر الذي يفرش بضاعته بالجوار، أو بائع الورد العجوز، أو درويش من دراويش تكية المكفوفين، يسير حافياً ويصرخ كل بضع دقائق: «حي»، أراد أحدهم أن يخلق حول البئر سوقاً رائجة لتجارته، مُستغلاً شغف الناس بمعرفة الغيب، وتفضيلهم أساطير ألف ليلة وليلة، على حقيقة ناصعة البياض.

الحكاية كانت كافية لتتحول البئر من سقاية العطشى، إلى كعبة المحبين، وازدحم المكان بالعشاق، من كل صنف ولون، في أعمار بين البلوغ والرشد، يُريدون وجه الحبيب، وزاد الطين بلة أن البعض أكد رؤيته لوجه فتاة جميلة في البئر وأقسم أمام الخلق بأغلف الأيمان. ومرت السنين، وفي يوم أغبر، استيقظ رجل ورع ليصلي الفجر، وفي طريقه للمسجد أراد السُّقيا، فأرسل الدلو للماء ولم ينغمس، اصطدم بجسم رخو، قرب الرجل مصباحه فاكتشف جثة طافية، واتضح بعد استخراجها أنها جثة شيخ المسجد. انحنى المسكين، مُنمياً نفسه بعشق كعشق العشاق، أو ليملاً قفطانه بالقروش، فاختل توازنه، تحبّط في حجارة البئر فانشق رأسه ففرق، شهيد بئر عنتر.

ما الذي يفعله فينا القمر؟

منذ تلك الليلة انقلبت الآية، غطى التشاؤم وجه البئر، كره الناس الشرب منها والاقتراب، قطعوا حبل

الدلو، وعزفوا عن استعمال مياه الأميلة المجاورة، وانتعشت سوق السفائين من جديد، يجلبون المياه من النيل في قريتهم، خير من البئر الملعونة.

وخلال سنوات، جفّت البئر، تحولت إلى فوهة مهجورة، بالوعة مُقبضة للنفس، قبل أن تتخذها الوطاويط سكناً لها، وتبها الاسم الذي التصق بها منذ مائة سنة؛ «بئر الوطاويط»، اسم تسبب في خوف الضّيفة، وانتصاب شعر الكبار عند الاقتراب ورؤيتهم للأجنحة الجلدية الداكنة، ولجهل غير محمود، أقر الاسم شيخ الحي، وثبته في السجلات، ليُنقش على يافطة في بداية الشارع ونهايته: «سكة بئر الوطاويط».

حين اقتربت من البئر، فحصت الحبل الموصول بالسطح، لم أبذل الجهد لمعرفة ما حدث، قذف خطأً إلى السطح وثبته برافعة البئر الصدئة حتى ينزلق في سهولة حين ينتهي من زيارتي. فحصت المكان على ضوء مصباحي فعثرت على نسيلة جلد سوداء لا تتعدى ربع البوصة، نشتها حديثاً يسير بارز في طرف البئر، نسيلة تنتمي للوداء الذي كان يرتديه، قطعة من جلد ثور مدبوغ، تفسر الرائحة التي أشتمها في حضرته، وبالطبع رصدت بصيات قدميه حول البئر، وحين شرعت في الرحيل، ناداني الفضول، همس في أذني أنه لم يسبق لك أن نظرت بداخل البئر، أو كنت بذلك القُرب، نظرت حولي لأتأكد أن لا أحد يراقبني، ثم أخفيت وجهي وألقيت حصاة، خبطت في أرض رطبة ولم يتبعها وطوطة، فمددت مصباحي، وعيني من خلفه، تأملت الأحجار العتيقة، ودائرة الظلام في قعرها، وقبل أن يتسلل إليّ الملل وأبتعد، هبت ربيع خفية، من أسفل البئر، أطفال فتلة المصباح فلمحت العينين. زرقاوان، رموش طويلة، فم مُكئنز، ملامح ساكنة داكنة، تنادي في استغاثة. ملائي الوجلي ونشع عزق الرهبة على جلدي، لكنني لم أجروء على الابتعاد، تبيّست في مكاني، حتى نفضي مُواء فطة، سوداء قاحمة ذات عينين زرقاوين، لم تتحرك حين هشتتها يوماً أمام غرفتي، وبدون مقدمات، اندفع من البئر يرب وطاويط، تجاه السماء، حم بُركان تجبوسة لآلاف السنين، أصدروا صريراً رفيعاً يثقب الأذان، كان تصريحاً كافياً بالحرب، ركضت بعزم ما أملك، ألوح بشمسيّتي حول رأسي كالملبوس حتى لا يضربوني بأجنحتهم اللزجة، تعثرت فسقطت على ركبتي، ثم وصلت باب اللوكائنة فقفزت السلام وأغلقت بابي بالأقفال وسط دهشة بشاف، اتخذت ركناً، ورددت سورتي الناس والفلق مراراً وتكراراً، حتى هذا روعي ولاح نور الشمس.

أنا مؤمن بالجن، فهو مخلوق مذكور في العهد القديم والقرآن وكل سير الأقدمين، أسمع الحكايات عنه منذ وُلدت، من جذات هرمات بأسمان مخلوعة، وأعمام خاضوا البحار السبعة، يحكون أساطيرهم في ضوء شموع تُضخم الخيالات، وتجعل من القنران ديناصورات، قابلوهم في ألف هيئة: جديان وماعز، كلاب ذات رأسين وقطط سوداء، لكنني لم أؤمن قط بأسطورة بئر الوطاويط، وظهور وجه الحبيبة فوق مياهه، ذلك كان عبثاً منذ ساعات، الآن أقاوم رعشات يدي وحين أغمض، أراها، تنظر لي باستغاثة، والقطعة ترمقني، وما كان مني إلا أن توضحات فصليت ركعات لم أحصها، ونظرت في فروع اللبلاب فقرأت كلمة «جلب»، والخط لم يكن رقعة أو نسخاً، فلم أفهم ما أراد الوحي، فقررت استئناف رصد زيارة هجين القمر لأنشغل. تحت العدسة، التقطت شعرة لا تمت لي أو لعزيزة بصلة، اختلافها يكمن في طولها، تسع بوصات، وتجميد ينتمي لجسد كحري، وضعتها تحت المجهر بعد نقعها في محلول البوتاس الكاوي فانفصلت عنها دهون لحم وزيت خروع، خلطة عطاره تنتمي للطبقات الدنيا، كما علمت بعد حرقها، أن عمر الجسد المقتول الذي يستغله الهجين يتأرجح بين ضفتي الخمسين.

انتهيت فمسحت غرتي بحثاً عن أثر أغفلته، عن عقرب أحمر قابع في ركن مُظلم ينتظر ذكر اسمي بأمر هجين جبار، ليتحرك تجاهي فيغرم إبرته في عيني وأنا نائم، أتخيل المشهد، الألم، وعجزني عن نزع ذنبه من يؤبؤ عيني، ثم نجاحي، فأنفض، أقوم، أفز، أفحص أسفل الكرسي الذي أجلس عليه، وأتسلح بيد مغرفة تحميني، ثم أرثخي، مُتمتاً أوراद الحياية، مُتمتاً أن يستجيب مبتور الورك، بطباعة صور القتل في جورنال الوقائع المصرية، وإلا، فلن يتوقف القتل، ولن يستقبل العقوب الأحمر من وظيفته، وسيمس الجنون عقارب الساعة أيضاً، لتركض في فرحة، مُعلنة حتفي. ثم تُراودني العيان الزرقاوان، فتاة البشر، أو كما تقول الأسطورة، الحبيبة التي لم أقابلها بعد، حبيبة أكدت بظهورها في قاع البشر، أن الأسطورة حق، وأن عزيزة خائنة بحق، وأن قصة الحب الساخنة، شائنة، كسمكة فسيخ عفتة، وكما قال الشاعر: «النساء هن الدواهي والدواهُنْ، لا طيب للعيش بلاهُنْ، والبلا، هُنْ»، لتشتعل النار في صدغي، وتند لشعري ثم تمسك بالسناثر من حولي، أكاد بالكز أن أكسر ضروسي حين يراءى لي وجه سيد عجوة، أير الضبع الذي لَطَّخ ودنس، عاب وشوّه عزيزتي، عشيقتي، سابقاً، زوجة المخفي أنور أفندي أبو شمعة، وأم صالح الطالح.

لم يبرد رأسي قبل أن انجزع - على مضض - كوباً من عشبة يوحنا المنقوعة، حتى لا نغمرن الكآبة وتضطبع الجدران من حولي بالسواد، حتى لا تحتاح الغرفة أسراب الجراد، ويهاجم عقني ألف زلزال، حتى لا يفيض النهر من أذني، بتناسيحه وأسياكه وجثث البقر النافق من الطاعون، حتى لا تشمت بي الأفاعي السوداء وتقيم الأفراح وتذبح الخراف، وحتى تتوقف تلك النعمة المُلحة في رأسي، رغبة لا تتفاوض، لا تطلب بأدب، رغبة تأمر، تُصر وتُشدّد، تبدأ بهمس، ينتهي بصراخ يصم الأذان، بغم يُبعثر اللعاب، يكاد يلتصق بجبهتي، حريصاً ألا يلمسها، مباشرة أمام البقعة التي تتوسط العينين، مكان السجود، مكان زبيبة الصلاة التي فشلت في الظهور، مكان طلقة الإعدام في تهمة خيانة عظمى، فوق الأنف ببوصة ونصف، كلمتان تخترقان الجبهة، تتكرران بملل، ورتابة لا تتوقف، لا تياس، لا تنهزم...

«قتل عزيزة».



خلال الأسبوع الماضي؛ لم يُنادِ الباعة بجورنال الوقائع، ولم يُنود الديوان بسبب تأخر الطباعة أو ميعاد الإصدار.

خلال الأسبوع الماضي، لم ألمح ظلًا للهجين في نور القمر، ولم يظهر العقرب الأحمر في الجوار.
خلال الأسبوع الماضي، لم تأتِ عزيزة لتسأل عني بعد هروبي، ولم يزُرني الحكيم ماسون ليستأنف الحوار.
خلال الأسبوع الماضي، لم أفتح بابًا أو أوارب شباكًا، وحين اشتكت معدتي، تلثمت، صعدت سلال السطح، زحفت على بطني واقنطفت الحُضراوات خلسة قبل أن يشعر الحمام في النهار.
خلال الأسبوع الماضي، فقدت أرطالًا إضافية، وسيهvir وزني بالسالب بعد أيام، وسيصيني كالكلاب السعار.

خلال الأسبوع الماضي، هاجمتني الضباع في الأحلام، مُواء فطة سوداء خلف الباب، وخربشات أمي خلف الجدار.

خلال الأسبوع الماضي، لم تنزل الرسالة في يد الملاك، لم ألتقط وحيًا من السماء، وليس في الأمر اختيار.
خلال الأسبوع الماضي، لم يخرج عنتر عن صمته، ولم ترسم فروع اللبلاب كلمة أو قرآنا.
خلال الأسبوع الماضي، لم أكتب بالدفتر يومية، ولم أرُدّد من الرجل وردًا للواحد القهار.
خلال الأسبوع الماضي، امتنعت عن تناول عشة يوحنا، فاشتعلت حروبي الأهلية، تناثرت جثث القتل في كل ركن، قبضت على عشرين جاسوسًا للسلطان عبد العزيز، ومائة حمار كانت تأكل لفائف الأسرار.
خلال الأسبوع الماضي، شحذت سكاكيني، وبها تبقى من شجاعتي، قررت الفرار.
إلى حنّ، إلى مركبٍ نبني به خرق، إلى مستنقعات إفريقيا، إلى النار.
قُلْ عني «لُحْن»، جعراء، صر صارًا.
فخلال الأسبوع الماضي، كنت أعاني الانهيار.

حتى صاح بانع الجرائد في التاسعة وعشرين دقيقة من صباح الأحد: «جورنال العسكرية، الديلي تلغراف، يعسوب الطب، الوقائع المصرية، إقرأ حادث الاغتيال، إقرأ حادث الاغتيال»، سقطت من النافذة فوق رأس البائع، جذبت الجورنال، ودون أن أسدّد الثمن بعثرت الصفحات، وكانت المفاجأة: صورة مرسومة بعرض الجورنال، تمثّل رجلاً فارغ الطول يجلس على كرسي فخيم مكسو بالقטיפ، في حضرة سيدتين بنوار مسرح، يتسلل من ورائه قاتل، يسدّد طبنجة لرأسه، ومن فوق الرسم عنوان: «مقتل الرئيس الأمريكي إبراهيم لنكولن على يد «جون ويلكس بوت» في تياترو فورد خلال حضور مسرحية «ابن العم الأمريكي»».

يا للهول! اغتالوا محرر العبيد؟ الرجل الذي دعا لإلغاء الرق منذ ثلاث سنوات، الرجل الذي ألّب عبيد الجنوب على أميادهم وأغراهم بصكوك الحرية وأشعل فتيل الحرب الأهلية، لا أكاد أتخيل كيف يعيش العالم بلا عبيد؟ وكيف تُعمّر البيوت بلا جوارٍ؟ والأعجب، كيف استجاب آلاف الحمقى لتلك الدعوة الهمجية

التي لا تراعي دينًا أو عرقًا، البك الطويل الأبله، أراد للأمريكان أن يُطْلَقوا سُنَّة تحرير الرقاب؟ بل وُسُنَّة الاستمتاع بِمِلْك اليمِين! يريدُهم أن يُطْلَقوا آلاف العبيد الذين بذَلْ أسيادُهم الأموال من أجل شرائهم وإطعامهم وتربيتهم، ومن قبلهم الجَلابة الذين تعرضوا للأهوال في رحلات اصطيادهم وخطفهم وتكبيْلهم، بخلاف التفاوض المُرير مع زعماء القبائل لتسليم عدد مُحدد من أسرى الحرب بين القبائل والمُذنبين، وفحص العَفَى منهم، والذي حُقّق بالمُهيّجات ليخدع التجار وقت شرائه، ثم عبور المحيط بهم وسط أهوال العواصف والأعاصير، ناهيك عن الأوبئة التي يحملونها من بلادهم، مما اضطر الجَلابة في أحيان كثيرة لإلقاء العبيد في المياه أحياء، حتى لا تنتقل العدوى لزملائهم ويفرض المستورد غرامة مالية. ألم يسأل لنكولن نفسه أين سيذهب العبيد حين يُسْرَحون؟ لم يسأل لنكولن من أين سيكتسب العبيد قوتهم ومن أين سيأكلون؟ إنه الجنون المُبين، تقاليع آخر الزمان، علامة من علامات الساعة، ومن رحمة الله أن تلك هي نهاية كل مُرْجَج لِلْبِدْع مُبْدَل لُسُن البشَر.

مُلَّاك العبيد الآن سينامون مُطمئنين، أما أنا، فقد حانت نهايتي، ونفخ إسرافيل في بوق قيامتي، فعناد داغر بك بلغ عنان السماء، المبتور يستهزئ بما قدمته من دلائل وبراهين، في صور وكتابات، ويرفض هدنة المهجين تعسفًا، بل إنه يُقصيني عن التحقيق ويطرِدني بمهانة وتحقير، الآن سنستأنف عجلة القتل دورانها، وستهرسني بعد أربع ضحايا، بلسعة عقرب أحمر، أو بموتة شنيعة ستسبب في ابتسامة من جانب فم السلطان العثماني، ثم إقامة الأفراح والليالي الملاح أربعين يومًا يلياليها، وبإذن المولى، سيعقبها زلزال يُصيب الأستانة، مثل الذي أصاب الإسكندرية سنة ١٣٢٣، وسيسقط العرش بالسلطان عبد العزيز في شق بالأرض يصل إلى غُبا المهجين الزاحف فيلتهم رأسه.

وركبني الهم، كما لم يركبني يوم وفاة خالي فتحي، مشيت مكدورًا مغلولًا لا أدري إلى أين تأخذني قدماي، أكاد أكتشف فمي وأنفي غير عابئ بالكليرا التي تنتشر كالجراد، أو ألقى بنفسي إلى النيل فأحتضن جاموسًا نافقًا من الطاعون حتى أرتاح. وصاتنتي السكك إلى الدفترخانة، وما إن تأملت المبنى ولافتته، حتى رُئْتُ في رأسي كلمات عنتر: «فكر في الرابطة التي يخفيها الأسياد، قطع طريق المهجين يكمن في كشف سره»، حين تأتي العلامة من الله، اغتنمها دون تردّد أو تفكير. دخلت إلى المبنى وطلبت الاطلاع على دفتر المواليد الخاص بعزت باشا الدفتردار وعصمت باشا حسن، والحرمة همت إسحاق. فقبِلَ طلبِي بالرفض القاطع، حتى أبرزت ساحر القلوب، فاتح الأبواب ومُبدِّل القناعات؛ البقشيش، فنزلت الدفاتر من فوق الرفوف وحدها، نفخت الأتربة عن نفسها واستلقت بين يدي، استغرق الفحص والتدقيق ساعات، أطلعت على ملف عزت باشا، ابن محمد باشا الدفتردار، زوج «نازلي» ثاني أكبر بنات محمد علي باشا، وأحد ثقات القلعة الأصليين. الأب عمل كمستول حسابات لجميع الدفاتر ومُباشريها من حُكام الأقاليم، قبل أن يعهد إليه محمد علي باشا بخوض الحملة الانتقامية من الملك «نمر»، ملك مدينة شندي بالسودان، لخرقه ابنه إسماعيل حيا سنة ١٨٢٢ ميلادي.

أما عصمت باشا، فهو ابن حسن باشا بوشناق؛ قومندان فرقة الشركس عهد الباشا محمد علي، والتي كان لها شأن كبير في تدعيم عرشه بعد زوال فِرَق الألبان التي أفتناها عمدًا في حربه على الوهابية بالحجاز. ورث عصمت باشا ثروة عظيمة عن أبيه، لكنه تجنب الانخراط في الجندية مثله، تزوج مرتين، من مسك هانم ومن حرمة أقدم، ولم يُرزق بأولاد. جيل الآباء ينتمي لدائرة الثقة الأولى في القلعة، وتوريث المناصب أشد تأثيرًا

من توريث الذهب. أما الجريمة هُتت، فقد شذت عن النمط والمذهب، فهي سيّدة عصامية، أصولها ترجع إلى قرية فقيرة بالدلتا، أبّا عن جد عملوا في الحداقة وصُنع السيوف والخناجر، وغير مُدقّون عنها سوى أنها جاءت إلى القاهرة في سنة ١٨٠٩ ميلادي، وتزوجت بالمدعو فرانكو جابريال «الشاعر الأعور».

الله يخرب بيتك يا عترة، عن أي رابط تتحدث؟ لم أكن لأسأل الله فيما أعطى، ولن أتبطر على النعم التي وهبني إياها يوماً، ولكن لم تكون معجزتي ذكر ذبابة لا يطير؟ لم أوت عصا أشق بها بحراً كعصا موسى، أو بُراقاً حكيمًا يعرج بي إلى السماء السابعة، لا أكاد أتخيل كيف سيحملني عترة يوماً لما فوق أحبال الغسيل في السطح! ناهيك عن دخولي بين الملائكة والأنبياء على ظهر ذبابة! اللهم لا اعراض.

فحصت باغي ملفات رجال الباشا المقربين، بحثًا عن قائمة المهجين المبشرين بالقتل، نقلت الأسماء والبيانات إلى مُفكرتي، وملحوظات الموظف، ثم خرجت من الدفترخانة أحمل فوق رأسي ناقة حُبل يركبها جمل، فالدافع وراء المهجين كالدخان، غائم هائم، لا تُدرّكه الأيدي وإن أدركته النفس، ولأتنبأ بالجريمة القادمة سيكون عني حصر ألف ومائة باشا يحومون حول أفندينا كالآفئار حول المشتري، من بينهم ما يزيد على المائة والخمسين من المقربين، ثم الأربعة المبشرين بتبيل لقب أضحية المهجين. وقع القنلة التالية سيكون مؤلماً حاسماً، والانتظار أشدّ الماء، وإن كان في الحياة أيام مُتبقية، فلا عيشها بقلب بخار فقد مركبه واستقر على لوح خشب زان في عرض بحر ينتظر الفرج، كما يقولون: أهي ليلة وفراقها صُبح، وإن كُتب على سليمان السيوفي الموت، فمن العار أن يرحل محروماً مكسور القلب بسبب عزيزة الفاجرة بنت الكلب، فخير لي أن أقع بين برائن هجين، من أن أعيش مخدوعاً في كنف امرأة جامحة.

المجد لجارية مهيضة الجناح ملفوفة القوام تُسعد قلبي المخلص البريء، وبأ رازق الفرخة بديكها، أرزقني بواحدة أفرتكها.

مررت بالحفارة فاشترت زجاجة كونياك ثم اتجهت للعطار، ابتعت خلطة لدرء سُم العقرب الأحمر مُكونة من حنظل وثوم وليمون وبابونج، بالإضافة لبذور الكتان والملح، آخذ بالأسباب حتى لا ألوم نفسي، وبالجنينيات الأخيرة في ثروتي المجيدة توجهت إلى وكالة «المحروقي»، جنة من جنان السماء، كلما مررت بها سأل لُعابي عن بضاعتها، واندفعت الدماء في عروقي ساخنة حارقة، تشوي الأفاعي وتُبعر أشلاءها.

وكالة «المحروقي» هي المنافس الأول لوكالة «السلحدار» في توريد وجلب الجوّاري والعبيد، يأتون بهم من الجهات الأربع رغم مُضايقات الحكومة التي تنتهي ببقيشيش شهري ثابت للقواصة، وهذايا من أنقى سلالات نسوة الأرض لقصور أفندينا وبيوت الأمراء والباشوات. ورغم الإلغاء الأوروبي ولا سيما الإنكليزي الذي أقره الملاعين بقانون في برلمانهم الشيطاني سنة ١٨٣٤ م، ورغم الواقعة التي حدثت في النيل قُرب دارفور منذ سنوات وأسفرت عن احتراق سفينة مُحملة بمائة عبد وجارية بعد إشعال أحدهم النار في نفسه رغبة في الانتحار، إلا أن وكالة المحروقي لم تهتز ولم تتأثر، بل وأكثر القائمون عليها - وهم ناس فضلاء وأهل فطنة - من استيراد العنصر الشرقي البض الأحمر، والمغربي البربري اللامع لتعويض الخسارة، ولم يتخذوا الجشع في الأسعار مسلكاً لحل الأزمة.

اليسر جي كان مُزركش الثوب، تحسبه عن بُعد امرأة تُدخن النار جيلة في فتور، حتى تقترب، كيف ما زلت أبتلع ذلك الطعم الذي جرى استخدامه لجذب الزبائن منذ الأزل؟ الفتى اللين كان يستند الباب الضخم ذا المزلاج التماسحي، تعلوه يافطة «وكالة المحروقي»، وعلى الحائط بجانبه التصفت صفحة جورنال تحمل

خبر اغتيال «أبراهام لنكولن»، وفوقه كتب الخطاط: «وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا»، ومن تحته: «يسعونا اليوم، للغد لن يدوم»، ما إن رأي حتى ترك لي نارجيلته، وأشار لعبد صغير فاقرب بصينية تحمل أكواب العرقسوس: «شفاء وخير عني عيونك، عبد أم جارية؟ شركسي، بربري، حبشي؟»، أجبت: «جارية»، وكنت لأتوسل إليه العمل في الوكالة، لكنني طلبت - كما علمتني الحياة - أن أخوض جولات الانتقاء، وأن أتعالي وأتحدث بزهد وكأني مُرغم عن الشراء مُضطر، وأن أستمع، وأخفيت عليه أنها المرة الأولى التي أشتري فيها جارية، ابتسم: «محسوبك رضوان، اسم بواب الجنة، تفضل».

دلفت وراء رضوان إلى طُرقة مغروس في أحجارها أعواد النعناع والريحان والبخور الهندي المُعبر، انتهت بفناء مربع مزروع، تتوسطه نافورة أندلسية تطفو عليها الزنابق، وأرائك خشبية عليها مساند مخملية استلقت فوقها جوارى الشراكس والألبان والأباضية واليونان، في لأمبالاة ساحرة، يهمن كالحائم ويضحكن في سلام، لا تبدو عليهن أمارات حزن أو تيه، ينتظرن الفرج على يد مُشتري يُوفرهن حياة كريمة بعد سفر وعرض في الأسواق وعناء انتظار مرير. ما إن رأيتني حتى أكبرن، وقطعن أيديهن، وقلن حاش لله، ما هذا بشرًا، إن هذا إلا مَلَكٌ كريم. فبال رضوان عن أدني: «الجارية تُشتري بالعين وتُرد بالعين، أودعها حريمك أو حريم أحد أصدقائك، لثلاثة أيام، النسوة يفتن بعضهن بعضًا، شرطي الوحيد، ألا تضاجعها، وإلا فقدت حق ردها، بعد أيام معدودات ستأبيني شاكرا وتشتري أختًا لها»، هذبت شعري وخلعت نظارتي الزرقاء وتحملت صواني القشطة فحصًا وتدقيقًا، حتى أشعلت إحداهن جذوق، فأشار اليسرجي إليها فقامت بتثاقل، اقتربت، قطعة شيرازية لا تأكل إلا الرمان والعسل، مد رضوان يده وفك عقدة رداها الشفاف من خلعت رقبة كإبريق الذهب، فسقط بين قدميها، ولو أمامي عزيزة الآن لوضعته في ركن وتلفت عليها حتى مانت غرقًا، ثم ناولتها لشكيب عبد الصمد ليُشرحها بيديه العاريتين: «اسمها نُجن، شيشانية، لا تُشخر، ولا تصر بأسنانها أو تتكلم أثناء النوم، قلوبية المذاق، عرقها كغرق الخيل، وليست شرهة للطعام، مليحة القعر، مُكتنزة، مد يدك»، وسحب رسني دون أن أسأله ودس كفي فيما بين وركيها، «الدفء» لا يُقاومه إلا كافر بهيم معتوه، رمقتني دون كلمة، بعينين في لون الرماد، ثم عضت شفتيها، فلم أدر كم من السنين مرت، وكم من نوى البلح صار نخلات بامقة، قبل أن يسحب يدي، ويضعها على نهد مغرور لم يركم من قبل، ففارت دمائي، ودون أن أرفع كفي عنها سألت رضوان عن ثمنها - إن كانت تُقدر بشئ - فأجاب: «لُفطة تُغتنم؛ فالיום يوم احتفال بزوال كبير مُحرري العبيد، وهي ليست بِكُرا، ذلك السبب الوحيد لرفض شرائها كحريم لأفندينا. ألف وتسعمائة قرش من أجل طلتك البهية»، رفعت يدي من فوق قمع السكر قهزًا، جبرًا واضطرارًا ودُلا واعتراضًا، فلم يكن في جببي أزيد من عشرة جُنيها، ابتسم رضوان وقد استشعر محنتي، فعرض ألفًا وثمانمائة قرش، ولم يقرأ في وجهي سوى النقص والحزني والعار، فأشار للجارية الشيشانية فرفعت رداءها، وعادت إلى أريكتها بعد أن رميتي بالاشمزاز. سألتني: «كم مملك؟»، فأخبرته أن تسعمائة قرش هي كل ما أملك، فابتسم ثم وضع يده على كتفي: «أتعلم، إن الله يُحبك، ولأجل وجهك البشوش، سأعطيك نصيحة لوجه الله، إن أردت مُنعة من مُنع هارون الرشيد؛ جارية تُشعل شمعتك وتُرضي نفسك، ولودًا، تُنجب الذكران، لاخترت الخلاسي، العرق الذي يتخلق من بين الحبشي والبيضاء، أو المغربية البربرية، فهن خير من البيض الكسلانات اللاتي يتقاعسن من ثقلهن عن الرقص والفرفشة، ويمرضن بالشروء ومقم المزاج، ولكن تسعمائة قرش! عليك أن تُشخصج جيبك قليلًا يا أفندي»، البعيد عديم المفهومية! «أقول له ثور، يقول أحلبوه».

صعدنا إلى الدور العلوي، إلى حُجرات ضيقة جلست فيهن النسوة الحبشيات والسودانيات والمغربيات، متجاورات مقرصات، شبه عاريات، أشجار كاكاو تعلوها صفائر غليظة، فحصت وغطت، طالبت بالسير تارة، وبالجري تارة أخرى، رفع وخفض الأذرع، وبالرقص، للتحقق من مرونة المفاصل، ولم يغفل يدي إلا أثنان تجاوزتا ما أم لك، حتى فاض الكيل بالجاريات، بالشمس، وبرضوان الذي وقف بالباب مُدليًا دلوه ليقبس عمق كرامتي، وقبل أن يتسرب اليأس إلى قلبي، وفي طريق الخروج استوقفني: «أتعلم، إنك ابن حلال مُصَفَّى، لديّ جوهرة سوداء كنت أدّخرها لقبطان بحري لم يصدّق في وعده»، قالها وغمز بعينه المكتحلة، ثم فتح قفل باب غرفة شرفية، وأشار إليّ فدخلت وراءه. الظلام كان سائدًا رغم تسرب أشعة الشمس من بين أخشاب السقف المتناحية، قضبان سجن من النور، مُبهرة للمعين، تنغرس في الأرض، يتخللها غبار مُنطّير وذباب هائم، مدّ يده فاخترقها ونادى في الظلمات، مثلما نادى المسيح يومًا عن أليعازر من بين الموتى: «قشطة.. يا قشطة.. هل أنتي فاخرجي»، بعد قرون، تحركت على الأرض أصفاد، كرر نداءه فقامت، اقتربت بهدوء، تخللت قضبان الشمس فبعثرت الغبار، شجرة أبنوس إفريقية تقف على قدمين في ليل حالك بلا قمر أو نجوم، شفتان في لون جبوب القهوة، وضخامة البلح، نهذان عنيدان وحشيّان، فوقهما حلّمان مثل دوايتي الجبر، صغيرة سمكة خشنة تتدلّ قرب الركبة، ويطن منقوش بندوب بارزة، تُشبه حزامًا عريضًا من النباتات، فوق خصر زينتته ثلاثة مخالب في عرض كف النمر، ووحمة بيضاء ناصعة في حجم حبة توت، فوق الفخذ اليمنى. قال اليسرجي: «قد تبدو لك حتى الآن مجرد جارية سوداء»، ثم أراح القماشة المنسخة عن عينيها، وبعد لحظات طالت، رفعت جفنيها، بثقل، عن بُحيرتين جنوبيتين، نسبح فيهما حدقتان زرقاوان.

بعد كوب عرقسوس بارد ساعد في تهدئة روعي، قصّ اليسرجي على مسامعي منشأ تلك الأبنوسية، عثر عليها جلاب الوكالة في رحلته لغرب الحبشة، مُلقاة بين الأشجار على ضفاف النيل، تُصارع الموت، غائبة عن الوعي مبهورة البطن من ضارها جها ولم ينلها، في انتظار تمساح ليكمل ما تبقى منها، فما كان منه إلا أن أوقف السفينة، وأرسل المركب ليلتقطها، داوى الجرح بالكَيّ وأطعمها حتى أفاقَت، ولما كانت زرقاء الحدقات وتلك سمة نادرة في أبناء الزنج، أبقى عليها لنفسه، ولما وطأها حدّثني أن بين ساقيها فوهة بُركان تُلقِي اللحم، وأنها أصبحت تحميه الحظ في رحلته، أصاب تجارة عظيمة، وأكرمه ملوك القبائل، وعاد سالمًا غائبًا بسفينة مُحمّلة بأفضل أنواع العبيد دون مضايقات القواصة.

انتهى من حكايته ثم أخبرني أنه سيبيع الجارية بتسعمائة قرش فقط، سألته عن السبب، فأخبرني بأن ذلك من أجل لونها الأدهم، والجرح الغائر أسفل بطنها، ومن أجل الوحمة البيضاء الناصعة التي تُشوه فخذاها اليمنى، وكانت سببًا في تسميتها قشطة، وحين سألته عن الجلاب الذي عثر عليها واتخذها خليعة، وكيف طاب له عرضها للبيع بعد عشق! ضحك: «الجلاب مثل القنفذ، لا ينحضن ولا ينباس»، ثم أخبرني بأن كل جلاب يرجع من رحلته وبصحبه جارية محظية، يعصرها كعود القصب، قبل أن يُلقبها في الوكالة، مُصاصة مُستعملة.

ثبت بالتجربة، أن تجاهل علامات الموتى، يُورث الغباء والفقر في الدنيا والآخرة، وليس من قبيل المصادفة أن أقرر شراء جارية فأنتجه لوكالة المحروقي بدلًا من السلحدار، أقابل يسرجيًا ويكون اسمه رضوان، اسم بواب الجنة، ثم تُعرض عني الأجناس والألوان، ولضعف الجيب لا أحظى بجارية تُناسب قروشي، وقبل أن

أرحل، ألتقي بالقطة التي صادفتها مرتين من قبل؛ «قشطة»، لا يستوي أن يكون التشابه في عينين زرقاوين، وجلد أبنوسي فاحم، ووجهه بيضاء ناصعة في نفس المكان بالفخذ اليمنى. وداهمنى إحساس لم أختبره من قبل، أرحف صدري وأشعل النار في وجداني، تلك هي المهمة الأولى من المولى عز وجل للعبد الفقير سليمان جابر مختار ناجي سراج مهران عياد ذكي نصر أبو صبيحة السيوفي. فتمهيدا لتزول الرسالة، وتلقي كتاب السماء الجديد؛ كتاب القرن التاسع عشر الذي سيمحو البؤس والشقاء عن البشر ويهزم هجين القمر، فعلى إنقاذ جارية جريحة بائسة، أنتني يوما في صورة قطة جائعة، سأشتريها وإن كانت بهائة ناقة من نوق المغانير البيضاء باهظة الثمن، سأشتريها وإن كانت بذهب الأرض كله.

حين أتممت الصفقة، ووضعت الجنيهاات التسعة - وعن قلبي زي العسل - في يد رضوان، فتح الباب وفك الأصناد عنها، ومن وراء القضبان راقبت الماشطة تنتف إبطيها وعانتها، ثم قرفصتها في طست، وصبت فوقها الماء والصابون، مرستها بالليفة والحجر حتى تعكرت المياه بالطين والعرق. وما إن شرب جلدتها الماء حتى انتفضت حلماتها وتحفزت، وسرت عن الجلد الأسود لمعة فضية، خنجر من العقيق الأسود موصع بياقوتتين في لون السماء، حقاً لبس الخنفسة تبقى بيت النساء، وما إن تبيأت قشطة، ومسحت بالزيوت العطرية، حتى أسدلت عليها الماشطة رداء أبيض، وأغلق السيرجي على خصرها حزاقاً جلدياً مزوداً بزوج من الأصناد لمصميتها وناولني المفتاح.

استأجرت حمازاً حجازياً عريض الظهر والمؤخرة، حملني ومن خلفي قشطة مُستغربة شاردة، حاولت أثناء الرحلة تجاذب أطراف الحديث لكنها لم تنبس ببنت شفة، حتى راودتني الظنون أن السيرجي ربما أخفى عني أنها خرساء، أو ربما الخجل متمكن منها من صدمة البيع والشراء. ولما كنت أعلم بعض الأمهية الحبشية من عشرة جيرة قديمة، قلت لها بابتسامة: «أنت كونجو»؛ بمعنى أنت حلوة، نظرت في عيني طويلاً ولم يبد عليها الفهم، فأعدت سؤالها: «مزاء؟» بمعنى غذاء؟ رمقتني بجهل مُطبق، فقرصتها، تأوهت، فأيقنت أنها ليست خرساء، وأيقنت أيضاً أنها ليست من الحبشة كما أخبرني رضوان الكلب زبال الجنة، يا ترى ماذا أخفى عني أيضاً؟ كظمت غيظي واتجهت إلى مسقط الأسبوطي شرق ميدان الرملية، اشتريت من أجملها كارعاً عجمياً، وربع رطل نيفة بالبقدونس، ثم اتجهنا للوكاندة بير الوطاويط.

في هو اللوكاندة، تجاهلت نظرات بشاف الوقعة، وكأنه الهواء، «تقوا على وش الرزبل، قال دي مطرة»، قررت من أمامه وبدي في يد قشطة، صعدنا إلى غرفتي، أغلقت الباب ورائنا بالقفل، وجالت عينا قشطة في المكان دون أن تتحرك خطوة، تأملت الأثاث والجدران والبلاب في صمت، ثم شردت في صورة الجارية السوداء، أمام ضريح الست الوالدة المغطى بالبلاب، وكأنها تعلم ما يُخفي وراءه، اتجهت للصورة، وحملت، فأخبرتني أنني بمشيئة الله صانع لها صورة مثلها، وأشرت للكاميرا. لم يبد عليها فهم، فسحبت رسغها، أجلستها على شتة، ووضعت على الطبلية الكارع والنيفة، نظرت للطعام في صمت، ورغم الجوع البادي في عينيها لم تمك يدها، وأدركت بالفهلوة أنها قد تكون مثي، عازقة عن أكل اللحم، فقدمت لها الفول والخبز القريش، فتجاوبت بعد تردد، والتهمت في نهم، بأسنان ناصعة، وأنامل من الشوكولاتة. تأملت عينيها، مُتسائلاً عن القصة التي يُخفيها ذلك البحر الأزرق، كيف كانت رحلتها عبر أحراش القارة المتوحشة؟ وما الحيوان الذي هاجمها وترك على لحمها الجروح؟ وكيف نجت منه؟ وأدركت بعد قليل أن الإجابات لن تنكشف دون لغة مشتركة، ولكن على الجوهرة السوداء أن تظمن أولاً، وأن تعتاد مسكنها

الجديد حتى أجد الكلمات المناسبة. وضعت لها وسادة محشوة بالريش، وانتقيت من دولاب ملابسي رداء حريريًا كان للمرحومة نعيمة الشركسية التي ماتت غرقًا في النيل، ولباس بفتة، تركته عندي سميرة المجنونة ذات الشامة قبل أن تخفي بلا رجعة، ساعدت قشطة على ارتدائه، وبدت فيه فائنة رغم الشرود الذي يعتربها. ثم جاء وقت التعليمات الخصوصي، وضعت كفي على باب غرفة عنتر، خبطت خبطتين فأصدر الزاهد طنينًا خافتًا، فخافت قشطة، ثم التقطت الكرباج السوداني المعلق على الحائط، ولسعت الأرض بضربة، فارتعدت، مُدركة التحريم، ثم أشرت للكاميرا، ولوحت بالكرباج، فضمت ساقها خوفًا، فأشرت لبرطمانات الفورمالين، حقيقتي الجلدية، ألواح الكولوديون، أوراق يومياتي، دوايات الخبر التي تُشبه حلماها، كُتبي، ملابسي، اللبلاب على الحائط، كيمياء الفوتوغراف في الزجاجات، الهواء السابح حولنا، والمصباح، حتى لا تحترق، وراودتني نفسي أن أخرجها من الغرفة لتنام على عتبة الباب، لكنني تراجع، وتكومت قشطة في الركن مستندة على الحائط، وقد أدركت أن التحريم في دنياها الجديدة، هو الأصل، لكنني طمأننتها بابتسامة، ورقبتها بورد السكينة والهداية، بنئة دعوتها لدين الإسلام فورما أُستكشف اللغة التي تفهمها، ورسم اللبلاب على الحائط كلمة «نَوُو» بتشكيل من شدة وضمة، فأدركت أنني على الصراط المستقيم، وأن قشطة ما هي إلا القطة السوداء التي جاءت لزيارتي، وماءت بيبي دعوة لشرائها، مُعجزة من الوهاب القدير، يَشُدُّ بها أزري في مواجهة الهجين، أتمنى أن تكون قبيلتها من آكلي العقارب الحمراء، أو ممن يحقنون في الذكور دماء الأسود، خير من الضباع أو النسانيس. الآن سأنام بعدما رششت على منافذ الغرفة الكمون والملح وعين العفريت درة للعقرب، وسأستأنف اليوميات غدًا أو بعد غد، إن كان في العمر بقية.



تلقيت اليوم رسالة مختومة من «مسك» هانم أرملة عصمت باشا: «أرجو الحضور في تمام الثامنة مساءً بسراية عصمت باشا رحمه الله وأمسكه فسيح جناته، نعمة سبعة سكة المقياس، مع جلب عدة الفوتوغراف خاصتك؛ وذلك لالتقاط صورة اجتماع ليّني، وأرجو منك التحني بالكتان للأهمية»، وذيّلت رسالتها بختم يحمل اسمها «مسك القلوب». الولية المكلمة لن يبدأ بالها حتى تحل اللغز، تظن أنها تنبش وراء قائل بشري استعمل الخنافس، ولا تدري أن زوجها قد واجه ماركًا هجينًا يسكن القمر. ربما ستطالبن بالجنّيات التي دفعتها نظير البحث قبل اختفائي! وربما ستدفع جنّيات إضافية للتشجيع!

ارتديت سُترّي القطيفة السوداء، البومباغ الحريري، ففازي الأبيض، فبعة أفرنكية تُضفي عليّ صفة الخبير العصري، والعصا المبرومة ذات مقبض رأس الصقر، «الأفرنكا كما يجب أن تكون!». تظلمت بشمسيتي فوق جدار حتى بلغت الضفاف فالتحذت مركبًا، عبر بي حتى جزيرة الروضة، ونشيت تحت أشجار الحمير العتيقة حاملًا صندوق الكاميرا فوق كتفي، حتى لاحت سراية عصمت باشا. حين عبرت البوابة الضخمة، عرفت الخادم العجوز اسمي فنظر في دفتره، ثم تسلم قبعتي والبالطو والعصا، علقها على حائط مُزدحم بالمتعلقات الشخصية، وأشار إلى السلام فارتقيت وراءه. الحمس كان مُبهّما، غمضة رجال ونساء، تشرب من صالون الخنافس، فتح الخادم الباب، ثم أشار بالدخول.

الصالون، تم تنظيفه وتبديل الأثاث، مع إضافة بيانو، ولوحة زيتية لمنظر طبيعي، بحيرة وشجرة وفتيات بفساتين بيضاء وملائكة، أما الجمع، فكان سبعة أشخاص، الأرملة «مسك القلوب» تتوسط الحضور بفستان أسود مُطرز وشبك يتلى فوق جبهتها والعينين، تتحدث بملامح قلقة مع رجل في منتصف الأربعين، مُكتحل العينين ووسيم، ورجل آخر، بدين، ذي لحية بيضاء كثيفة مثل الأرنب، ونظارة سمكية، لم أتشكك للحظة أنه خواجه باخوس اليوناني، الجواهرجي الشهير وزوجته الجميلة أدلين «الصديقة الحميمة لجشم أفت هانم زوجة أفندينا الثالثة». على اليسار وبداخل صحابة من دخان السيجار، وقف حافظ باشا أغا، ابن إبراهيم أغا، أغات باب القلعة عهد الباشا الكبير، وصاحب فابريكة النسيج الكبرى ببولاقي، ومن أكثر شبّات المحروسة عناية - بعد أفندينا - رغم صُلع مهيب في وسع الصحراء الغربية، بجانبه حرمة نمره خمسة، فاتنة بيضاء تصغره بامتئين وخمسين عامًا. في الركن، بجانب الطاووس النحاسي، وقف خنزير البرك، ضبع السُكك، الرُمّي، بوراك الأرناؤوطي، مفتش قواصة شرق جهنم إن شاء الله، قطعة خيار مخلل لا أدري من الذي دسها وسط طبق الحلوى، وبالطبع ليس لتلك الفصيلة وليفة صالحة لزيارة الأكابر من الناس.

ما إن دخلت حتى التفتوا نحوي جميعًا، رمقوني للحظة، ثم عادوا لثروتهم وكأن العبد لله كلب ضال مرّ بخرابتهم، مال بوراك على الحرمة مسك، صُحب في أذنيها استنكارًا واستقباحًا، فابتسمت بكياسة وهمست بكلمة، ثم انسلت فاتجهت نحوي، تجر حزنها، وذيل فستانها، قبلت يدها الصليمة وسألتها عن جرح الأخرى، فحمدت الله على الحال: «رغم أن الذراع لم تعد تتحرك»، ثم همست: «سليمان أفندي، أشكرك على تلبية الدعوة، تعمدت عدم البوح في رسالتي عن سبب الزيارة، حتى لا تتردد في القبول، أتعشم ألا تندم على موافقتك»، هززت رأسي بابتسامة مصطنعة وتلوى قولوني من مجهول لا أعلمه، وقبل أن أشرع في المجاملة

وأخبرها نفاقاً أن «تعبك راحة يا ست الكل» سألتني، إن كنت عثرت على خيط يفود للقاتل، فأخبرتها - تحليلًا للجنيئات الخمسة حتى لا تطالبني بها - أن الحادث ليس جريمة فردية، بل وراءه مؤامرة محبوكة، وأن مقتل عصمت باشا يقدر الختافس، ليس إلا جريمة في سلسلة جرائم بدأت بعزت باشا الدفتردار، وانتقلت من بعده إلى ضحية ثالثة، الحرمة همت إسحاق، سلسلة تحكمها أسباب مبهمة، وقائمة محددة مسبقاً، تحمل أسماء سبع ضحايا، تم شطب ثلاثة منهم.

ضرب الفرع وجه الحرمة فقلت لنفسي، كنت لتتزي من أنفك وعينيك يا حرمة إن عرفت بشأن هجين القمر، ثم باغتتني بسؤال، عن داغر بك، وما رأيه في هذا الأمر، فتجبرت، بين البوح بما بدر منه من إقصاء مُهين، وتنحية عن المهمة، وبين الكتمان لحفظ ماء الوجه، وكان الكذب دائياً وأبدياً، مُنجيًّا من المهالك، أخبرتها أن أمر القضية بيدي، وأن داغر بك يثق في رأيي ثقة عمياء، ثم سألتها إن كانت أو زوجها على صلة بإحدى الضحيتين، فأخبرتني أن زوجها وعزت باشا كانت تجمعها صداقة قديمة، أما المدعوة همت إسحاق فهي؛ والكلام لها، «عاهرة عتيقة، فما ماضي، خطافة للرجال وتستحق الحرق»، ولم أسألهما إن كانت راودت عصمت باشا يوماً، فهي من تطوعت: «الأول أن تسأل من الذي لم تُراودد تلك العجوز الشمطاء؟ بعد قتلها زوجها أصبحت زي فوطة الختام كل ساعة في وسط»، ثم استدركت نفسها، مسحت الدموع حتى لا يسبح الكحل، واستطردت: «سنعقد الليلة جلسة تحضير أرواح»، تبخر ريفي في لحظة، ثم أردفت: «سيدبر الجلسة البروفيسور «باسكال راندولف»، وأشارت للرجل الأربعيني الكحيل: «طبيب الأرواح الأمريكي وخبير الماورائيات ذائع الصيت، فهو في زيارة عاجلة للقاهرة، واستطعت أن أحجز معه موعداً، سيدعو روح الفقيد الخجولة للحضور، والحلول في جسد البروفيسور، وربما ينجح في التحدث إلينا وإفشاء اسم قائله أو أوصافه»، ولما استفسرت عن الحضور، أجابني بأن الجمع مطلوب لسلامة الجلسة، حيث يجب أن تكون هناك أرواح شاهدة، وأن يكون العدد فردياً، ومن أصدقاء الفقيد المقربين، حتى يطمئن بوجودهم ويستأنس الحلول: «المطلوب منك، التقاط صورة جماعية للحاضرين قبل الجلسة، وما يظهر في الصالون أثناء التحضير من ظواهر، دون حركة، دون صوت، ودون حدود للعدد، صور كما تشاء، وإن التقطت خيطاً أو كلمة تفود للقاتل، فسأجذل لك العطاء».

قالتها وتأملت وجهي، تريد أن تقتل الرفض في صدري وتهمني بسيف الحياة. ضاقت بي السُّبل فاستفسرت عن فائدة التصوير، وعلمت منها أن ذلك هو طلب الخبير الروحاني الأمريكي، ليدل على صدق قدراته، وليوثق الزيارة في كتابه العلمي الذي يُعده عن تحضير الأرواح، كما أنه يعتقد أن الفوتوغراف يُسجل أحياناً ما لا تراه الأعين»، وقد احتاطت للزيارة بوجود بوراك الأرناؤوطي الذي كان صديقاً مقرباً لعصمت باشا أيضاً.

يا حرمة، محتاط من الحية بالشعبان؟ ربنا يوفق البهائم.

أخرجت الكاميرا من الصندوق ونصبتها، وقررت استخدام لمبات المغنيسيوم لتقوية الإضاءة لحظة التصوير، ثم شرعت في تركيب ألواح الكولوديون، بوجل يملأ صدري، وبفيض من بين الضلوع، فقد قرأت مقالاً في صحيفة الديني تليفراف منذ شهور، يتحدث عن الجلسات الروحانية التي يُخاطب الموتى، وذلك البروفيسور «باسكال راندولف»، خليط عجيب يجمع بين إنكليزي وفرنساوي وألماني وهندي من سكان أمريكا الأصليين، وهو من الداعين لإلغاء العبودية، ويروج لفكرة أن الزنج مُقدر لهم الانقراض إن لم

يهاجروا إلى الهند، هُراء ودجل وشعوذة، وكتب مغرضة وجمعية علمية تُكرّس لأفكار مُهرطقة، ها هو ذا أبراهام لنكولن، مسيخهم الدجال الذي أراد إلغاء الرق، قد اغتيل، ومستتشر قُلوله كالنمل بعد تدمير جحوره، ليثبوا خبث وظلم المساواة في أدمغة الأمم فيُفسدوا العقول، علامة من علامات نهاية الزمان. الحرمة المسكينة «مسك» تتعرض لاحتياح مُستتر، شأن كل الأرستقراط المُدللين الذين لا يُدركون حجم ثرواتهم، خاصة حين يترملن، بل وتُتوج الجلسة بدعوة «بوراك الأرناؤوطي»، الرجل الذي يُشبه أولاد الخنفسة «لا يتاكلوا، ولا يتلعب بيهم». اقرب مني، حاتم حوي. ضبع جانح، رمق الكاميرا باستخفاف، ثم خفخف كالخنزير: «لولا داغر بك، لدُفنت في الفرقول، لعلك تعتقد أنك بتلك الألاعيب ستصير يومًا من القواصة، أخشى أن وجودك في المارستان الذي هربت منه أقرب، ولا تظنني غافلاً عن امتصاصك لدماء الأرملة يا ساكن لوكاندة الوطاويط»، نجتبت الاصطدام بشنبه وهو يلتفت للجمع، ودعوت الله في سري أن يكون اسمه في قائمة المهجين القمري، وإن لم يكن، فسأقترح إضافته في الزيارة القادمة.

حين انتهيت من ضبط الكاميرا، رُضت الكراسي للسيدات، وحُشر بينهم الدجال الروحاني الأمريكي، ومن ورائهم اصطفّت الرجال، التفتت الصورة على إضاءة النجفة - وتعمّدت أن أطلب من بوراك تحريك وجهه لترتفش ملاحه - قبل أن يجلسوا حول مائدة خشبية مُستديرة أتى بها الخدم. ثمانية كراسي، جلسوا جميعًا، رجل فامراة فرجل، عدا كرسي شاغر بجانب مسك هانم، وُضع فوقه شِاعة تحمل قميصًا أبيض كان لعصمت باشا، وأمام كل منهم كوب زجاجي يصف مملوء بالمياه، تسبح فيه زهرة لوتس زرقاء نظرة. أطفئت شموع النجفة، وأشعلت سبع شمعات فوق المائدة، وتركت الشمعة المُقابلة لقميص الباشا وكرسيه مُطفأة. أغلقت الستائر والأبواب، ووقف العبد لله في زاوية مُقابلة للمائدة، وجهت العدسة للجالسين، وضعت لمبة المغنسيوم الأولى، واستعددت لضغط الزناد، ثم بدأت فقرة الشعوذة.

المسيخ الأمريكي، طلب من الحاضرين بسط كفوفهم مُنفرجة الأصابع على المائدة، ومُلامسة الأنامل بحيث يصنعون دائرة مُغلقة، ثم أمرهم بإغماض الأعين والتزام الصمت التام، وحدجني بنظرة أميرة، وسبابة ناهية أمام فمه حتى أذعن، ثم أغمض عينيه هو الآخر، لعشر دقائق، كانت كافية أن تعناد عيناوي الظلام، راقبت ساقيه الثابتتين تحت المائدة، يديه اللتين لم تتحركا، الستائر الساكنة من ورائه، وناار الشموع التي كفت عن التهايل والارتعاش، أبحث عن الخدعة، الملعب، عن المُساعد الخفي الذي يمسك بالخيط الشفافة لبيت الخوف في الجالسين. ولكن، لا شيء، ولا أنكر أن الصمت والشموع، دقات قلبي العالية والجراد السكير اهاتم حول رأسي، واهمهمات التي بدأ الروحاني في إصدارها، بلُغة لا أفقهها، هيات لي أن زهور اللوتس في الأكواب تلتف، بل هي تلتف، مثل عباد شمس، بلا شمس، تتجه لِقَبلة الكرسي الشاغر، هيات لي أيضًا أن الظلال المعكومة على الجدران من حول الجالسين، تتضاءل، تنقزم، وكان الشموع تستطيل، بل الشموع تستطيل، كفروع البلاب، ترتفع فوق رؤوس الجالسين، وتتضاءل الظلال على الحائط، عدا ظل واحد لم يتضاءل، ظل قميص الباشا، تضاعف حجمه على الحائط من ورائه، ولم يكن ذلك ما أفرغني، ونصب شعر جسدي، لقد كان الرأس، الرأس الذي نما للظل، رأس يعتمر قِدرًا لها ذراع، خرجت من فتحة الرقبة. لقد حلّت روح الباشا، حفير الخنافس، وحتى يكتمل الفرع، اشتعلت شمعته دون أن تمسها نار.

لانت ساقاي من تحتي، أعواد سباجيتي مسلوقة، انتابتني البرودة وتعرّقت، وتشابكت أحبابي الصوتية

فتعصت الصرخة على الخروج، الظل الثامن يتحرك، الظل الثامن ينظر تجاهي، دعوت الله أن تكون كلمات بوراك الأرنأووطي صحيحة، أفضل أن أصير مجذوبًا محرقًا، أسكن المارستان إلى الأبد، عنى أن أجتمع في غرفة مُغلقة مع روح قتيل يرمقني. ضغطت زناد الفوتوغراف - لا إراديًا - والتقطت صورة، لعلها تكون صورتي الأخيرة، وفتح ظل القتيل فعه في صرخة مُدوية، بلا صوت، وأشار نحوي، فتوقف قلبي لحظة، ضربني الدوار، ومالت من أنفي الدماء ساخنة، قبل أن تنتهي الهمهمات بغتة، ويأمر السيد المسيح الجالسين بفتح أعينهم دون كلام، وما هي إلا لحظة حتى استوعبوا أن شمعة القتيل أُوقدت، وأن الظل الكبير على الحائط وراءها، صار له رأس، فصدرت عن النسوة صرخات كنتمتها الأنامل، تلاحقت أنفاس «مسك» هانم، وجحظت عيناها حتى كادتَا تخرجان من محجريهما، فضغط المسيح على رصغها تثبيتًا، وأمرها بالصمت والهدوء احترامًا لروح الباشا.

بعد لحظات، ساد الهدوء وسكنت الظلال، فتألمت نفسي، بذلت لوح الكولوديون ولبة المغنسيوم، ثم التقطت صورة أخرى، ظل الباشا أشاح بنظره عني، وبدأ المسيح الأمريكاني في الهمس في أذن الجواهرجي حتى يترجم للعربية: «هل نحضرنا روح الفقيذ العزيز عصمت باشا؟ إن كانت الإجابة بنعم فالطرق عنى المنضدة مرة واحدة، وإن كانت الإجابة بالنفي، فالطرق مرتين»، ساد صمت طويل، ثم ارتعشت الشموع من رياح لا مصدر لها، قبل أن نسمع خبطة واحدة، ارتعدت فرائص الحاضرين، ورجوت مئائتي ألا تفضض عن همومها، فالوسيط الروحاني المُعتبر لم تتحرك قدماء تحت المنضدة، المسيح كان مسيخًا، وكنت أنا رئيس المجلس الأعلى لليهود الذي ظلمه وأنكره.

مرت لحظات، حتى تألمت الأرملة نفسها: «أيتها الروح المُعذبة، روح عصمت باشا، نرجو منك الإرشاد والتوجيه، حتى نستريح في مقامك الأبدي، ونستريح أرواح أحبابك في العالم الغائي، هل تعلم من الذي قتلك؟»، بعد صمت، سمعنا على المائدة طرفة، اهتزت الأكواب، ولمحت البول يسع بسلاسة بين قدمي زوجة الجواهرجي اليوناني، روح الباشا تعلم قاتلها، تلاحقت أنفاس مسك هانم وانتعش وجهها بالأمل، واعتري الحاضرين ترقب صامت، كصمت القبور، حتى بوراك الأرنأووطي، رغم كونه من فصيلة الضباع التي تأكل فريستها قبل قتلها، كان يعتصر أصابع حافظ باشا آغا من الرعب حتى كاد يكسرها.

السؤال الثالث جاء بعد أن أخرج الوسيط من جيبه مجبرة، أدار غطاءها ودسَّ بين قلم، ثم وضعه على ورقة في منتصف المائدة، وأمر الحاضرين بالتزام تلاحم الأيدي والصمت، قبل أن يطلب من الروح كتابة اسم القاتل، اتخذ الأمر دقة، ثم اهتز القلم، وبالكاد انكمت الشهقات. ثواني إضافية، قبل أن يتحرك بضعة مستimmers، ثم ارتفع في الهواء بغتة، فنذت عن إحدى النسوة صرخة، وضغطت أنا على الزناد فالتقطت صورة، وضيقت عيني في محاولة يائسة لرؤية خيط شفاف يرفع القلم الذي ظل معلقًا للحظات قبل أن يهبط على الورقة ليكتب حرف «أ»، ثم توقف، انحبست الأنفاس، قبل أن يتبعها بحرف «ل»، إل... ماذا؟ طالعت اللحظات، ثم أكتب حرف «م»، وتبعه «ش»، ولم أبذل جهدًا إضافيًا لأستتج قبل أن ينتهي، أنه يكتب «المشاعلي»، انتهى القلم من الكتابة ثم ارتفع أعلى المائدة، كاد أن يلامس النجفة، ارتج، وهبط بسرعة فاستأنف الكتابة، حضر الورقة بثلاثة أحرف أوقفت الزمن، وغيرت مصير الجلسة، «ه»، «ن»، «ا».. المشاعلي هنا! ماذا يقصد؟ وكانت الإجابة أن سقط القلم ميتًا على المائدة، وتحضب الفميص بدماء داكنة، نشعت من فتحة الرقبة ونزلت حتى الأكمام، فصرخت النسوة، خرقن طبول الأذان دون استثناء، ثم قُمن

يتعثرن في ذيول فساتينهن، وفشلت محاولات المسيح الأمريكاني في تهدئتهن، وتخبط الرجال في كراسيهم، فاتجه بورك للباب، حاول أن يُدير المقبض، ولكن الباب كان مغلقاً بالفتاح، خبط بعزم ما أوتي وصرخ في الخدم، فتضاعف الملع، ونزف القميص حتى أغرق السجادة، ثم انطفأت الشموع بغتة، يريح لا مصدر لها، فتحركت من مكاني، باسطاً يدي للامام حتى لا أخط أحدهم، الخدم يدفعون الباب من الخارج بأكتافهم: «أين المفتاح؟ من أغلق الباب؟»، زحفت تجاه الباب، جاحظ العينين، حتى اصطدمت بحائط فتكومت. الأرملة تصرخ، تنادي اسم زوجها، الظلام يستدعي أسوأ وحوشي، والصريخ يمزج أعصابي بأسنان فار صحرأوي مُدببة، وما هي إلا لحظات، قبل أن ينكسر كالون الباب ويندفع الخدم حاملين الشمعدانات ليبدوا الظلام، المسيح الروحاني يقف قرب النافذة، النسوة مُنكمشات يحتضن بعضهن بعضاً في الركن، الجواهرجي يقف وراء بورك الأرنأوطي مُتحفزاً، وحافظ باشا أغدا، كان الوحيد المتناسك الأعصاب، جالساً على كُرسيه أمام المائدة، في نفس وضعيته، لم تُروعه الظلمة ولم يتفعل، فقط كان.. بلا رأس!



قلت منذ زمن، إن للتنفس رتابة مُملة، ولضربات القلب، وقّع، يشبه خبطات مُربعة على أبواب البيوت في الليل. وما تحمله الحياة من آلام، ومن فزع، من رغبات مكبوتة، ولهاث خلف الذهب، وتكالب على السطوة والنسوة، كليل بأن يُعيد المرء التفكير في جدوى الصمود والمضي، ما دُما ننهي إلى النسيان، إلى الفقد، إلى التلاشي، ولنا في قبور الفراعين عبرة، فالملوك العظام الذين ناكحوا الأرض قروناً، وأورثوها لأبنائهم كي يحلّوها، ما لبث الزمان أن بعثر أمجادهم بين أيدي اللصوص والغُرباء، وبيعت أجسادهم المحنطة في الأسواق؛ لذا فعلى المرء أن يختار النهاية بيديه، في الوقت الذي يعتني فيه قمة هرمه، قمة صحته، قمة سعادته، خير من انتظار الموت الذي يُباغتنا في أسوأ حالاتنا، حين نصير مهجورين، مُحزّنين مُتعتّنين، ومُتخوئين بالأفاعي السوداء.

ولأن العبد لله، ليس من عبيد الأرض الهالكين، فريد من نوعي منتصر على من حولي بقوة الفهم ودقة البصيرة، مبروك، ومُرسل من السماء، ومُزيد بالمعجزات، ورغم الكآبة التي تملا رثتي بالدخان، وخيانة عزيزة التي طعنت كليني اليسرى، ومرض عتّر المزمن، فقد عَهدت لنفسي أن أمهد طريق الحقيقة لمن هم دوني، وأن أنقذ من لا يصلحون للحياة، بالقضاء عليهم دون تفكير أو ندم.

لقد حذرت داغر بك من الاستخفاف بالهجين، وما هو ذا قد نَقَذ وعيده، وما إن أضاءت المصابيح صالون سراية عصمت باشا، وأشعل الخدم الشمعدانات، حتى تأكدت أن الزاحف الأعظم لم يقتنص صحيته الرابعة فقط، وفي نفس المكان الذي قضى فيه على صحته الثانية، بل إننا أمام فتان مُجدد، رسام لا تُسغه الألوان، وشاعر لا تسعه الحروف واللغات. فبعد انهيار زوجة حافظ باشا «مقطوع الرأس» وسقوطها على الأرض، وبعد صريخ الأرملة «مسك» المتواصل مما استدعى تلقيها صفقة من كف العبد لله، وبعد أن تقيأت زوجة الجواهرجي على السجادة الفارسية الغالية، استفاق بورك الأرنأوطي من هول الصدمة، فأمر بخروج الحريم من الصالون والإبقاء على الرجال، ثم استدعى حُراسه بنفخة في صفارته النحاسية، صاح فيهم آمراً متقمصاً روح نابليون بوتابرتة، بمرح أنحاء المراية، ومُحصرة المخارج والمداخل، ثم أغلق الباب والتفت نحوي، يُخفي الوجل ورعشة في يده، ويُتمتم بالاستغفار (زي المراكبيّه ما يفتكروش ربنا إلا وقت الغرق). سألتني إن كنت رأيت شيئاً، أو التقطت بالكاميرا ظلاً للقاتل، فأخبرته أن

العين لم تلاحظ شيئاً خلال وميض المغنسيوم، وأن عنيّ طبع الصور حتى أتأكد، وقبل أن يبذر شكوكه من حولي أو يطلب العون، أزحته، والتقطت مصباحاً من يد الخادم، تفقدت الستائر وما وراءها، دولاب الفضية والمسافة الفاصلة بين البيانو والحائط، لا شيء، الهجين تبخر من الصالون بفعل السحر، ثم اتجهت للمجثة، غاص حذائي في الدماء اللزجة، تأملت عروق الرقبة التي ما زالت تضخ بوهن، وضايقتني كثيراً عجزتي عن التحدث مع جسد بلا رأس، فدوّنت الملاحظات حتى أنفقدتها.

إلى حافظ باشا أغا،

تحية طيبة وبعد،

فعليك ألا تجزع، فقد ميتة مينة شرفاء اليابان، في زمن ينجبل الإنسان من العيش فيه، لقد اختار الهجين من أجلك، أن يتولى أصعب المهام وأجدرها على الوقوع في بئر العار إن أصابه الفشل، اختار أن يكون «الكيشاكونين»؛ المحارب الياباني المضطحي الذي يقف خلف الخطّائين ليطيح براءوسهم، رحمة لهم، بعد أن يبقروا بطونهم بسيف الساموراي الحادة. محارب جريء، نصله مسنون ومُصنفر على أجود الأحجار، سريع كالبرق، يشق الهواء بلا صوت ليهوي على العنق فيبتره بلا تردد، سكين يشق قالب زبدة، قبل حتى أن تُدرك أو تستوعب، ليطيح رأسك وهو يفكر، يحلم ويطمح، بأعين ترمش، وفم يُردد آخر حكمة أمّنت بها، قبل أن تسود الظلمة ويسكن الكون من حولك. اعلم يا سيدي أن وضعية جسدك لا تنم عن تشنج، كنت تُمارس الرجولة وتُدعي الشجاعة في وجود الروح، والموت جاءك أسرع من طلقة بارود، باغتك السيف من اليمين، حيث اثنت حواف جلد الرقبة للداخل، خاض بحرية، ثم خرج من اليسار، حيث تمثك الجرح وانفتح، بسيف لا يزيد وزنه على ثلاثة أربال، ولا يقل طوله عن متر، هوى عن رقبتك دون ميل، ودون أن يصطدم بالترقوة رغم الظلام، ضربة واحدة، دون أن يضطر للإمساك بشوكة شعرك - أنت لا مؤاخذه أصلي لا تملاكها - لتثبيتك، أو بإحدى أذنيك، وإلا استغثت وقاومت، أو كتبت جواباً تحكي فيه ما حدث، تمزّق لحمك، وكُسرت فقرات عنقك بقطعة تاهت وسط صرخات النسوة، ولأن كرميك مسند عالٍ، ومؤخرتك عريضة مثل كنية إسطنبولي، فقد حافظت على توازن جسدك وصلب ظهرك رغم فقدك لرأسك.

حين انتهيت من الكتابة وانحنيت لألتقط الرأس حتى أنقصه، وبعد مسح أسفل المائدة والأركان، لم أجد للرأس أثراً، وكأن الباشا جاء في الأصل بدونه، أو التقطه الهجين حين طار، وقبل أن يسقط على الأرض، في الظلام! ثم خرج بهدوء! من أين خرج؟ فالنافذة والباب لم يفتحا. أشعلت شموع النجفة دون المساس بالمجثة، والتقطت عدستي المكبرة، لأتبع نقاط الدماء، ومن العجب، أن كل ما عثرت عليه كان نثره مُكثفة على الحائط الأيسر، تجاه خروج السيف من الرقبة، مما أوحى إليّ بأن المشاعني، الهجين، الزاحف، «مسرور السيف»، ربما ضرب العنق بعد أن وضع على الرأس كيساً بلا مسام، أو لأنه يملك عينيّن كأعين السنوريّات، ترى في الظلام الدامس، شق العنق والتقط الرأس قبل أن يمس الأرض.

بعد دقائق، أعلن حرس الأرنأؤوطي خلو السراية من القاتل، تسلسل منها وذاب مثل الملح في الماء، فجأة انتفض الأرنأؤوطي مثل البغل المتعافى، بعض من يمشي أمامه، ويرفس من يمشي وراءه، أراد تفتيش حقيقتي والكاميرا الخشبية فرفضت بامتثاته، حتى لا يحترق الفوتوغراف الذي يحوي صور الجريمة، وحين استخرج سكينتي من سُترقي، أقنعت به بعد مُعاناة، أنها مخصصة للحياة فقط، فتش بعدها حقيبة الوسيط الأمريكيّ، بحياء، قبل الإفراج عنه، وتحفظ على كاميرتي، ثم أرسل في استدعاء داغربك.

وقفت في الطريقة وأشعلت سيجارة، وشرعت في ترتيب أفكارى لحصر المشتبه بهم. استثنت السيدات، وقارنت هيئة الوسيط الخواجة، بجسم المهجين الذي زار بيتي يوماً، وكان البون شامعاً، فالهجين عريض الكتفين مفتول العضلات، والوسيط هزيل، له أكتاف امرأ، أما الجواهري اليوناني باخوس، فيسنة وهيئته لا تساعدان في بتر رأس فأر، لم يبق إلا بوراك، الطول والعرض يتشابهان، والصوت يسهل تغييره، الوحيد الذي يملك سلاحاً، وإن لم يحمل سيفاً، الوحيد الذي بدأ الجلبة وخبط على الباب، تأملته من بعيد، ولولا جبهته التي لا تحمل أثر حرق لانتهمته.

بعد دقائق قطع خيط التفكير اصطدام أحد القواصة بالشمعدان النحاسي، ولعجب، لم يترنج الشمعدان أو يسقط من ثقله، فهو من النحاس غير الأجوف، اقتربت فأمسكت بجذعه، ورفعته بعد جهد مُضني، حين وصل داغر بك: «ماذا تفعل؟ تعال وراني»، دخل الصالون يدب بساقه الخشبية مُنزعجاً مفزوعاً، تأمل الجلبة وقاوم التقيؤ، ثم نظر في عيني ملياً وزفر: «ماذا حدث يا سليمان أفندي؟»، قرأت له فحوى ما دونته في مفكرتي، وأضفت إليه ما توصلت إليه بشأن المهجين، وخبر زيارته غرفتي، وما حدث من بعد إقصائي، ولم أنس التشديق باللوم والعتاب. استمع بحرص، ثم استنرد: «لقد نيتك عن الخوض في تلك المسألة، ففي عينيك مَسٌّ، وفي كلامك جُنون، وهأنذا تنحشر...»، قاطعته: «دون إرادتي»، رمقني بنظرة ثم أكمل: «ويكون لك نصيب في حضور القتل، لا أجد في نظرتك للأمور عقلاً أو وعياً، ولا في مظهرك العجيب ما يطمئن له البال»، وما هي إلا لحظة، وأتى من أقصى ميدان الرميلة فواص يسعى، انتهى من نهيجه ثم قال: «لقد وجدنا رأس حافظ باشا أغا».

انطلقت بنا خيول عربية داغر بك، يتقدمنا العبيد الحفاة بالمصابيح، يُفسحون الناس بالزجر والعصيّ، حتى وصلنا إلى ميدان الرميلة، الجموع كانت تسد سلام بوابة العُزْب، شق لنا طريق بينهم، فصعدنا لنكشف المشهد المهيّب، رأس حافظ باشا مشبوكة بخطاف من خطاطيف الماشية، يمر من العنق في التواء، ليخرج من أسفل اللسان المتلي، ومعلق طرف الخطاف الآخر بمقبض البوابة الكبير، وفي الفم، حُشرت العملة الذهبية بداخل ورقة مطوية، استخرجتها ففضضتها، وقرأت فيها أبيات شعر لابن القيم:

إذا كنت لا تدري فتلك مصيبة
وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

وتحتها كُتب: «تلك أصحيتي الرابعة، ويتبقى في رقبتي ثلاثة رؤوس ظالمة، كان يجب أن تستمع لساكن لوكاندة بير الوطاويط، قبل أن يسبق السيف العذل»، امتقع وجه داغر بك، فحدثني نفسي: «أدي العيش لحبائزيه ولو ياكلوا نُصّه، ولا تكن حمّازاً حجازياً عنيداً».

أنزل القواصة الرأس ووضعوه في زكية، ثم أمرني داغر بك باتباعه، دخلت وراءه إلى القلعة، وقفنا في حوش الديوان بجانب النافورة الأندلسية، وقوّرما صرف الحراس والقواصة، وقبل أن أسأله عن بيت الشعر المكتوب في الورقة ولماذا امتقع وجهه حين قرأه، أخرج من جيبه رسالة، ووضعها في راحتي، قرأت فيها بيت الشعر الذي انحشر في فم حافظ باشا، وتاريخ اليوم، فالهجين أرسل ميعاد القتل. قال مبتور الورك: «حين استقبلت تلك الرسالة، لم آبه، ظننتها مُداعبة من شخص سمج، الآن أدركت أن القاتل يُراقبني، وللتوّ تحدث عنك فأنصفك، ولا أملك إلا أن أمرك باستئناف البحث، مع الامتناع عن ذكر أمر هجينك المزعوم أمام العامة، حتى نكشف هوية القاتل، هل تشك في فرد بعينه؟»، استجمعت أفكارى، وحاولت أن

اتجاهل القمر الذي يتجسس عني من بين السحاب، استأذنته فدهنت يدي ووجهي بالمرهم الواقى، وعرضت عليه الوقاية، فأبى مُشمئزًا كالجُهل، قبل أن أمسح بنفسا وأفند له ما توصلت إليه خلال الأسابيع الماضية: «لقد لاحظت أن القتل الأربعة، عدا الحرمة همت إسحاق، ينتمي آباؤهم للرعي الأول من جيل القلعة، رجال مُخلصون مُقربون من الباشا الكبير، كما لاحظت أن القاتل بعمده التشهير والتمثيل بالضحايا، يطلب أن يعلو صوته، وتشتهر قضيته، يريد للمسادة أن يفزعوا، ويريد للعامة أن يعلموا، وربما يشورون؟». هز داغر بك رأسه مؤتمنًا على كلامي ثم أشعل غليونه: «من قال لك إن الحرمة همت لم تكن من المقربين؟ لقد كانت مورد السلاح الأول للباشوات والأمراء عهد الباشا الكبير»، عقيبت: «ذلك يدعم نظرتي، فللقاتل ثأر يطلبه»، امتقع وجه داغر بك: «نحن في أيام عصيبة، الخلافات بيننا وبين الباب العالي تتفاقم، وأفندينا مُشتعل غضبًا، ربما هناك خائن بيننا، شخص يعمل لصالح الباب العالي يريد إثارة البلبلة بقتله رجال الباشا؟ لا أستطيع أن أطيح براء ومن القواصة، وأزج في السجون بكل من تحوم حوله الشكوك»، طلبت منه ضبط النفس، ثم أعدت رضى الأتكار مثل الفحم فوق المعسل: «القتل كدرجات السلم، ترتفع مرتبتهم وأهميتهم من الأدنى إلى الأعلى مكانة مع كل قتلة، أتوقع أن يكون الضحايا الباقون بداخل القلعة، في دائرة أفندينا المقربة، ربما أحد النظار، أو أفندينا بذات نفسه». أطاح داغر بك بغليونه إلى الحائط: «ليس هناك من يجرؤ على ثأر كهذا، وليس هناك رابطة حقيقية بين القتل حتى الآن»، التزمت الصمت لحظات حتى هدا ثم أردفت: «هناك مساران لا خروج عنهما، إما أن القاتل مُكلف من الأستانة بأمر من السلطان الغادر عبد العزيز الأول كي يقتل رجال القلعة المقربين، فتضعف همة أفندينا، وتنكسر شوكته، وهو ما استبعده؛ فلو أراد القضاء على الباشا نفسه لاختار السم؛ الوسيلة الأسرع في تحقيق الهدف، فلا معنى لجرح الجسم ما دام قطع الرأس يختصر الزمن. أو، أن القاتل يحمل ثأرا قديمًا، في تلك الحالة، لا مفر من أن هناك سرًا يجمع الموتى». وتوقفت عن الكلام فجأة حين صعق رأسي صُداغ غريب، سهم من الحديد اخترق جبهتي، فوق حاجب عيني اليمنى مباشرة، وضعت كفي على عيني لإراديا، وصدرت مني آهة، وكادت أسقط على ركبتي، فتوتر مبتور الورك، وقبل أن يستدعي الحرمس تجمعت نثرات الصورة المهرتة في ذهني دفعة واحدة، فتهاكت نفسي، وطمأنته أني بخير، ثم أخبرته أن: «هناك رابط يا سيدي، رابط قمر من تحت عيني دون أن أنتبه؛ فالقاتل يقتل ضحايا بطرق عجيبة، حرق بعد قطع أير وحشره في الفم بالقوة، ثقب رأس بالخنافس تحت قدر مُحكم، دس السيانيذ في التبغ، وقطع الرأس بسيف ثم تعليقه في باب القلعة»، طُرق عفا عليها الزمن، طُرق لا تنتمي لذلك العصر، ألا يبدو ذلك مألوفًا لك؟»، لمعت عيناه بما قصدت فأردف: «طُرق المماليك في القتل»، أمنت على كلامه وأحكمت الاستتاج رغم الألم الذي ينشر جبهتي ويغوص في فصي الأيمن: «القاتل كان يث رسالة واضحة، نعود لزمن المماليك؛ فالضحايا، وآباؤهم من قبلهم، كانوا حاشية الباشا محمد علي، تجمعهم صلة وثيقة في زمن مليء بالخائنات والمؤامرات، كانوا مخلصين، ولكن ذلك لا يعني أنهم لم يظلموا أحدًا، كما أن للاغتيال علاقة بالمال، فالقاتل ترك مع كل منهم، عملة ذهبية فئة العشرة قروش، تحفور عليها تاريخ سك ١٢٢٣هـ، مما يعني سنة ١٨٠٨ ميلادية؛ أول عملة تضربها دار سك العملة في عهد الباشا، ربما أراد أن يُذكّرهم بما استحلّوه في كروشهم يومًا، فلا أعتقد أنه يدفع لملك الموت ثمن نقلهم إلى العالم الآخر مثلما اعتقد الإغريق والرومان! ويُلقب نفسه بلقب يبعث الرعب في النفوس؛ «المشاعلي»؛ مسئول الإعدام عهد المماليك الغابر، وأخيرًا، الأسد الخشبي الأسود؛ إشارة الإعدام، علامة نزول العذاب، وليست مصادفة، أن يكون رنك الأسد، هو علامة السلطان المملوكي

الظاهر ببيرس، أقوى سلاطين المماليك، كما لا يجوز للضحايا أن يجهلوا كنهه، فلا معنى أن يُرسل القاتل رسالة مُبهمّة قبل زيارته، بل أكاد أخيل أن وقع رؤية الأسد الخشبي على الضحايا، كان اليأس التام وانقطاع الرجاء. إذا أردنا أن نمنع اغتيال الثلاثة الباقين، فعلينا أن نُشهر أمر القتل ونفشيّه بين كبار الحاشية؛ باشوات وبكوات وأمراء، وأن نكشف صورة لتمثال الأسد المذيل بتوقيع المشاعني، في الوقائع المصرية، وننتظره أول من يرفع يده بين رجال الحاشية القدماء، لنصنع منه طعماً.

حين انتهيت من الخطبة العصماء التي لم أنتفس بين كلماتها مرة، نفذ الشهم الذي اخترق جبهتي من مؤخرة رأسي، طار أسرع من طلقة بندقية، ساحباً عني معه، فاصطدم بحائط قريب، في الشام. سقطت من فوق جبل سانت كاترين، لأستقر على أرض حوش الديوان، بين قدمي مبتور الورك، كان ذلك آخر ما أدركته، لا أدري كيف مُلّحت؟ لا أدري كيف رفدت فوق كتية مكسوة بالقטיפه الحمراء؟ في صالون مُذهب لم أر له مثيلاً في الأرض، ولا أدري لم يداي مُكبّلتان؟

اتخذ الأمر مني لحظات حتى تعرفت وجوه الحاضرين، داغر بك مبتور الورك كان يقف في نهاية القاعة. بجانبى طبيب يُخرج سرنجة حديثة من ذراعي، علمت بعد قليل أنه الألماني «دي ليو» بك؛ كبير أطباء أفندينا، ورجل فخيم ذو كرّش مهيبه يرتدي بذلة الأفرانكا مُزينة بدبوس من الياقوت، يُشبه أفندينا طيّق الأصل، اتضح بعد لحظات، أنه أفندينا إسماعيل بذات نفسه، انتفضت، وحاولت أن أفز احتراضاً، فاكشفت أنني مربوط بذراع الكتبة. «استرح، قالها أفندينا بصوت رخيم، وفهمت بعدها أنني كنت أتحدث مع داغر بك حين سقطت فجأة في حوش الديوان، هبوط حاد، تبعته تشنجات عضفت فيها يد أحد الحراس وهو يرفعني، كان ذلك حين لمحنى أفندينا من نافذة عالية، فطلب لقائي، خاصة حين علم أنني سليمان السيوفي. حكيت ما حدث، منذ استكراني داغر بك للتحقيق في أول قتلة، وحتى فحصت رأس حافظ باشا التي علّقت في باب القلعة. وأراد أفندينا أن يستزيد من علمي، فتجاذب أطراف الحديث معي حول السلطان عبد العزيز الذي يكرهنا جميعاً، وطلب مني النصع والمشورة فأخبرته، أن الخبيث لا يُعالج إلا بالخبيث، فشيمة سلاطين العثمانية الغدر، ولا ننسى ما فعلته السلطانة «صفية» زوجة السلطان مراد الثالث، حين ذهبت ثمانية عشر ابناً لزوجها من زوجات غيرها، فوق أيسرّتهم، في صباح يوم وفاته، لتُصّب ابنها محمد الثالث سلطاناً للعثمانية. فوافقني الرأي، وأثنى على مفهوميتي وتقديرِي للأمور، ثم نادى الخدم فوضعوا النارجيلة بيننا وشدّنا أنفاس الود والصداقة، حتى اطمأن لوجودي فصرف الخدم، وأمر لي هامساً - بعد أن وضع سن الأفيون تحت لسانه - أن الإشاعات المُتداوَلة حول تأمره وعمه سعيد باشا على قتل أخيه الأكبر، وولي العهد الشرعي «الأمير أحمد رفعت» في حادث سقوط الفطار من فوق كوبري كفر الزيات، حقيقة، ليست محض صدفة أو نظرية مؤامرة جاعحة، فالجسر كان مفتوحاً عن عمد، والمكابح كانت مرفوعة. «ومنذ توليت العرش، بات يزور أحلامي، كل يوم، يقف بين أشجار الحديقة، في الظلام، ينظر في عينيّ بلوم حتى تنحبس أنفاسي وأكاد أختنق قبل أن أنتفض مفزوعاً». وتحشّج صوت أفندينا فبكي مثل طفل، عزيز قوم ذل، ولم أتمالك نفسي، ربتُ على كتفه وبكيت معه، وأحفظته دعاء، بصرف الأرواح الهائمة، ثم قررت مشاركته الأسرار حتى أخفف عنه، فحكيت له قصة نعيمة الشركسية التي غرقت في النيل وهي تستحم، ثم ملّت على أذنه فأسررت له بأنها لم تكن تمتنح، بل كانت بصحبتي، تجلس في القارب الخشبي وقت العصاري، فارجة ساقيها الشركسيتين وقد انتهت من رغيف كباب مُعتبر لم تكن تعلم أنه وجبتها الأخيرة، فالعبد لله تغدى بها قبل أن تتعشى به، وما لبث الشّم أن تولى الدقة، احتقن الوجه الصبوح، تلوى من الألم،

ضاقَت الأنفاس، رفست بقدميها مثل الذبيحة وتشنجت، ثم خمدت وفاضت الروح، فربطت ساقها بحجر، وألقيتها في الماء لتغوص بين جثث الأبقار النافقة، ذلك نفس المصير الذي كانت تُضمِره من أجني، وكما يقولون: «جبت الدودة تقلد التعبان اتمطعت، قامت اتقطعت»، فعناية الله جعلتني أكتشف المؤامرة الكبرى قبل تنفيذها، الشركسية لم تكن إلا جارية من جوارى السلطان عبد العزيز الأول، أرسلها إلي لتتقرب مني وتُعاشرني، ثم تتخلص مني بدم السم في طعامي، أدركت ذلك بالصدفة البحتة، ولولا النباهة ما نجيت، فقد رصدت بانعًا متجولاً، يمر تحت اللوكاندة ظهيرة كل يوم ليُنادي: «حب العزيز، الربع أبو قرش، حلو ولذيذ، الربع أبو قرش»، وما كان من نعيمة إلا النزول إليه، كل يوم، لتشتري قرطاسًا، ترغى مع البائع الذي يرمقني، ولا يعلم أنني أراقبه من النافذة، العبيطة كانت تبث له أخباري، ولا تعلم أنني أفحص القرطاس الورقي كل يوم، وأني عثرت على صورة للسلطان عبد العزيز عدة مرات، بين مقالات الجورنالات.

بعد صمت، أثنى أفندينا - الذي أصر أن أناديه إسماعيل بلا ألقاب - على الخدق واليقظة والفظانة التي رآها في تصرُّفي، فاغتنمت الود، وأسردت له باني غير مطمئن لفكرة ترعة السويس، وشكيت له وطأة الضرائب، خاصة على أهل الجنوب، ووجوب إلغاء السخرة في أشغال حفر الترعة، وكذا تعويض الفلاحين عن فقدانهم الماشية جراء الطاعون البقري. شكرني، ووعدني التفكير في الأمر، قبل أن يصحبني في زيارة إلى غرف حريمه الشركسي لأنتقي منهن واحدة بدل التي غرقت، عربون محبة؛ لفئة كريمة منه ولبل لم يعد الزمان بوجود مثله. وكان ذلك ما أيقظ فؤادي وأجنى بصيرتي. فأفندينا، الرجل الكُمَّل، سليل المجد والشرف، لم يستطع كظم الحقد والحسد في قلبه، فمقابل صداقته، والشرف الذي ظن أنه أسبغهُ على سليمان السيوفي بلقائه ومشاركته الأسرار، أراد أن يستحوذ على عنتر! وكما يقولون: «يا أشخ في زيركم، يا أروح ما آجي لكم»، فإما أن أتوسط له بالدعاء حتى يُبعث معي، نبيًا، مثل هارون لموسى، بشرط أن يستضيف عنتر في قصره الجديد، ويضعه في قفص ذهبي ليعرضه على زواره الأوروبيّة، أو، يُرسلني مُكبلاً في مركب للأستانة، ليستفرد به السلطان الأثم - مواليد برج الدلو - عبد العزيز الأول. لم يقلها صراحة، لكنه نوه حين مر بصورة للسلطان، مُعلقة على الحائط، فتوقفت عندها، ونظر لي نظرة ذات مغزى. كيف علم بوجود عنتر؟ لا بد أنه يُراقبني من خلال بضاصيه، لم أشك للحظة في ضلوع الكلب بشاف، ولن أستثني يوم الشجر من التلصص على نافذتي، وإن كان السلطان عبد العزيز بجلالة قدره يغار من ذكائي وعلاماتي الحمراء على مؤخرات جواريه، ويعتبرني عدوه اللدود الأول بعد قبصر روسيا، ألا يجدر بإسماعيل باشا أن يحذو حذوه؟

ولأن العبد لله مُحَنَك أريب، صاحب فطنة، ولا يجوز له أن يختصني عبثًا من دون خلقه لفهم لغة النبات والتحدث إلى الذباب، فقد اصطنعت اللبن والانقياد، واعتمدت الحيلة ومارست الدهاء، أتلقى كأس النبيذ بابتسامة، ثم أسكبه في حوض الزرع، يناولني سيجارًا فاخرًا ويشعله من أجني، فأحبسه بين أصابعي، وأتحجج بضيق النفس قبل أن أطفئه، لم تكن ألعبيه لتتطوي عني، فكم تناقلت الألسن حكايات حول إتقانه دس السم في طعام خصومه.

ولا أدري حقًا متى انتهت الزيارة، فبسبب الألم الذي اعترى رأسي لا أكاد أذكر كيف خرجت! هل صاحبني أفندينا حتى البوابة؟ هل قلّدتني نيشانًا أو منحني نوطًا للشجاعة؟ هل أهداني كيسًا من الذهب؟ كيف امتطيت الحمار؟ وكيف وصلت إلى اللوكاندة؟ ومن الذي مرق كيس الذهب من جيبي؟ لا بد أنهم

رجال أفندينا، أرسلهم ليتعقبوني، ويتحينوا الفرصة لاستعادة الكيس مني، فأفندينا مثل الفراد، ما يركبش إلا على الجئت الضعفانة.

حين وصلت اللوكاندة، كان أول ما فعلت، أن أفرغت ألواح الزجاج من الكاميرا، ووضعتها في المحلول المظهر، وانتظرت شبح عصمت باشا الذي لاح في جلسة التحضير، حتى يتجلى في الفوتوغراف، ولكن ما رأيت كان مُشيراً بحق، فالصور كلها، بيضاء ناصعة، مما يعني أن الضوء تسرب للألواح الحساسة، ولم يكن ذلك ما أدهشني حقاً، فحين أضأت المصباح، وفحصت الكاميرا من الداخل، كانت الدماء تصبغ كل ركن فيها!

اتخذ الأمر مني ساعة لتنظيف الدماء، وساعات أخرى ليرتخي شعر رأسي من هول المشهد، أشعلت البخور وقرأت سورة الجن وعبدية يس، وسأحاول النوم، عازماً الابتعاد منذ الغد عن تلك القضية النجسة، فرأسي مُنهك من أحداث ليلة أمس، ناهيك عما حدث من أهوال وشذائد يشيب لها المرء في الأسبوع الذي مضى، سأوافيك في اليوميات القادمة بأخبار عزيزة، وما كان من شأن قسطة السودة التي تقيم في غرفتي.



في الأسبوع الذي سبق حضور جلسة التحضير الروحاني، وقعت أحداث جسام، جعلتني أفكر ملياً في وقعها وخطورة سردها على آذان العوام إن تسربت، وكذا جدوى تدوينها في اليوميات من عدمه، عاملاً بالمثل القائل: «تقرا مزاميرك على مين يا داود!». ثم تغلبت الرغبة في السرد - من أجل وعد وعدته إياك أيها الحكيم - كي ينصلح حالي ويخلو بالي، ولتكن تلك اليوميات التي طلبت مني كتابتها وثيقة تاريخية، وسجلاً أميناً لما حدث في المعركة الأرضية القمرية بين العبد لله والمهجين والتي دارت رحاها بدءاً من سنة ١٨٦٥.

كنت وقتها قد قررت التمتع بالأيام القليلة الباقية من حياتي، ضارباً بالعقرب الأحمر والأفاعي السوداء التي تنخرني عرض الحائط، تناسيت أمر المهجين بالاستعاذة والتعويدة، وتلاوة سورة القمر، فلا جدوى للفرع من نهاية قد تأتي عن يد هجين زاحف وأنا في حمى المولى، نيتي تحت التدريب، يؤيده بالمعجزات، وما كان مني إلا أن نظرت في المرآة، وقلت لنفسني، تيمناً يا سُلّم حتى تنزل عليك الرسالة، والفرح بها أنك ولا تبخل، حتى يأتيك اليقين.

وكان أكثر ما يشغل بالي ويُقلق راحتي، عدم وجود لغة تواصل تجمع بيني وبين قشطة، مُعجزتي الإفريقية. في اليوم الأول سخرت مجهودي في خوض أسواق العبيد، جمعت عشرات اللهجات واللكنات من أفواه الجلابة واليسرجية الذين يخوضون مجاهل إفريقيا حتى مصبات الأنهار، دونتها في مُفكرتي، وألقيتها على أدنى قشطة لينفك لسانها، ولا جدوى. في الليلة التالية، برقت في رأسي فكرة جهنمية، فخير لغة تجمع الشامي عن المغربي؟ هي النكاح. وحين يعجز الفم تتكلم الأجساد، وحيناً ستموء تحتي أو تصرخ بكلمة تكون بداية الوصال. اقتربت منها، قبلت رقبتها، نظرت لي طويلاً ثم التصفت بالحائط، وامتلأت العينان الزرقاوان بخوف يشوبه خجل، أعدت الكرة، لامست صدرها فانتفضت، فككت رداءها فارتعشت، وازدادت بالحائط التصاقاً، ابتسمت لأهدئ من روعها، فأغضت عينيها في استسلام، ولما سقط آخر ما كانت تلبسه، بدت كيمثال لامع من البازلت الأسود دبّت فيه الروح، احتضنتها، قبلتها بنهم، ثم جذبتها إلى الكنية فاستمسكت بالبلابل، ظننتها تتمتع، فحاططُ خصرها وانتزعته، خربشتني مثل قطة أصيلة، وما إن أدبرت حتى لمحت أسفل ظهرها، في نهاية عمودها الفقري، قبل عجيزتها ببوصة، ذبلاً صغيراً!

اتخذ الأمر مني لحظات حتى تمالك نفسي، رمقتني بعينين ملوّهات التوحش، وبخت مثل القطط، فالتقطت الكرباج وكرسياً، واستعدت بالله من الشيطان الرجيم وقد أدركت ساعته لم باعها الجلاب يسير بخس؛ لأنها ليست من البشر، بل بنت الأبالسة هي أقرب للقردة والنسانيس، ولا تملك لغة تتحدث بها غير المواء والخربشة، أو هكذا ظننت، حتى فاهت الكلمات من شفيتها الغليظة: «آي ألسوجيا إيمو راني، سي دو آي أجواري تيني كا ندو كا إيمو يو»، لم أستوعب كلمة مما قالت، لكنني أخفضت الكرباج فسكنت، ثم أشارت إلى صورة الجارية السوداء عن الحائط وقالت: «دي.. دي»، «ماذا تقصدين؟ هل تعرفينها؟»، كررت كلماتها حتى تفرقت عيناها، فاقتربت منها، جثوت عن ركبتي ومددت لها كفي، نظرت في عيني طويلاً ثم مدت أناملها، ابتسمت مُطمئناً، وحاولت عيني ألا تلتصصا عن الذيل الذي يتحرك خوفاً. أسدلت عليها رداءها، وغرفت بعض الفول الحراقي مع اللبن، ووضعت بجانيها تحت حائط اللابل لعلها تأكل. غمغمت بهمس مُبهم، ثم نهجت بصمت، قبل أن تنام، لساعة كاملة. تأملت، وأدركت لم لم ألاحظ

الذيل حين اشتربتها من الجلاب، فالضفيرة الغليظة التي تتدلى من رأسها حتى الركب، كانت كفيلاً بإخفاء معالم ذيل يتحرك، بالإضافة لخديعة الجلابة في بيع البضاعة المعطوبة. نصبت أرجل الكاميرا والتقطت لها صورة، ثم اقتربت منها لأتأمل الذيل، فقرأت عُصْعُص، بطول سبع بوصات، اتخذت طريقها خارج الجسم، ذيل أسود لامع يتحرك في هدوء، فوق عجيذة بضعة عضلية التركيب، لم أشك للحظة أن المسكينة إنتاج تزاوج بين البشر والفردة! وحين دققت النظر في صورة الحائط التي تُخفي وجه أمي، الجارية السوداء التي طلب سيدها التقاط صورتها منذ سنين، لاحظت التشابه، فعدا العينين اللتين لم تكونا زرقاوين، والضفيرة التي تبدلت بشعر خشن مستدير، الملامح كانت قريبة بشكل كبير، ربما هي أم لها، وربما هي فقط، تشير إلى واحدة من فصيلتها، ماذا تعني الكلمات التي تفوهت بها؟ من أي قبيلة أنت؟ وما سر الحصر المجروح بالمخالب؟ تكاثرت الأسئلة حتى غلبني النوم، لأستيقظ بعدها فلا أجدها، مسحت أركان الغرفة بعيني حتى لاحظت أقفال غرفة عنتر المفتوحة، والسلسلة التي لم تعد مُعلقة في صدري، وأصبحت معلقة بالباب. دللت عن أطراف أصابعي، قشقة كانت جالسة على الأرض، في وضع تربيع، عارية ومُغمضة العينين، ساكنة كصخور النيل الملساء، أمامها عنتر، على بُعد بوصات منها، في وضع تسديس، وجه في وجه، لا تخافه ولا يهابها، يُصدران همهمة ذات نغمة، وطفنقات، لها وقع روحاني عجيب، وما إن شعرا بوجودي حتى قامت قشقة في هدوء، وخرجت من الغرفة برشاقة، وذيل يتحرك في غبطة.

حين سألت عنتر عما دار بينهما، وكيف تسللت إلى غرفته، أخبرني أنه من أوحى لها بالدخول إليه، ثم مسح رأسه ومسح نفسه من سيجارة أشعلتها له، وأسر إليّ بأن المخلوقة السوداء من نسل ملوك الجنوب، وأنها خائفة وهاربة من مصير أغبر، تبحث عن أخت لها، توأم، افترقا منذ سنين طويلة حين خطفها الجلابة من قريتها التي تطل على النهر، ولم تعلم عنها خبراً طوال سنين، حتى رأت صورتها على حائطك. سألت عن الجرح الذي يُزين بطنها، فأفاد أنه حدث جراح يد نمر أسود ذات مخالب، بترها الجلابة بعد اصطياده، ثم ربطوها في مقدمة حربة، حاولوا بها اصطيد قشقة. أما الجلاب الذي هَامَ بها عشقاً، فنلك قصة خرقاء، كذب وافتراء، فالمركب الذي احترق في النيل قرب دارفور منذ سنوات، وأسفر عن موت مائة عبد وجارية، بعد إشعال أحدهم النار في نفسه رغبة في الانتحار، كانت تمويزة من السحر الأسود، صنعها ساحر قبيلتها، بغرض التضحية بأبناء القبيلة الذين اختطفهم الجلابة، قبل وصولهم للأسواق وبيعهم بمهانة، ولم ينبُج من الحريق إلا الفتاة ذات الحداق الزرقاء، لبسطادها مركب عبيد آخر ويأتي بها للقاهرة. «وماذا بشأن الذيل؟» قال عنتر، إنه وراثية عتيقة، ومتعة في المضاجعة فانت بني الإنسان، فمنذ نزل البشر عن الشجر، ضمير استخدامه وقلت فائدته، ولما كان التزاوج بالقبائل المجاورة ملعوناً في قبيلتها، لم يتشر الذيل.

ولما سألت عنتر كيف فقه لغتها، ومن أي قبيلة جاءت، أطفأ سيجارته وأردف: «هل يقدر أعمى أن يفقد أعمى؟ أما يسقط الاثنان في حُفرة؟ لا تستعجل القدر يا سليمان! فكل شيء بسبب، وكل شيء له أوان»، ثم أغمض عينيه وغاب في ثبات عجيب.

حين جن الليل، أشعلت مصباحي واقتربت من قشقة، نظرت إليّ فأشرت إلى صورة أختها ثم أشرت لها، كي تفهم أنني أدركت ما مرّت به، ثم أشرت لنفسي ونطقتم اسمي «سليمان» كي تعرفه، وما هي إلا لحظات، ونطقته سليماً، متبوعاً بكلمة «ويني».. «سليمان.. ويني»، لا أظنها سبّة، وقد تكون سيدي. رمقتني في صمت ثم اتجهت نحوي، أمسكت بكفي ووضعتها فوق جرح بطنها، ونطقت بكلمات لم أفرقه منها شيئاً، ثم

بدأت في تمثيل ما جرى، من محاولة لاصطيادها عن يد الجلابة، وسقوطها من فوق الشجرة قرب النهر، مجروحة وفي عداد الموتى، ثم إنقاذها واحتراق المركب. وخاتمتني عيناى، لم أستطع منع نفسي من تأمل ذيلها العجيب، فقالت: «انزي نزاي»، ذلك حتّى اسم الذيل في لغتها، اقتربت، سمحت لي بلمسه ومداعبته، وما لبثت حرارتها أن ارتفعت، كادت تشتعل، وأدركت أنها احتاجت حين أصدرت ذبذبات التزاوج مثل القطط، فوطأتها، بجموح لم اختبره من قبل، بل قل، وطأت الليل بنجومه وكواكبه وعفاريته، حتى لم يعد بإمكانى تمييز شيء في الغرفة عدا بياض عينيها، زُرقة البحر الهادر في الحدفات، الأسنان الناصعة، الوحة البيضاء في منتصف الفخذ، وفوهة بركان حمراء ترمى بشرر، صهرتني، وتولّى الذيل قذف الحميم في وجهي وإشعال الكنب من تحتنا، فتبخرت عذيرة، وتفحمت كل النسوة من قبلها، حتى أذن الفجر، فانطفأت النار السوداء، بعدما تركت على صدري رمادا مُعطرًا، وخربشات نقطة، ودون أن ترتدي لباسها، رشفت من اللبن رشقة بلّت نهدى الأبنوسيين، ثم تكومت بجانب حائط اللبلاب، شاردة في صورة أختها، وخشيت للحظة أن تستمع لهمس أم، لن تدخر مجهودًا لتشوّ سمعة ابنها وتفضح طفولته البائسة. وتحركت الشمس فوقها، فلمع الذهب والفضة تحت جلدها، ولم أملك نفسي من العجب، نهبت الكاميرا، والتقطت صورة، طبعتها ووضعتها بين يديها، فتأملتها طويلاً، ثم نظرت لصورة أختها على الحائط، فمسحت على ضميرتها، وأشارت إليها بالصبر، قبل أن أرثدي ملابسي، وأتوجه إلى شوكت نجيب؛ السيد الذي افتنى أختها يوماً، وطلب منى تصويرها نظير أجر مجز.

لم أنس البيت؛ لأنه قريب من الحارة التي تسكن فيها المدعوفة المحروقة عزيزة بدرب الجمايز. صعدت السلم وقرعت مقبض باب على شكل ريشة، ففتح خادم نوبي، طلبت منه مقابلة صاحب البيت فأشار إلى الصالون، وبعد انتظار، حضر الرجل. تذكّرت دون جهد، وحين اعتقد أني جئت ساعياً إلى رزق، أخرجت صورة الجارية السوداء التي صورتها يوماً بناءً على طلبه، فامتقع وجهه، ومن خلف نظارته لمحت الألم يتمطى، قبل أن يهمس: «فتحية.. مائت منذ ثلاث سنوات»، ثم قام ومدّ يده في عجرفة: «تشرفت يا أفندي»، فاستمهلته: «هل كان لفتحية أخت؟»، قطب جبينه فعاجلته: «هل كان لها ذيل؟»، ضرب الغضب ملامحه فأغلق باب الصالون ثم التفت: «ماذا تريد يا أفندي؟ من وراءك؟ أنتتمي للبعثة الإنكليزية أم النمساوية؟»، أخبرته أني لا أنتمي إلا للقلعة، وأخرجت له مطروفاً من مظاريف داغر بك المختومة، ودعوته لقراءة جزء من الرسالة بحثني فيها عن الحضور العاجل، فلما لبث أن صدقني، ثم جلس على الكرسي، وحكى ما كان من شأن الجارية فتحية.

لم يكن اسمها فتحية حين لمعها في وكالة «السلحدار» تتوارى بين الجواري، ونعم، كان لها ذيل قصير لامع، علم بوجوده حين اشتراها، كانت مجرد جارية تمتلك أعجوبة يطيب له استعراضها أمام الأصدقاء في جلسات السمر الخصوصي، حتى وقع في غرامها، فأطلق عليها أجمل اسم في الوجود؛ فتحية، اسم الست والدته رحمها الله.

رويداً رويداً، بدأ شوكت نجيب في اصطحاب فتحية إلى الحفلات والسهرات، ألبسها فساتين عصرية حرم في تفصيلها أن تخفي ذيلها، وخصص لها ماشطة، تمر بها كل أسبوع لترويض شعرها النائر المتمرد، لم يعد يعاباً بالنظرات التي تتبعه، تجاهل الهمس والوصوسة، ولم يخف على كل من حوله أنها أصبحت زوجته غير المعلنة، ذلك لم يخفف الحزن الذي تحمله فتحية في عينيها منذ وطأت قدمها سوق الجلابة، ولم يربط

قلب والد شوكت على حبيبة ابنه السوداء، والتي رفض بسببها بنات الأكابر من الأعيان. وما زاد الطين بلة، أن شوكت فاتح والد في الزواج من فتحية؛ لأنها تحمل حفيده، وكان رد الأب صفقة خرمتم طيلة أذنه: «أتريد أن يكون نسي من جنس القروود يا ابن الكلب؟!».

بعدها بأيام، داهم الأب غرفة فتحية، مُستغلاً سفرة تجارة لابنه خارج العاصمة، عرى الجسد الأسود ليتأكد من الشائعة التي تلازمها منذ باعها الجلاب، وحين رأى الذيل، هاج وماج واستغفر، ثم أقسم إن تلك الجارية ليست إلا بنت الشيطان ذات نفسه، وسيمنع تلك الزيجة بكل ما أوتي من قوة. ضربت فتحية بالكرباج حتى تمزق ظهرها، تلقت في البطن خبطات حتى أجهض ما تحمل، ثم كبلها العبيد، ونودي الحلاق فبتر الذيل بمنشار صغير، صرخت فتحية صراخاً تردد صده في أركان المحروسة، وانتفضت الطيور فوق الأغصان من وقعها. الأب كان حريصاً ألا تموت المخلوقة السوداء، حتى يكسر قلب ابنه، كي يعلم أن الحب مشروط، وأن أمماً سوداء البشرة، تملك ذيلًا، لا يليق بها أن تعمر إلا أغصان شجرة، وحتى يفهم، أن كل إنسان بربره على حنكه حلوه، حتى ينتقده الناس.

النزيف كان متفجراً مثل عين ماء ساخنة، يشفط الحياة من فعر الأضحية السوداء؛ فتحية، لكن ذلك لم يمنعها، وبحلاوة روح باقية، أن تنفض عن أذن الأب فتقضمها وتمضغها ثم تبتلعها في نهم، قبل أن يهشم الأب رأسها بمكواة حديدية.

ماتت فتحية، ومات قلب شوكت نجيب حين عاد من السفر، دفنها، ودفن الذيل بجانبها، ملفوفاً في قطعة حرير مُعطرة بالمسك، في مكان مجهول، بعدما ذاع خبرها، وراسلته بعثتان إنكليزية ونمساوية طلباً لفحص جثمان «فتحية أم ديل». وما هي إلا أيام حتى تفاقم جرح أبيه، وطالته غرغرينا قال عنها الحكماء إنها نار مسمومة، تسري في دمه، ولا سبيل لإطفائها، تسالت من أذنه إلى رقبته، ثم امتدت إلى ذراع يتروها دون تحذير لضعف مُزمن في عضلة القلب، قبل أن تصل إلى ساقه. وما هي إلا أيام حتى مات والد شوكت بعد أن شاهد أعضاءه تسبقه إلى القبر. رحلت فتحية دون أن يعلم شوكت لغتها، دون أن يعلم قصة جلبها من إفريقيا أو اسم قبيلتها، دون أن يعلم مير الذيل، ومغزى الحزن الدفين الذي يسكن عينيها، ماتت ولم يبق منها سوى الصورة التي التقطها العبد لله.

شكرت الرجل ورحلت بعد أن أخبرته إجابة السؤال: «الزيارة سببها شغف أفندينا بالنميمة والحكايات»، تلقى الكلمات بأسمى، هز رأسه في أسى وأغلق بابه. ميرت في الطرقات حاملاً في صدري نعيًا متأخراً قررت ألا ألقيه على أذن تشقة، لن يقيد المسكينة معرفة مصير توأم افترقت عنها منذ سنين، الكذب سيد الأخلاق، ما إن رددتها في نفسي حتى صادفت أنور أفندي أبو شمعة؛ زوج عزيزة النجمة، لم تقابل من قبل، لكنني عرفت ملاحه حين زار عزيزة في المستشفى يوماً وراقبتها من النافذة. استوقفته بلطف، خلعت طربوشي في أدب، عرفت نفسي باسم مُستعار يسهل تسيانه دون أن أخلع نظارتي الزرقاء، ثم همست في أذنه بأني فاعل خير، قبل أن أصب في أذنه مير عزيزة اللعوب، وما كان من شأنها مع النجار ابن اللبوة الملقب بسميد عمجوة، تطاير الشرر من عيني أنور أفندي، وكاد أن يمسك بتلابيبي حين أخبرته أن عزيزة بررت ما اقترفته بأن: «البعيد مأبون، ما يجلالوش غير نوم الأحباش»، تدفق العرق غزيراً من جبهته، أغرق قميصه وألان مفاصله، طلبت له كوب عرقسوس من بائع متجول، وتركته على كرسي فهو قريبة، محزوناً مغموماً، قبل أن أختفي فلا يستدركني ليسألني من أنا.

حين رجعت إلى اللوكاندة، وجدت قشطة قد وضعت لمستها على ما أحل لها لمسه من أثاث الغرفة، نقلت الكنبه التي التقينا فوقها إلى اليسار تحت النافذة، وأحاطتها بالشموع المشتعلة تقديسًا، اقتطعت بعض فروع الريحان من الحوض لتزين إطار صورة أختها، ورسمت على الحائط بقطعة فحم من النارجيلة، بتين سوداوين تشبكان أيديها، ومن ورائها بجعة بيضاء وشجرة وارقة. ابتسمت وقبلت يدها، وواريت الغم، ثم التقطت قطعة الفحم، تحررت مكانًا خاليًا بجانب رسمتها، وبدأت في وضع خطوط قصة من وحي لقائي بشوكت نجيب.

رسمت أنني تشبه قشطة، لها صغيرة غليظة، ثم أشرت لصورة فتحة فهمست: «تابيوا» غالبًا هي «فتحية» بالإفريقي، أدركت أنني أرمز لأختها، فبدأت ملاحظها، استأنفت، رسمت مركبًا مليئًا بالعبيد، يرسو في ميناء، وشابًا يمسك بيد فتحة ليقتل أصابعها، فابتسمت قشطة بأسنان كاللؤلؤ، وما لبث أن ظهر رجل بدين بملامح صارمة، وضع الأصناد في رصغ فتحة ووضعها على حمار، فاستولى القلق على رقة عيني قشطة، ثم رسمت فضيائنا، ومن ورائها أختها التوام، فدمعت عيناها، قبل أن يظهر الشاب الذي قبل يدها في بداية الحائط، تسأل من النافذة وكسر أصناد فتحة، حررها واختطفها عن حصان أبيض، قبل أن ينتفخ بطنها، وتنجب طفلًا، نصفه أبيض والنصف الباقي أسود، فضحكت قشطة بصوت عالٍ، شبكت أصابعها، وترقرقت عيناها بدموع الفرحة، فرسمت أطفالًا كثيرة حتى نهاية الحائط، ثم رسمت مركبًا آخر، فرمقني بحيرة وتساؤل، رسمت فيها أشرة «تابيوا» الجديدة، يضحكون ملء الأفواه، قبل أن يتعد المركب، إلى جزيرة جميلة، فوقها نخل وبجع أبيض وفواكه فوق شجر وارف، خفت ابتسامة قشطة وإن لم تغادر وجهها، أدركت أن توأمها تعيش سعيدة، في أرض بعيدة، مع زوج يحبها وأطفال يملئون حياتها، فاطمان قلبها، واحتضنتني بعنوية، قبل أن نسمع الخطب المأدب عن باب الغرفة.

ما إن فتحت الباب حتى اندفعت عزيزة كالعرمة الهاربة من كلب، بملاءة لف وبرقع يخفي الملامح، ألقتهما على الأرض في عصبية وصرخت: «ما الذي فعلت أيها المجنون؟»، فأخبرتها أن ذلك جزء كل من سولت له نفسه خيانة سليمان جابر السيوفي، ركضت للمائدة المتخمة بالبرطمانات، بعثرتها بغضب حتى استخرجت برطمان عشبة يوحنا الفارغ: «أيها الملعون، لقد امتنعت عن تناول العشبة»، وأطاحت بالبرطمان في وجهي، قبل أن تلحظ «قشطة» التي تكومت في الركن خائفة. جمحظت عينا عزيزة: «ما هذه؟ حقة، كل فولة مسومة لها كيال أعور، وإيه اللي بيلعب ده كيان؟ ديل!»، يا لنسوة! لن تخفين غيرهن حتى وإن وقفن أمام المولى يوم الحساب. التزمت الصمت، ولم يزلها ذلك إلا اشتعالًا: «يا وسخ يا رمة يا رمرام، أنت قلت لجوزي إن بيني وبين سيد عجوة كلام؟»، فأجبتها بهدوء: «بل قلت الحقيقة في زمن يخشى فيه الشجعان التحدث بلسان الحق، قلت إن الجنين الذي تحملينه يا ست هانم في أحشائك، ليس ابنه، وليس ابني، بل ابن عجوة الكلب»، فما كان منها إلا أن قفزت فوقني، جامومة متوحشة، خربشت رقبتني ونفست ذقني، وفي اللحظة التي ألقىتها أرضًا، دبت أصابعها في عيني فأعمتني، ونشت سكينتي الصغير من جيبي، وكادت ترشقه في صدري لولا دفعة من قشطة التي اعتلت ظهرها في خفة، وجذبت شعرها فسقطنا أرضًا، تقلبنا فوق السجادة، مثل الشاي واللبن، قطتان شريستان ما كانت كلاب الأرض لتفلح في التفرقة بينهما، مواء أسود وصرير أبيض، شد شعر، قرص بز ونشب ظفر، معركة لم تحدث من قبل في حريمي، ولم تنته حتى

استطاعت عزيزة تخليص نفسها للحظة، التقطت السكين، وقبل أن أصل إليها هويت به على ذراع قشطة، ولما عاودت الكرة، ولأن عودها مدملك، خانها الققباب، فانزلقت، ارتفعت الساقان الرخاميتان اللتان اعتادتا الجلوس فوق كتفي، وسقطت مؤخرة الرأس فوق حافة الطبلية التي أكلنا عليها الفطير بالعسل، سمعت طقة مكتومة؛ فقرتان تخاصمتا، تبعها نزيف من أذن عزيزة، علمت منه، أن السر الإلهي قد صعد.

لم أصدق أن عزيزة قد ماتت حتى لامست العنق وافتقدت النبض بين أنامي، انكفأت على بطنها لأنصت، لعني أنفذ جنيًا لا ذنب له فيما اقترفت أمه من آثام، التقطت السكين ومزقت الساتان ثم غرست أسفل منتصف البطن، خضت بأصابعي في الأحشاء الساخنة، وما هي إلا دقائق حتى استخلصت جنيًا ميتًا في حجم أصبع السبابة، له وجه ضيع بلا أسنان، وشنب يشبه شنب سيد عجوة، وضعته في برطمان نظيف، بجانب إخوته، وصبيت فوقه الفورمالين، وسط دھول أزرق في عيني قشطة التي ضمدت جرح رسغها، ووضعت عليه بعض البن.

أرجو أن تصدقني أيها الحكيم، العبد لله لم ينو قتل عزيزة مثلما قتلت نعيمة الشركسية يومًا، ومثلما قتلت أمني دون سبق إصرار أو ترصد، بل كان ذلك محض تدبير من العني القدير، ولم لا؟ ألم يقتل العبد الصالح علما وهو بصحبة موسى، بأمر من الله؟ بل وكرز موسى رجلا من أعدائه فقتله؟ ثم غفر الله له، ولا تفرقة في حكم الله؛ فالأنبياء مُساوون في المغفرة، وكل ما أردت، كان الانتقام من عزيزة، أن تتلقى جزاء خيانتها لسليمان السيوفي، ولكن، لا يدرك المرء كل ما يتمناه.

جلست أفكر كما فكر قابيل يومًا وهو ممسك بفك الحمار الذي قتل به أخاه هابيل، من أجل امرأة، ماذا يفعل بالجنان؟ ثم ظهر بالأفق غراب يُعلمه الدفن، وهأنذا أنتظر غرابًا أو ثعبانًا أو عنقاء، ثلثي على مسامعي اقتراحًا غير الدفن. كان ذلك حين أتاني جواب الحُرمة مسك القلوب، قرع الباب بشياف الفضولي، فواربت الباب وتلقيت الجواب الذي يدعوني لزيارة عاجلة، وما كان مني إلا أن انتهزتها فرصة لأعيد ترتيب أفكاري، وإيجاد الوسيلة المثلى للتخلص من جثة عزيزة.

دون مساعدة من قشطة التي جنحت إلى الركن البعيد، جرجرت جثمان عزيزة، ولففتها بالسجادة التي تغلغلت فيها الدماء، ثم رسمت بقطعة الفحم على الحائط وحشًا تحيًا ذا فم مفتوح، يقف خلف باب، وأشارت إلى باب الغرفة، ففهمت قشطة ألا تفتح لشخص حتى أعود. احتضنتها، وتأكدت من إغلاق باب الغرفة وراني ثلاث مرات، وكان ما كان من أحداث جرت ودونتها في اليومية السابقة: جلسة تحضير أرواح، مقتل حافظ باشا، العثور على رأسه مُعلقًا بباب القلعة، مقابلة داغر بك، الألم الرهيب الذي اجتاحت رأسي، ثم لقاء أفندينا «إسماعيل»، صداقة مُربية، وسرقة كيس الذهب، ثم العودة للوكاندة ببر الوطاويط، مُنهك الأعصاب. وبمجرد فتحي للباب كانت تنتظري بلوة سودة بالمعنى الحرفي للكلمة! أغرب مشهد قد يراه بشر؛ قشطة، ملاك الليل، جالسة القرفصاء في ركن الغرفة، عارية، مُحضبة بالدماء، أمام جثمان عزيزة مشقوق الصدر، البزاز مُدلية على الجانبين، الضلوع مفتوحة كوردة ناضجة، وبين أصابع قشطة الفاحمة، قلب عزيزة، تنهشه بنهم.

راقبتها للحظات قبل أن تلحظ وجودي، وللعجب! لم يصدر عنها ما يُوحى بالخزي أو الاستحياء حين أدركتني، استولى عني رعب لم يُزرن منذ هاجمني المهجين في بيت عصمت باشا، مَرَّت على جلدي فشعريرة ولم أملك نفسي فتقيات، ثم تمالكت نفسي فصرخت فيها، توقفت عن الأكل للحظة، ثم اندجحت ثانية،

تقطع بأسنانها الشفاف، وتغصص الشرايين كأعواد السباجيتي. اندفعت نحوها، هشتتها مثل راع يش نسراً يأكل جيفة نعجة من نعاجه، ولم تأبه، واضطرت في النهاية إلى مواجهة خوفي والتقبض على عضدها بعزم ما أوتيت وسحبها بعيداً عن الجثثان.

جلست فشطة بجانب الحائط دون أن تتوقف عن المضغ، حتى ابتلعت ومصصت أصابعها، الدم يخضب يديها والرقبة، وحتى ضفيريها الغليظة صارت أطرافها قرمزية، لم أجد لغة أو رسماً أرسمه بالفحم على الحائط أستطيع من خلاله سؤالها: «لم رفضت الكوارع العجمية والنبغة، والآن تأكلين قلب إنسان؟»، حين طال الصمت، أدركت فشطة حيرتي، ولمست الغضب في وجهي فهمست: «زاندي»، «أين سمعت ذلك الاسم؟»، لا وقت للرموز يا ليلة سوداء بلا نجوم. صمتت للحظات، وبالمصطليح الذي ابتكره المغامرون الأوروبيون أردفت بخجل: «نيام نيام». فتراجعت خطوة، ولو استطعت، لرجعت حتى يوقني سور الصين العظيم، سرّت عن الجلد قشعريرة في ارتفاع فيضان، وتوارت الأفاعي السوداء في عروقي وغلقت الأبواب. ربي، لقد تقبلت أمر الذيل عن مضض، وإحقاقاً للحق لقد كان مثيراً حين وطأها، وتفاضيت عن البشرة السوداء من أجل العينين الزرقاوين والنهد المتوحش الوثاب، لكن أن تكون جاريتي الأولى التي اشتريتها بكل ما أملك، معجزتك المهداة ونعمتك المسداة، سليلة قبيلة «أكلي لحوم البشر» والمعروفين بنيام نيام! قبائل الزاندي - الآن فهمت - أخطر متوحشي القارة السوداء، ذلك ما لم يخبره أولو العزم من الرسل، ولا حتى أخى يونس، فالحوت الذي التقمه لم يمضغه حتى. الآن حصص الحق، وفهمت لم وضع الجلاب الأصفاد في يدها حين سلمها لي، ولم عزها في غرفة وحدها دوناً عن زميلاتها، الآن أدركت لم لم أفقه لغتها؛ لأنها لغة أكثر القبائل رعباً، والجلابة، لا يملكون جرأة اختراق أراضيهم، وإن استطاعوا، فعليهم أن يواجهوا فكوناً لا يردعها رادع، وسحرة، أشعلوا النار يوماً في المراكب التي اختطفت أبناء القبيلة، دون ندم.

حدث الله أنها لم تأكلني بعدما وطأها، ودعوت الله ألا يكون الذباب العملاق من الأطباق المفضلة في قبيلتها، ما كنت لأتحمل فقد عثر أو افتراسه، ويبدو أنها قرأت أنكاري، فانزوت إلى الركن، وجعلت تلعق أصابعها مثل القطط تنظيفاً للدماء، وترمقني بخجل كلما نلقت الأعين.

حين استجمعت شجاعتي، أغلقت الأصفاد عن رسغي الأبنوسية، لم تقاوم، ثم فتحت أقفال غرفة عنتر، ودلفت إليه طلباً للمشورة. رفعت الغطاء عنه فرمقني بجيش من الأعين اللاتمة، وقبل أن أسرد ما حدث، قال بضيق مكبوت: «لا تحكم على آخر، دون فهم وتراحم، الفتاة السوداء لم تحتقر جيفة عزيزة، بل اختارت أن تكرمها، وتستخلص ما فيها من قوة؛ لذا أكلت قلبها، تلك شريعة قبيلتها، مثلها فعل البشر منذ آلاف السنين، ألا يأكل جنسك الحيوان؟»، أجبت بتسرع: «ولكن عزيزة ليست حيواناً!»، فاعتري عنتر غضب لم يأت من زمن، ضرب أفواء بجناحيه، وقذف بإناء الطعام إلى الحائط فحطمه، ثم اقترب مني وأوحى إلي بصريخ داخلي كاد يفتت عقلي: «أيها الجاهل، حين اصطاد البشر الثيران، كانوا يتنافسون للفوز بالأيض، ليكتسبوا الفحولة، وحين أكل ملوك الشمال قلوب أعدائهم كانوا يلتمسون الحكمة والشجاعة. أكل لحم البشر كانت عادة مارسها الإنسان قبل أن يغطيه الغرور والنسيان»، جثوت على ركبتي في أسف، فانزوي إلى الركن ليهرش رأسه ويحك أرجلاً لم تعد تتحمل ثقله، جثوت حجر النارجيلة وناولته التي في صمت، دخن حتى هدأ، ثم طلب مني ضبط النفس، والتخلص من بقايا عزيزة في هدوء، واحتضان فشطة دون لوم،

وتهذيب أظافرها: «هي الخلاص»، قالها وأعطاني ظهوره مُنهياً اللقاء.

كل حمار غشيم، يحتاج ذبابة كبيرة تلسعه، لإبقائه على قيد الحياة.

ما كنت لأجد مثوى لرفات عزيزة خيراً من مقام أمي، فهما يملكان نفس الرائحة. حشوت صدرها باللبلاب حتى لا تُداهمها الحموضة، وضغطت على الضلوع حتى عادت لمكانها وقد تكسر ما تكسر، ثم أحكمت السجادة حولها بالحبال، شرنقة مثالية ربما تُفني إلى صرصار ناضج. استأذنت اللبلاب في إزاحة الفروع مسافة تسمح بالعمل، قبل أن أخرق الحائط الهش بالمطرقة، واحشر رأسي في المساحة الخالية. ألقيت السلام على أمي فأمطرني بسباب سليل مُل لا ابتكار فيه، فأردفت مُقلداً الخنف: «نعم أنا العار يا ست الكل، مُشكرين»، وتجاهلتها براً بالوالدين، ثم استغفرت لها في سري، قبل أن أنصب جثة عزيزة بجانبها وافقة: «لن أوصيك يا أمي، كانت لتصبح زوجة ابنك يوماً»، وما كان من ست الحبايب إلا أن لمزنتي بذكرى كم أكره استدعاءها: «ابحث عن البرتقال في سوق الاثنين يا سليلان، رطلين بـسُرة ورطلين سُكري، لا نعد إلى البيت بدونه، حتى وإن قال لك الباعة إن يونيو ليس أوان البرتقال»، تلك كانت كلماتها حين تطلب غيابي لتختلي بشفيق وزه؛ صاحب السرك المتنقل. بنت الرفهي! أشعلت غضباً قديماً، هزت إصبعها الوسطى في استفزاز وضحكت ضحكة رنانة، فذكرتها بأبي، وما اقترفت في حقه، وكيف انتهى وجود سرك شفيق وزه المنسوب أمام بيتنا، مع اختفاء العشيق الذي أفسد طفولتي، بعد خمس سنوات من كحت سلام بيتنا بنعل حذائه الأحمر، ومن أجل ماذا؟ فالججر قصيرة والبزاز مدلية يا ست الحبايب، قصر نظر، ونجاسة، يستحق عليها أن يجده القواصة بعد الفجر، مُلقى في كومة زباله، مُصاباً بسبع وثلاثين طعنة نافذة، بين رقبته وزُركه، بعد خروجه مخموراً من بوظة عربي القط الواقعة خلف مسجد ابن طولون بحي الصليبية. من قال إن كيد النساء أقوى من كيد الرجال؟ رمت أمي على مسامعي الحميم، حتى أغلقت فتحة الحائط بالجبس، بعد أن تركت لها بعض اللب والبان الذكور، ونسخة مُتقحة من ديوان أبي العلاء المعري، طالما أظربني، لعله يكون نبيساً لها، بعد أن يتعلما القراءة والكتابة، ثم غرست بضعة مسامير في الحائط لتتسلق أفرع اللبلاب عليها.

حين انتهيت، جلست وقد أعياني الحفر، وكسر أظافري الردم، ثم اجتاحني البكاء، فيضان جامع في غير أوانه، وما كان من قشقة إلا أن اقتربت، هسمتني إلى صدرها، دعكتني في مسامها حتى تعطرت بزيها وغطت رأسي وعيني بأحراش هفيفتها، فغرفت في النوم شهرين أو يزيد، وحين استيقظت كانت تجلس أمامي، تتأملني مثل قطة، قبل أن تلتقط الفحمة وترسم على الحائط بأنامل من الشوكولاتة، وجهاً يشبهني، بنفس وسامتي، لجيتي ونظاري، ثم أشارت إليّ وهمست: «ماكو؟ تريد المسكينة أن تُسميني شيئاً؟ أولم تجد غير ماكو؟ ثم حكت الفحمة بالجدار ثانية فرسمت أفعى صغيرة تخرج من أذن اليمنى، لا إرادياً وضعت أصابعي على أذني، لم أجد شيئاً، ثم رسمت فوق رأسي ذبابة كبيرة وهمست: «مابوري»، دَوَّنت ما قالت في مُفكرتي، قبل أن تكمل الرسم، قطة سوداء، أشارت بعدها إلى صورة أختها «تابيوا» المعلقة على الجدار، تعني أن القطة الصغيرة التي زارتني مرتين، لم تكن سوى روح فتحة الإفريقية، تجسدت بعينين زرقاوين؛ لأنني التقطت لها يوماً صورة فوتوغراف، ولتجعلني أتنبه حين أقابل قشقة، فصص السحر التي تحيط بقبائل «الزاندي» حقيقية، هؤلاء قوم تتجسد أرواح موتاهم في القطط والبجع الأبيض، يأكلون لحم أعدائهم، ويصنعون بالعظام والجهاجم أقراطاً وتماثيل وقلادات: «ماذا تريدون يا زرقاء العينين؟»، نظرت لي طويلاً، ثم

أجابتنني وكأنها فهمت سؤالِي، رسمت على الخائط طفلاً صغيراً، يحمل ملاحِي، له لحية مثل لحيتي، ويرتدي نظارتي، نصف جسده أبيض والنصف أسود، له شعر خشن، وذيل قصير. نظرت لها ملياً، فأتسعت عيناها، ولاح الموج الأبيض، دموعاً ساخنة، ثم أشارت إلى صورة أختها على الجدار وسط أولادها في المركب، فاقتربت منها، فبالت جبينها فسكن الذيل عن الحركة، قلت لها دون تفكير: «أحبكِ يا قشطة»، لم تفهم شيئاً، لكنها قالت: «مي ليما كيبي نيامورو»، دَوَّنت ما قالت في مُفكرتي لأفسره لاحقاً، ثم اضطجعنا، تلك المرة اعتليتُها بإرادتها، اعتصرتني بعشق، وزارت بفنج حتى صاح عثر من غرفته: «حي»، مسحت سُر الحياة مني، ثم نامت على صدري، تشدو بكلمات عذبة، لحن عجيب، كأنه غناء الشجر، حتى غيبتني النوم، وحلمت ليلتها، بأني أضاجع أنثى نمر أسود، بين حشائش غابة، بجانب مجرى نهر نائر، ثم نظرت للسماء، وكانت الليلة مُقمرة، فرأيت كوكباً يقرب من ظهر القمر، وقبل أن ينتابني الفزع، اصطدم بالقمر فدمره.



بعد أيام من مقتل حافظ باشا، ولقائي بأفندينا، صدرت طبعة جرنال الوقائع المصرية لأول مرة، تحمل صورة أسد خشبي أسود، وصورة أخرى لحفر اسم المشاعني، وعنوان سُفني بين قوسين: «مكافأة لمن يعلم سر هذا الأسد»، بعدها بساعات، أرسل نسيم باشا قوش، رسالة إلى ديوان القلعة، تفيد أنه قادم بعد ساعة في أمر عاجل، يخص ذلك الأسد، فتم استدعائي لأكون في استقباله. أرسلوا الوباء المشاعي على قدمين؛ بوراك الزفت الأرناؤوطي، فرغ باي وطلب أن أرافقه، فأجبت دون أن أفتح، أن انتظر، ولطعته نصف ساعة حتى أكله الدبّان، قبل أن نتخذ طريقنا للديوان دون كلمة، فوق خيول تبعثر من ورائها البعر والتراب، ونزيف الغل والغيرة من مؤخرة بوراك.

داغر بك كان في انتظاري، يجلس عن يمينه نسيم باشا قوش؛ ابن صالح باشا آق قوش؛ قومندان الألبان زمن الباشا الكبير، ملك الموانئ وصاحب أسطول السفن التجارية التي تعمل بين الإسكندرية وجنوب البحر المتوسط، لطالما تناثرت الأقاويل حول ثروته التي تخطت الألف ألف جنيه، وقصة زواجه السري من ابنة أخته الشقراء التي هام بها عشقاً فحاربت العائلة من أجله، حتى أطلقوا عليها لقب «سالومي»، اشترى لها جزيرة صغيرة من صديقه العزيز جورج الأول؛ ملك بلاد اليونان، شيد عليها فناً ذا مرآة ذهبية - تشبهاً بلون شعرها - لتنير الجزيرة ليلاً، وجلب من أجلها يخصياناً سوقاً وجواري مُدربات، يُقدّم لها كل ما تشتهيهِ الأنفس وتلدّ الأعين، جنة بعيدة، وسط بحر يُطفئ نار الانتقادات ودعاوى التحريم والبطلان، ولتستريح نفس الخال من هيب الغيرة، ففارق العمر بينه وبين ابنة أخته يتخطى الخمسة والعشرين عاماً.

نسيم باشا كان يزور جزيرته، يومين كل شهر، يُبحر عن متن سفينة من سفته، ينزل قرب الجزيرة في مركب فخم صغير، يُقلّه للشاطئ، يتنزل في الخصلات الذهبية، يُضاجع الجسد النضر، يأكل التفاح والعنب، ثم يعود على متن سفينة أخرى، عائدة إلى الإسكندرية. وفي إحدى المرات، وحين رسا المركب وقت الغروب قرب الجزيرة، نظر بعدسة المنظار المكبر كما اعتاد أن يفعل دائماً، ليُشاهد ابنة الأخت، واقفة فوق الفناء، أمام المرأة، تغازل الرياح شعرها الذهبي، وتُشير بالمنديل الأبيض ترحيباً، وبابتسامة عريضة، كعهدها معه دائماً، لكن، تنزلق القدم، وتهوي سالومي من فوق الفناء إلى الصخور، أمام عينيهِ. شيد لها نسيم باشا ضريحاً من الرخام الأبيض، يراه كل من يمر بالجزيرة، شاهداً على عشق خالد، هزمته الجاذبية، نهاية حزينه مفاجئة عرفها المقربون من الباشا، وشهدوا على انزواته وانهار أعصابه لشهور، قبل أن يتسرب الخبر إلى آذان العامة، لينقسم الناس ما بين «هذا جزاء الله»، وبين «لا حول ولا قوة إلا بالله»، ليرحمها الله ويُصبر خالها، وتبدل الغضب والرفض مع مرور الأيام، إلى شفقة على حال عاشقين فرّقتهما الظروف، والمسامح كريم.

كان ذلك قبل أن تظهر سالومي؛ ابنة الأخت الشقراء، بصحبة بخار إنجليزي وصيم من أسطول الملكة فيكتوريا الحربي، ليعلم الناس أنها لم تسقط على الصخور وهي تلوح بالمنديل الأبيض، بل هربت مع حبيب قدر الشعر الذهبي، ثلاثين يوماً في الشهر.

أول مرة، أتأمل عن قرب رجلاً تحتوي خزانته على أكثر من ألف ألف جنيه، لم أر لحديعة الشقراء أثراً في وجهه، ولم أر كذلك للعشق كدمات في صوته وروحه، الشعر مصبوغ والشارب مدهون منصوب، والعينان

تسَعَن ذكاء، إما أن قصة الجزيرة أسطورة شعبية، ليلة جديدة من ليالي ألف ليلة، حكاية اختلقها الناس شغفاً بنجم فاحش الثراء لا تطوله الأعين، أو أنني أجلس أمام صخرة جامدة تشق الأمواج وتصرع الفتيات الشقراوات.

في البداية تحدث داغر، عرّف نسيم باشا - الذي رمقني باستغراب منذ دخل - مَنْ هو صليمان السيوفي، ولم يتكلم الباشا حتى هز داغر بك رأسه وأغمض عينيه مُطمئنًا، فأشار زكية الأموال إلى خادمه الجنوبي فاقترب، وضم على المنضدة علبة نحاسية مُغلقة بمفتاح أخرجه من جيبه، ودسه في ثقب مُزركش، لتُصدر العلبة طقة، وتفتح على كموة من القطيفة الحمراء، في وسطها استقر رأس أسد خشبيّ أسود بحجم كف اليد، العينان الغاضبتان المُتخفّزتان، والفم المفتوح والأنياب الحادة، «تلك هي النسخة الأصلية»، هكذا قال نسيم باشا، قبل أن يسرد القصة: «ذلك الأسد كان حجر الأساس لكوبانية أنشئت منذ أكثر من نصف قرن، بالتحديد عام ١٨١٢، ضُمّت ستة أسماء من الثقات الذين قدموا الخدمات الجلييلة للباشا محمد علي، تثبيتاً لحُكمه، ودعمًا لأولاده الأمراء من بعده. الكوبانية كانت تضم اسم أبي، صالح قوش؛ قائد الجند، وإبراهيم أغا؛ والد الفقيه حافظ باشا، أغا باب القلعة عهد الباشا الكبير، كانت تضم أيضًا اسم محمد باشا الدفتردار زوج بنت الباشا، وقائد حملة الانتقام في السودان، حسن باشا، قومندان الأرنؤوط الذين دعموا العرش في بداية حكم الباشا، وكذلك الكتبخدا محمد لاط أوغلي الغني عن التعريف، وسيدة واحدة؛ هُت إسحاق، صاحبة فابريكة السلاح».

فكرة الكوبانية كانت غريبة على أذن داغر بك، حتى إنه سأل: «وما كان نشاط تلك الكوبانية؟»، سحب نسيم باشا نفَسًا من سيجار سمين: «قامت فكرة تلك الكوبانية على تشييد سد منيع من الرجال المُخلصين للباشا، وأغلبهم من الرعيل الأول الذي جاء مع الباشا ضمن الجيوش العثمانية التي وصلت مصر، للإشراف على خروج الحملة الفرنسية سنة ١٨٠١، سد منيع ضد تدخل الكوبانيات الأوروبيات والعثمانية، فالباشا لم يُرد صدّ التوغل التجاري حفاظًا على توازن العلاقات، لكن الكوبانية، بصلاحيات غير محدودة، تستطيع السيطرة على السوق المالي والتجاري من تحت الموائد، وفرض سيطرة مؤثرة تحجّم التواجد الأوروبي والعثماني قدر الإمكان». سألته عن سبب سيرة الكوبانية فأجاب: «السرية كانت شرطًا من شروط الفكرة، فإذا علِم الباب العالي في الأستانة بأمر الكوبانية، فسوف يعتبر ذلك تحديًا سافرًا للسيادة، وقد يُعلن الحرب أو يؤثب الممالك عن الباشا، خصوصًا بعد الحرب المصرية العثمانية التي انتهت بمعاهدة لندن المجحفة سنة أربعين»، أما الأسد «فهو رمز العهد والميثاق بين الأعضاء الستة، استخدمناه لأنه ملك الحيوانات بلا مُنازع، لا شيء يعلوه في السلم الغذائي، ولا يهزمه إلا أسد مثله، وقد أسميناها كوبانية الأسد الشرقي». ولما سألته عن وجود أعداء للكوبانية، أفاد بأن سيرة الفكرة تضمن عدم وجود أعداء، فليس للكوبانية مستخدمون أو مبنى إداري، والتعامل كله، يتم عن طريق شبكات سيرة وعلاقات لا تعرف لغة المقابلات، وختم كلماته بأنه لا يعلم سببًا للقتل أو الانتقام».

في تلك اللحظة لمست اهتزازًا في صوت الباشا، خوفًا، وبوحًا محبوبسًا لا يقدر عليه، غلبه التوتر، ثم طلب من مبتور الورك الحماية، فرض الحراسة المضاعفة على سرايته وأولاده، وسرعة القبض على القاتل، وأبدى رغبة في الدفع للقواصة ليُسهّلوا في البحث. كز الباشا على ضروبه حين استمهلت نسيم باشا في سؤالين إضافيين: «هل أفندينا يعلم بأمر تلك الكوبانية؟»، وكان ردده مفاجئًا: «الكوبانية انقضّت من بعد وفاة الباشا

الكبير، وتفرق الشركاء»، ولما سألته عن رأس مال الكوبانية الأصلي، نظرًا لضخامة الهدف من فرض سيطرة شاملة على الأسواق المصرية ضد رءوس أموال العثمانية والأوروبيين: «لا بد أنه مبلغ هائل!»، رمقني نسيم باشا بازدرأ وتحقير، ثم قال: «الفضول صفة الفئران يا أفندي، تلك أرقام لن تُفيدك في معرفة القاتل»، قالها ثم قام، وعند الباب استدركته معتذرًا: «هل مر اسم المشاعني على أذنك الكريمين من قبل؟»، نظر لداغر بك ثم عاد لي: «لم أسمع به من قبل!».

رحل نسيم باشا مصحوبًا بفريق حراسة خصوصي من الجند المدربين، ميصاحبه أينما كان ويؤمن سرايته، حتى يتم القبض على الزاحف المهجين الذي باتت الناس تُسميه جهلاً بالسفاح، بعد تسرب أخبار القتل.

بعدما رحل نسيم باشا أفرغت قفة المخاوف والشكوك في حجر مبتور الورك: «ذلك الباشا يُخفي أمرًا، كيف لإسماعين ألا يعلم شيئًا عن تلك الكوبانية وذلك الأسد؟»، أمسك داغر برأسي، وكظم غيظه: «اسمه أفندينا، وليس إسماعين، أكمل»، تفاضيت عن جهله بالود والصدقة التي جمعتني بأفندينا، ثم استرسلت: «حين قتل أول الستة، كان على الباقي أن يتنبهوا، ذلك يفسر سبب زيارة القاتل الثانية، استرداد الأسد لتعطيل خدمهم، واستمرار ارتقاء الحراسة من حولهم. ثانيًا، معرفة القاتل بالأسد، واستخدامه كرسالة تحذير قبل وصوله، لم يكن من أجل بث الخوف في النفوس، بل كان إنذار زيارة من شريك سابق بالكوبانية، أمر عاجل ويرى يستدعي مقابلة، مما أجبرهم على إخلاء سراياتهم، وذلك أيضًا يعني أن الكوبانية ما زالت قائمة. وأخيرًا، لقد ذكر نسيم باشا أن أعضاء الكوبانية ستة، في حين أن القاتل أعد سبعة تماثيل عند النحاتين، هناك عضو سابع لم يُرد نسيم باشا ذكره لغرض ما في نفس يعقوب».

استمع داغر لكلماتي ثم بشرني بكيس من الذهب في حالة القبض على القاتل، قبل أن يأمر مجموعة من الحراس بالتوجه لسراية رشيد باشا ابن محمد باشا لآل أوغلي، وليتولى العبد لله استنتاج الضحية السابعة.

على الحمار، وفي طريقي للوكاندة، أحصيت الثغوب التي أغلقتها في حضور عاشق الشقراوات وناكح المحارم نسيم باشا. القبض على المهجين بات قاب قوسين أو أدنى، فقد علمنا من هما الضحيتان المقبلتان، مجموعات الحراسة تحيط السرايات، وما هي إلا ليلتان أو ثلاث قبل أن يأتونا برأس الزاحف العزيز. هذا إذا لم يتحذر زيارة الضحية السابعة أولًا، وأحسب ذلك بعيدًا، فهو يسعى للتحدي، وإن علم بوجود الحراسة على السرايات فسيخترق إحداها ليثير الرعب في الباقيين، كما أن حدسي يُخبرني بأن الضحية السابعة هي الأسمن، ومن الكمال أن تكون مسك الختام، ويبقى السؤال، لماذا اختار المهجين أعضاء تلك الكوبانية السرية للقتل، ما دام نشاطهم قد انفض منذ زمن بعيد؟

ملحوظة حول علاقتي بالجارية السوداء قشطة:

منذ داهمني العشق، تبدلت بين جوانحي عواطف، كنت أحسبها جامدة كجبل المقطم، لم أعد أراها جارية زاندية متوحشة آكلة للحم البشر، شريتها بضمن بخص من جلاب لُحتال، بل ولم أعد أرى في لونها الأبنوسي - الذي كنت أحترقه وأشبهه بهباب البواجير وأصب به من أحترق - إلا فتنة طغت على بياض الشركس واليونانيات، فهن البهاق وجير الحيطان، وهي الكحل الأسود في المراود، هن القمر الشرير الأبيض، وهي المسك والخبر والعنبر، ولا يعني إن كان ذلك سقمًا أصاب عقلي، أو هي معجزة من معجزات الرسل، إن هو إلا تسجيل أمين من العبد لله لتبدل حاد في المزاج، يصل إلى درجة إيماني، بأنني إذا امتلكت جنيتها إضافية، فسأشتري جارية سوداء أخرى تزيد الليل ليلاً، مع احتفاظي بكراهة دعوة كبير الأمريكانية الفاسد

«أبراهام لينكولن» في تحرير العبيد والجواري؛ ففي الامتلاك راحة بال، وحفاظ على الناموس الإنساني من التفكك والانحيار.



مرت أيام طويلة على مقابلي نسيم باشا، ولم يظهر الهجين، أظنه يتدبر أمره بعدما فُرِضت الحراسة على الباشوات الباقين، فقد بُوغت بكشفي قائمة ضحاياهم، ولم يعد إرسال غزال الأسد أو الهجوم بالتسلل والاستفراء بالضحية مُجدياً. ما لي أفتقد ظهوره كأنه إبراهيم ابن خالي بديع؟ كيف أتعلق بقاتل يسفك الدماء ويهددني؟ ربما لأن ظهوره يُعطيني أهمية في عين رجالات القلعة؟ أو أن استدعاء داغر بك أمام عيني بشياف وأصحاب المحلات المجاورة للوكاندة، وركوبي الحُمر والأحصنة ذات السُرج الميري المزركش يُضفي الهيبة على كنفِي ويثير الغيرة المحببة إلى قلبي؟ أم أنني أفتقد وجوده لأنه يحمل رسالة؟ لأنه لا يتنقم بهدف السرقة؟ لأن الحرمة وسك قالت إني أشبهه؟ أم لأن حياة النعاج دون ضارٍ مُفترس تفقد الإحساس بمتعة الهروب؟ تجعل القطعان ناعسة خاملة ومثلثة بالغباء!

ولما كان عنتر قدوة حسنة ومُعلماً أكبر لا يقل عن بوذا وكونفوشيوس في حكمتها، فقد عَلَّمَنِي أن معشر الذباب باقي منذ بدء الخليقة، لأنه لا يسكن، ولا يبدأ له بال حتى ينال ما يريد من طعام أو من حظٍّ على رؤس البشر لكسر غرورهم، وإفلاق راحتهم وبث الضجر من الحياة في أطرافهم، فقد عرّضت على التحقيق في أقوال نسيم باشا فوش، وكذا رشيد باشا ابن محمد باشا لآظ أوغلي، الكنتخدا الأشهر في تاريخ مصر، وذلك لاستنتاج الاسم السابع في قائمة الاغتيال.

ولكن ذلك بعد أن أوفي بنذر قديم قطعه عن نفسي، بأن أصطحب عنتر في جولة بشوارع المدينة، ثمّشة تفك أرجله، وتذهب الرطوبة من أجنحته ومفاصله، وتُسْرِي عنه، وجاءت فشة لتُشجّعني على البر بوعدي، ولتستطلع المدينة التي ستعيش فيها العُمر الباقي، ولترتاح كذلك من رغي عزيزة، ومن خربشة حماها خلف الجدار. وضعت على عنتر الجلالية الزرقاء الفضفاضة بعد طَيّ أجنحته، ثم لففت يديه بالشاش ورأسه بشال حتى بدا كالناجين من الحريق، ووضعت ساقيه السُفليتين في جزمة بُنية جلد تمساح، أما فشة فارتدت الفستان الأرجواني الذي فصلته من أجلها عند الست أريانا بالدور الأرضي، بدت فيه باذنجانة لامعة لافتة، حتى إنني سُنلت عن ثمنها في الشوارع والميادين، وتلقيت عروضاً سخية لشرائها وصلت إلى عشرين جنيهًا، أسوة بالجواري الشركس، واستحلفوني بالشيخ الوقور ذي الجلالية الزرقاء الذي يركب الحمار ورائنا، وتمنعت عن البيع بإباء، فالتجّال لا يعلمون أن ما أملكه بين يديّ معجزة من الرب لا تُقدر ببال، وأنها لبوة لن تتردد في أن تأكل آيّا منهم إن أرادت، فطة وديعة وفرس جموح في نفس الوقت، لا ترتضي بأي خيالٍ يمتطيها.

راقبت وجهها الأبنوسي وهي تجتاز الشوارع، مبهورة لامعة العينين، تنهل من تفاصيل المدينة وأهلها، التقطت لها صورة بجانب عنتر أمام موقع تشييد قصر أفندينا الجديد، في نهاية الشارع المؤدي إلى ميدان الإسماعيلية، وصورة أخرى قرب النيل، عند إنشاءات الجسر الجديد الذي سيربط الجيزة بالقاهرة، اشتريت لها وقة أبو فروة، وكوز سُكر من أجل عنتر، مزمزه في استمتاع قبل أن نصل إلى مسجد سيدنا الحسين، قرأنا الفاتحة وتمسحنا بحديد الضريح ورفعنا الدعاء طلباً للقرب، وأسّر لي عنتر بأن الرأس الموضوع بالداخل في طست من ذهب ومُغطى بالحرير الأخضر، ليس رأس الحسين بن علي رضي الله عنه، وغمز بالكثير من أعينه، فيما ركعت فشة على السجادة، وغمغمت بكلمات مُبهمة، ثم بكّت في صمت قبل أن تتخذ طريقنا

إلى شجرة مريم.

في المطرية، وقفنا أمام الشجرة العتيقة في خشوع، شربنا من العين التي تشرفت بغسيل ثياب يسوع المسيح، وأكلنا من نشارة خشب الشجرة التي يجمعها رهبان الدير للمصلين، وجلست تحت الفرع الأصني، مُغمض العينين، مُسبّحًا، حتى سمعتُ صوتًا أعرفه: «طوبى للأتقياء القلب لأنهم يُعَايِنُونَ الله»، التفتُ وكان القمص شاروبيم ورائي.

عدا خصلات بيضاء وبعض أرتال زائدة وصليب جديد، لم يتغير عن آخر مرة رأيته فيها، قبلت يده فربت على رأسي، ثم انفردنا جانبًا، سألتني أين اختفيت، ولماذا رحلت عن الدير دون تنويه أو وداع، غشيتي الصمت دقيقة كاملة، حتى نبيأت للكلام، فأنا مدين للرجل بالكثير، منذ لجأت إلى الدير أول مرة. يومها كان شاروبيم شابًا صغيرًا واسع العينين، يتشبه بالمسيح في حركات أصابعه، كلياته، وحتى في قصة شعره وطول لحيته، طلبت منه اللجوء للدير كطالب رهينة، سأل إن كان لي أب اعتراف، فناولته طلب رهينة مصحوبًا بتزكية مختومة من أب اعترافي، يشير فيها لانتظامي في ممارسة الأسرار الكنسية، ومعرفتي بوسائل النعمة. سألتني إن كنت مُحبًا للطقوس والتسبيح والألحان، وإن كانت لي دراية بعقائد الكنيسة وتاريخها، فأخرجت كمنجني من الحقيقة، وأنشدت له جزءًا من ترنيمة «بشارة الملاك جبرائيل للعدراء مريم»، ثم سردت له تاريخ الكنيسة منذ ولادة يسوع وحتى ولادتي. وما هي إلا أيام حتى انضمت راهبًا «تحت الاختبار» على أن أرسم راهبًا بعد فضائي سنتين - عني الأقل - في الدير، والالتزام بالتحاليم والصلوات وآداب الكنيسة.

ومرت الأيام، بين تبتُّل وخشوع، تسابيح وتحاليم وصلوات، تفوقت في الترانيم، حفظت إنجيل متى ونصف إنجيل يوحنا، وتطوعت لرسم جدارية كبيرة ليسوع المسيح خلف أبراج الحمام، يقف فيها أمام كهف، بردائه الأزرق، باسطًا ذراعيه للشمس. لم أكن متغيرًا حين لاحظت الحركة بين أصابع يسوع اليمني، ولم أكن مُحرَّفًا حين رأيته بأم عيني يحك ذقنه، وتسرب الخبر بين الرهبان، حتى وصل إلى أذن القمص شاروبيم، استجوبني برفق، ثم أثنى على ما رأيته من تجلٍّ حين رأى الدموع في عيني وبارك بصبري.

كان ذلك قبل أن يتصرف يسوع بطريقة غامضة، فقد لمحت بُندقية بين قميصه وردائه، يُخفيها عن الأعين في توتر، فقلت لنفسي إن ذلك من شأن يسوع، وما كنت لأُثني بصره لمخلوق. بعدها بيومين، وفي ليلة ملعونة مُقمرة، رأيت المهجين بأم عيني يتسلل إلى الكهف، صرخت بأعلى صوتي ولم يسمعني يسوع، أنهى نشر لوح الخشب ثم دخل الكهف، وما هي إلا دقيقة حتى سمعت مشادة، تبعثها معركة، قبل أن تُدوي طلقة رصاص مزقت مسكون الليل، قرعت الجرس في هلع، وأيقظت الرهبان، جمعتهم أمام الرسم وطلبت منهم الانتظار حتى نعرف مَنْ سيخرج من الكهف حيًّا، ولما أتى القمص شاروبيم، سردت عني مسامعه ما حدث، فنظر للرسم في استغراب: «ولكن يسوع ما زال واقفًا أمام الكهف، باسطًا ذراعيه للشمس»، فهمست في أذنه: «مَنْ قال لك إن ذلك هو يسوع المسيح حقًا».

في تلك الليلة، أغلقت عني نفسي باب القلاية، وأشعلت الشموع، تضرعت ليموع حتى عميت عياني من الدموع، ثم غفلت، فأنتني رؤيا بالهروب من الدير، بعد سكب جردل من الدهان على الرسم، وكان هذا ما فعلته، ومنذ ذلك اليوم لم أدخل كنيسة أو ديرًا، ولم أعترف أمام أي أب، بأن العبد لله يتشكك في كل رسم ليموع المسيح.

أخبرت القمص شاروبيم ما يود أن يسمعه من مسيحي تائه: «خشيت ما فعلت فهربت خجلاً من المسيح ومنك»، رسم الصليب على جبهتي وهمس: «واغفر لنا خطايانا لأننا نحن أيضًا نغفر لكل من يُذنب إلينا. ولا تُدخلنا في تجربة لكن نَجِّنَا من الشرير»، ثم أخبرني أن باب الدير مفتوح من أجلي في أي وقت، وقد أعادوا رسم المسيح مكان البُوة التي سكبتها على الحائط. ابتسمت ثم عرفت بقشقة، أهداها صليب جميل من الخشب، علّقتها في رقبته فقالت «ماكو» فابتسم القمص، سألته: «هل تعلم ما تقصد؟»، فأفاد بأنه تعلم لغة أهل الجنوب من قبائل الزاندي، والمقصود بالكلمة «مبارك»، ولما سألته عن كلمة «مابوري» التي قالتها بعد أن رسمت الذبابة فوق رأسي على حائط الغرفة، أخبرني أنها تعني «الله!» في لغتها، وفجأة، تذكرت الكلمات التي نقشتها في مُفكرتي من فم قشقة، فعرضتها عليه، ابتسم بخجل ثم قال: «مى ليما كيبي نيامورو» تعني «أحبك» بلغتها، قشقة أرادت أن تخبرني أني مبارك، وأن الله فوق رأسي حافظ، وأنها تحبني. قشقة هي أول من آمن برسائلي من النساء، كدت من الفرح أن أصرخ عاليًا: «لتفروق الأرض وتلغى البشرية ثانيًا، ما دامت الإفريقية تحبني وتؤمن بي، نبيًا تحت الاختبار». ثم اقترب عنتر، فاضطرت أن أقدمه للقمص بحذر يكاد يفلت من بين أسناني: «شيخ صوفي جليل لا يكشف وجهه لأحد»، فوضع عنتر إحدى أذرعها على كتف القمص، وابتعدا خطوات، همس في أذنه ببعض الكلمات فيكي القمص حتى بلّت الدموع لحيته، ثم قبل يد عنتر في تبجيل ورحل مُبتسمًا، يكاد يركض نحو الدير من الفرح.

ولما سألت عنتر عما قال، أخبرني أن القمص كان تلميذًا له يومًا ما!

في طريقنا للبيت، لم تنزل عيناى عن قشقة. عيناى تحويان بحرًا، وضميرة غليظة نشق بها العشاق، مع كل خطوة أخوض ميلًا في البحيرة الإفريقية، الباذنجانة الغاتنة تنوغل في شفاف القلب، كم أكلت من قلوب العشاق؟ كم رصصت من الجحاحم بجانبك يا زجاجة الخمر الغاتنة؟ أكلت قلب عزيزة، وبإلنك تأكلين كل النسوة، حتى ينقض الجنس الأبيض والخمري والأحمر، حقًا «جت تطل غلبت الكل»، حتى نطط الشارع تتبعك في خشوع، مسحورة، في موكب خلف ملكة غير مُتوجة، تحشي على استحياء وتلفح وجهي، دون أن تدري أني غرقت في إناء اللبن الأسود، ولا يعلم السر إلا عنتر ابن اللثيمة، راقبني من وراء لثامه، وطنٌ بسعادة حتى كاد يقع من فوق الحمار.

في اللوكاندة، وحين وضعت الألواح الزجاجية في محلول المظهر، تجلت الصور السلبية ببطء، قشقة بجانبها عنتر، ومن ورائهما، وعلى بُعد يسمع بالظهور تحت العدسة المكبرة، لاح شبح مُتكرر، لرجل يُراقب. كان على وضع الألواح على ورق مشبع بنرات الفضة، وتعرضه للشمس حتى يعكس كل التفاصيل التي سوّدت الشمس، فظهر الذي كان يتبعنا، في كل الصور، يقف وراء شجرة مريم، وقرب سقالات الجسر الجديد، بين أحجار القصر الجديد، وعند باب مسجد الحسين، يستند صندوق النذور: هجين مُلثم، مفتول العضلات، في رداء أسود وحزام عريض، يرمق عدسة الكاميرا، يُريدني أن أراه، يريد أن يُسجل وجوده في دفتر ذكرياتي، ولا شك، يريد للهلح أن يضرب صدري وعقلي، فقد أغضبت، أفسدت عليه مفاجأة صحبتيه المُقبلتين، فأراد أن يخبرني أنه المسيطر، وأنه كالهواء، لا يردعه حائل. كان عني أن أسبقه بخطوة، فقد تبقى على دوري بالقائمة، أصمان، ومحاولات هروبي من المواجهة والانفعال بالحب الإفريقي لن تُنجيني من المصير. حشوت المعسل، شربت القهوة المحوَّجة، فتساءلت الأفاعي السوداء في دمي، ثم التفتت فحمة ورسمت على الحائط - وسط ذهول قشقة - سبع دوائر، تحوي أسماء أربع ضحايا سابقين.

ضحيتان ينتظران ساعتيهما، وعلامة استفهام كبيرة في آخر دائرة، ضحية سابعة لا أخبار عنها.

من كل دائرة خرج خطأ، كتبت فيه أسماء الآباء، مؤسسي الكوبانية، حاشية الباشا محمد علي الذين آرزوه وساندوا ظهوره حتى قويت شوكته، وفوق كل منها، كتبت المناصب التي تولوها، ثم ابتعدت إلى نهاية الغرفة، مضغت ورقة لبلاب، ونظرت للأسماء محاولاً إيجاد صلة فاسدة تجعل أبناءهم عُرضة للانتقام. حتى ضرب جبتهى سهم الألم، في نفس المكان، فوق الجبهة مباشرة، كدت أسقط لولا قشطة التي فركت أسناني بفص ليمون، ثم بدأت الصورة تتضح، مثل سلبية فوتوغراف زجاجية بداخل محلول مُظهِر: فصالح آق قوش - والد نسيم باشا - كان كبير ضباط المرتزقة الأرناؤوط، وحسن باشا - والد عصمت باشا حفير الخنافس - كان قومندان الأرناؤوط الأكبر، ومحمد باشا لاظ أوغني - والد رشيد باشا - كان كتخدا الباشا ورئيس الدواوين، وإبراهيم أغا - والد حافظ باشا مقطوع الرأس - كان الخارص المسئول عن باب العزب بالقلعة، الباب الذي عُلق فيه رأسه، ومحمد بك الدفتردار - والد المحروق عزت باشا - كان القائد الأكثر دموية وسفكاً للدماء من قواد محمد علي باشا، أما الحرمه همت إسحاق، ذات النسب الفقير المعدم، والعمر المتقدم الذي يجعل منها شابة صغيرة في عهد الباشا الكبير، فمصدر ثروتها الذي عدّه الكثيرون لغزاً دُفن معها في مقبرتها، وموقع سرايتها التي بُنيت فوق بيتها القديم بسوق السلاح، كانا أول طلقني مدفع في قلعة الألفاز. نعم، لقد وجدتها! نطقنها بصوت عالٍ، مثل أرخميدس حين اكتشف قانون الطفو، تخرجت بعض الكونياك ولتشتعل الأناعي في دمي من الغيرة، فالأسماء الستة - وكيف يكون للصدفة مكان هنا؟ - شاركوا في أكبر مقتلة شهدتها البلاد في المائة عام الماضية، مقتلة سُميت بمذبحة القلعة.

تبدو الحقيقة، والساعي وراءها، نجمين، نظنهما بالمرصد الفلكي مُتجاوزين، لكنهما في الحقيقة، بعيدان كل البعد.

كل الأيدي التي شاركت في تدشين تلك الكوبانية، كانت مُحضبة بالدماء، أربعة منهم، عنى رأسهم الكتخدا «لاظ أوغني» مُدبر المذبحة، كانوا الوحيدين الذين علموا خطة المقتلة التي راح ضحيتها ألف نفس من المماليك، بين حاجب للباب الذي أغلق في وجه المماليك، قائد وضابط لقوات الأرناؤوط التي أطلقت النيران وذهبت الفارين. أما الاسمان الباقيان، فدتردار تولى تعقب وقتل فلول المماليك، وكل من عارض المذبحة من أهل البلد بعد ذلك، وحُرمة، تُدعى همت إسحاق، دُفنت سبرتها وسط ركام الحكايات، حتى أفرج عنها منذ يومين عجوز بحري سوق السلاح، تخطى التسعين، حفر في ذاكرته بئراً غويطة وأدلى دلوًا، فأخبرني بأن الحرمه همت إسحاق، دخلت سوق السلاح سنة ١٨١٠، عاهرة صغيرة لا تتمتع بالجمال قدر ما تتمتع بسحر جذب الرجال، وما هي إلا شهور حتى اشترت همت بيتاً كبيراً على ناصية، استقبلت فيه عليه الرجال من كل الليل والجنسيات، وحين هل أول مارس من عام ١٨١١، وفي صباح الجمعة المشنوم، حدثت المقتلة الشهيرة، فاستجار ببيتها عدد من شباب المماليك الذين طالما أضاءوا مصابيحها، وافتروشوا العاهرات عندها. خبأتهم في حجرة، وأغلقت الباب بالمفتاح، ثم أبلغت جند الأرناؤوط، ارتقوا السلام واقترحموا الحجرة، وبدأ قطع الرؤوس، وفي غفلة منهم قفز شاب من النافذة إلى الدور الأرضي، حيث كانت الحرمه همت ترقب، حرّ رقبتها قبل أن يتمكنوا منه. نجت، وإن ترك الجرح في رقبتها علامة جعلتها تعزل كار العاهرات. بالكافأة التي تلقفتها عن تسليم المماليك، اشتغلت همت بتجارة السلاح، مثل أبيها وجدّها،

وبذكرى الأيام الخوالي مع الضباط الأرناؤوط استأثرت بتوريد السيوف والغلدارات المفخمة للخاصة والأمراء، حتى قابلت الشاعر الإيطالي المغمور فرانكو جابريال.

قبل أن تتسرب الأفكار من رأسي كتبت في المفكرة: «الكوبانية ربما تكون قد هزمت رأساً من رؤوس المماليك، وقد عاد ذلك المملوك لينتقم، بعد أربعة وخمسين سنة؟ لا يبدو ذلك معقولاً، إلا مع هجين عُمره ليس مثل أعمارنا، يتنقل بين الأجساد كيفما يشاء، ولكن لماذا ينتقم؟ وما شأن ساكن القمر بالمماليك؟ لماذا يتبعني؟ هل يعني قتي؟ لم أبقاني؟ هل أنا الضحية الأخيرة؟ ليس لي شأن بالكوبانية، ربما يريد أن يرتدي جسدي ويستولي على قشطة وعنتر؟

علامات الاستفهام تضخمت حتى أزاحت المنضدة وبطّنت من النافذة، وقبل أن يهزمني النوم، تلقيت زيارة غير متوقعة، من أوسخ من أوتهم المحروسة منذ عهد السلطان يرفوق رحمه الله، بوراك الأرناؤوطي، زعيم قواصة الشرق الفشلة، لم يحبط الباب تلك المرة، فقد أسرّها في نفسه أن لطعته المرة السابقة، كسر رجاله الكالون بأكتافهم، أزاحوا قشطة، كمنوا فمي ووضعوا رأسي في كيس من الخيش، جرجروني على السلام، ثم ألقوا بي على وجهي في عربة حبس مُصفحة بالقضبان، داس بوراك على قفائي بنعل حذائه، ووضع فوهة الغدارة على أذني، وشد الزناد، وطوال الطريق إلى سجن القلعة، لم ينطق غير كلمة واحدة: «خائن».

وسأدّون المأساة بالتفاصيل الكاملة في اليومية التالية، فعن الآن مراعاة قشطة وعنتر، فقد عانيا في غيابي أشد المعاناة.



أكتب تلك اليومية لتوثيق أخبار ما حدث من بعد ملاحمة القواصم بوراك الأرنأوطي لغرفتي، ولتكون شهادة إدانة على إهدار كرامتي، وإذلال شرفي أمام الزعانف والسوقة وأصحاب الدكاكين الخقراء المحيطين باللوكاندة، وما كنت لأنسى شامة بشاف الخسيس الذي سأل القواصة بصوت عالٍ ليُسمعنني وأنا أتحرج فوق السلام بكيس خيش يكتم أنفاسي ويُخفي وجهي: «ماذا سرق؟ هل أخني غرفته؟ إعدام إن شاء الله».

حين وصلت إلى سجن القلعة، أُلقيت في زنزانة انفرادية باردة تحت الأرض، فانتابني الفزع من مصير مجهول، وما هي إلا لحظات وتذكرت أخي يوسف عليه السلام، ومجنته في السجن، وأدركت بوحى من الله أن ما كُتب على العبد لله، هو الامتحان الأكبر، ولن أخرج منه إلا عزيز مصر بعون الله، وستكون العلامة، تفسير حلم لإسماعيلين. حين يعلم بما حدث، من جلبي وإهانتي كالعبيد السود، مستطير رءوس كثيرة. كُحِتُ بأظفري الحائط، علامة أول يوم في السجن، وجعلت أبتهل وأذكر، قبل أن يدامني الرعب، ويتصب شعر جسدي، لم أكن بالزنزانة وحدي، خدعتني الظلمة حتى سمعت صوتًا مبحوحًا ينطق: «مجنون»، انتفضت كالنار، ولما كانت يدي مغلولة إلى الحائط بالجنزير، لم أستطع الحركة، تعالى صريخي: «مَن بالزنزانة؟»، ولما لم أتلُق إجابة، التزمت الصمت حتى أسمع، واستطعت أن أسمع صوت جنزير يحثك بالأرض، في الركن الأيسر من الغرفة، ثم وقع حمل ثقيل، وحزق، خطوات تقرب، ثم كرة حديدية لا يقل وزنها عن ثمانين رطلاً، تسقط على بُعد بوصات من أصابع قدمي، سُعال جاف، خرج من كهف مليء بالطوايط، تلتته بصقعة، أظنها لطنتني: «لا مؤاخذه»، قالها من جلس بجاني، الظلمة لم تسمح برؤية الملامح، حتى اشتعل عود ثقاب احتك بأرضية الزنزانة، شمس أحرفت عيني، رأيت بعدها رجلاً عجوزاً، تحطى الثمانين، منذ ثمانين عامًا، ابتسم لي بلا أسنان، بلا عيين، وبلا أذن يميني، غمَلَكَنِي الفزع، حتى كدت أنقياً، فقرأت الآية الثامنة عشرة من سورة الكهف، والآية ٤١: ١٣ من سفر إشعياء، ثم انقضى عمر عود الثقاب، فانتابني نوبة فزع ثانية: «ما تبقاش عامل زي ابن المعزة، يعيط والبز في بقة، لن أهدر عليك عود ثقاب آخر، فلم يعد معي الكثير، وإن لم تهدأ فسأحمل تلك الكرة والقبها فوق رأسك لترتاح وأرتاح من صريرك وتشنجاتك أيها المعتوه»، سألته: «مَن أنت؟»، قال: «محسوبك سمكة». نعم، اسمه كان سمكة، وقبل أن يكون سمكة، كان من القلائل الذين قابلوا نابليون بونابرتة وجهاً لوجه حين غزا البلاد منذ ستة وسبعين عامًا، أضاف إليهم عمره وقتها والذي قدّره بخمسة وعشرين عامًا، ليبلغ الرجل المائل أمامي من العمر، مائة سنة وواحدة.

لم تطل الظلمة، فالقمر يضرب بأشعته القاتلة أرض الزنزانة، بعيدًا عن ساقي والحمد لله، فالوقت لم يصعفني لجلب المرهم الواقى. وما هي إلا دقائق وظهر لعن سمكة حدود ولامح، فبدأ بتكلم: «لقد ميزت رائحتك قبل أن أراك، فالمجذوب يملك رائحة مميزة، خليط يقرزه الدماغ يجمع بين البخور الجاري والعرقسوس والحلبة، ولما راقبتك تأكدت، عينك ترتعشان، ورأسك يتحرك مثل الحمام، وأيًا ما سيحدث لك في هذه الزنزانة، فلن يزيدك جنونًا، هذا إن خرجت حيًا، فسجن القلعة مثل القبر، ما بيرجعني ميت»، ولما كان أول يوم لي بالزنزانة، أراد عم سمكة أن يُسرِّي عني، فحكى قصته.

حين دخل الفرنسيين البلاد سنة ١٧٩٨، وبعد معركة الأهرامات التي انتهت بهزيمة المهاليك، قُتل من قُتل وأيسر من أيسر وغرق من غرق في مياه النيل، كان عم سمكة، يملك تحلا يبيع فيه أفضل «بوري مشوي»

في حي السيدة زينب، يسعى إليه الناس من النجوع والقرى، بأعاب يسيل ومعدة تبتهل، خاصة يوم المولد الذي يردد فيه الناس، إن سمك النيل في ذلك اليوم يسبح، وتُسبح بجانبه الطحينة والعيش والفجل والجرجير، استعدادًا لازدحام دكان عم سمكة.

أغلق عم سمكة دكانه شهرًا، حتى مكنت المدافع، واستقرت الشوارع، ودانت الأمور لبونايرته بعد اجتماعه بالمشايخ وخطب فيهم خطبة تداولتها الألسن: «أوليس حقًا أنه قد جاء في كتبكم أن كائنًا أرقى سوف يصل من الغرب، مكلفًا بمواصلة عمل النبي؟ أوليس حقًا أنه جاء فيها أيضًا أن هذا الرجل، هو الوكيل لمحمد؟ إنه أنا!»، ففتح أبواب دكانه عن استحياء، وما هي إلا أيام وعادت الناس لتطوف حول البوري المشوي. وفي يوم عجيب، أحاطت جند الفرنسيين بالدكان، ومن فوق الحصان، أشار ضابط أشقر للشواية وقال: «هيه فو تو سيه بواسون بور جنرال بوناغتا» - نطقها عم سمكة رغم زوال أسنانه بلكنة فرنسية صليمة - ووقع قلب الرجل بين قشور السمك في دكانه، بونايرته بجلالة قدره يريد أن يأكل من دكان سمكة؟ وهل كان سمكة ليرفض العرض؟ حملوه بطاسته وبرميل السمك البوري الحي، ووضعوه بعد دقائق في حديقة بيت محمد بك الألفي، مقر ومسكن بونايرته في القاهرة.

بعد أن زالت رعشة اليد، وذهب الرجل عن عم سمكة، استطاع أن يخلّص النظر إلى بونايرته من بين دخان الشاي، القائد الفرنسي كان جالسًا على وسادة، يدخن الشبك ويراقبه، لم يبد قصيرًا كما قال الناس، ولم يكن يرتدي الزي العسكري، كان يرتدي جلبابًا كحليًا فضفاضًا، ويضع عن رأسه لبدة. دب الشك في نفس عم سمكة، هل هذا هو نابليون بونايرته حقًا؟ فجأة قام بونايرته، اقترب من عم سمكة فارتعشت ركبته، تفقد السمك عن الشواية، غمغم بلغة الفرنسيين، ثم غرس أصابعه في بطن سمكة بوري قاربت الاستواء، التثم واستطعم: «بسم الله ما شاء الله، ديليسيو»، قالها بالعربي النصيح فكبر عم سمكة، واسترخت مفاصله، فالشائعة التي راجت لم تكن شائعة، نابليون بونايرته رجل مُسلم وموحد بالله، وما كان من عم سمكة إلا أن صنع أجمل مائدة سمك للقادة الفرنسيين، ونفحه بونايرته بنفسه جنبها نابليونًا منقوشًا بصورته، احتفظ به عم سمكة تحت بلاطة أسفل رجل سريه، ولم يفكر يومًا في صرفه. ومرت الأيام وحال عم سمكة تزداد رغداً، الخيالة الفرنسيين يأتونه كل أسبوع مرتين، يحملونه وبرميل البوري الحي إلى حديقة بيت بونايرته، ينتقي السمكات بنفسه، يغمسها في الطحينة البلدي، يستطعم، يبلع بالنبيذ الأبيض، يصفق ويصيح، ديليسيو، ويناول عم سمكة الجنيه النابليوني.

خلال أسابيع، صار عم سمكة نازًا عن عَلم، لم يعد الدكان الصغير المزدهم بزبائن يطوفون حوله بعد الصلاة في مسجد السيدة زينب، بل صار مولدًا يوميًا لا ينتهي، قبلة للأثرياء والفضوليين، راغبي تذوق السمك من نفس الشواية التي يأكل منها بونايرته. طالت الطوابير حتى قطعت الطريق، وسدت الحميم والعربات مدخل المسجد، واضطر القواصة أن يُنظموا المرور نظير وجبة من «أسماك بونايرته» - اسم الدكان الجديد - وأجر شهري يدفعه عم سمكة الذي وسّع دكانه الصغير بشراء الدكاكين المجاورة، رحس فيها الموائد والكراسي لاستقبال الزبائن، ملأ الأريار عن طول الطريق بالمياه، استأجر باعة العرقسوس والكركدية للترطيب عن أفواه الأكليين، وخصص دكة لرقاصي الحملة الذين رسموا دكانه ضمن كتاب «وصف مصر» كمثال للمطبخ الإيجيبيسيان. أما عم سمكة، فانزوى في ركن، بسطح بدكانه الجديد، مُرتديًا جلبابًا سُكريًا من النيل، ولامة حورية، يستضيف الشيوخ والتجار حول مائدته، يُدخنون النارجيلة

ويستمعون بشغف لوصف بيت بونايرته، جليابه الكحني، لبدته، جواريه وعبيده، ضحكاته وسكرته، وسهراته المأجنة التي لا يأكل فيها إلا من يد عم سمكة، ثم يقلد طريقته في نطق كلمة «ديليسيوه»، فتشوق الأفراد وتسيل الريالة على الصدور. حتى قامت ثورة القاهرة الأولى في منتصف أكتوبر، حين فرض الفرنسيون ضرائب باهظة على التجار - باستثناء دكان أسماك بونايرته - وتم تفتيش بيوتهم والدكاكين بحثاً عن الأموال، وتم تكسير أبواب الحارات لتسهيل القبض على مُثبري الشغب، وهدمت المباني والمساجد لتحسين المدينة. وما كان من عم سمكة إلا أن أغلق دكانه الذي تعرض لقفذ الطوب، حتى استعاد الفرنسيون السيطرة، دخل جند نابليون الأزهر بخيولهم، وحُكم على ستة من الشيوخ بالإعدام، جرجروهم إلى القلعة، وضربت أعناقهم، ثم دُفنت الجثث في قبور مجهولة. «لم يعلم الرعاع والغوغاء من أهل البلد أنهم خرجوا على حاكم مُسلم مثلهم، رأيتهم بأم عينيّ بنطق: «بسم الله، وصليّ أيا النبي»، بعدها عاد الهدوء للشارع، وفتح عم سمكة دكانه مرة أخرى، بتوسع أكبر، وبحراسة عسكر من الفرنسيين، بعد أن طلب من بونايرته على استحياه أن يضمه تحت جناحه ليضمن سلامته، وليعلم السوق والأثرياء أن «أسماك بونايرته» وُلِدَ ليبقى. واستقر الأمر بعم سمكة، ونضاعت ثروته حتى اشترى سراية وكارثة، ولكن دوام الحال من المحال، فقد قامت الثورة الثانية بعد رحيل بونايرته. «الله يخرب بيت أبوهم التجار ومساتير الناس على جواسيس السلطان العثماني، ع المهابيك الذين تسللوا إلى القاهرة وأثاروا أهلها، بعد أن كانوا خاشعين حامدين وشاكرين، ولاد الأبالسة جلبوا المثقلات التي يزنون بها البضائع من حديد وأحجار من حوانيت العطارين، واستخدموها لضرب مقر القيادة بالأزبكية، وجعلوا من الحارات والأزقة متاريس وخنادق، وأخذوا يصبون غضبهم على الجند الفرنسيين يميناً وشمالاً، حتى عاد الجنرال «كليبر» إلى القاهرة بعد ثمانية أيام، فأمر بضرب الأحياء وإحراقها بمداقعه، ثم أقام صلحاً مع «مراد بك» المملوكي، وأبرم معه معاهدة بموجبها أصبح الأخير حاكماً على الصعيد، بشرط، أن يقنع زعماء الثورة بالسكينة والتراجع عن الاشتباك، بل وقدم مراد بك للفرنسيين المؤن والذخائر في سفن محملة بالحطب والمواد الملتهبة، لإحداث الحرائق بالقاهرة، وسلمهم العثمانيون الذين لجئوا إليه، حتى تمكنت أيدي الفرنسيين من جديد.

وعاد «أسماك بونايرته» ليفتح أبوابه من جديد، ولكن، الناس هجرت زيارته، والطواف من حوله، غطى التراب الموائد، تعفنت الأسماك فوق الطاويلات وكساها الذباب، وانطفأت النار تحت الشواية، قبل أن يكتب مجهول كلمة «خائن» بالبُوتة على أبواب الدكان ليلاً. وما كان من عم سمكة إلا أن أغلق دكانه، وانزوى في سرايته التي تكومت على سلالها رسائل الاتهام والعار، ليستيقظ في صباح يوم، على خطبات عسكر الفرنسيين فوق بابه، يدعونه لتقديم وليمة سمك من أجل جنرال «كليبر». أخرج عم سمكة الشواية، وأتى ببرميل السمك، وانجبه بصحبة العسكر إلى مسكن القائد الجديد الذي حل محل «بونايرته»، شوى البوري، رصّه في الأطباق، مَدّ كليبر يده للسمك والتقم، دون أن ينطق باسم الله. أكل، ولم يكمل نصف السمكة، ولم يقل حتى «ديليسيوه» بعد أن انتهى أو حمد الله وشكر، اكتفى بأن مسح يده باشمزاز ثم ابتعد، كليبر ليس بونايرته، كليبر ليس مُسليماً.

حمل عم سمكة شوايته وسكاكينه، ومضى في حزن، خارجاً من منزل «كليبر» الذي لمحّه يتحدث في ركن بالحديقة مع أحد ضباطه، فاشتعلت الفكرة في رأسه: «سأخو العار ببطولة تُحرس الأفراد، ويتحاكى بها القريب والبعيد، ولأفتح دكاني ثانية مرفوع الرأس، وباسم آخر: «أسماك الطاهرة»، نسبة للمبيدة زينب». وضع عم سمكة شوايته على الأرض، استل مسكينه وراء ظهره، واقترب من كليبر، انحنى ليُقبل يده ولم

يسترب الفرنساوي، فجذبه عم سمكة بعنف وطعن قلبه كما يطعن السمك البوري، أربع طعنات أردته قتيلاً، وحين حاول الضابط المرافق الدفاع عن كليبر؛ طعنه عم سمكة أيضاً، ثم ركض هارباً، لم ينظر ورائه من الرعب، حتى مر بحديقة، وجد فيها شاباً نائماً مستنداً على جدار، رمقه للحظات، وحين سمع صوت الجند يقتربون، ألقى السكين في حجر الشاب، وأكمل مسيرة الهرب. وما هي إلا ساعة، وألقى جند «كليبر» القبض على الشاب. كان اسمه سليمان، ومن بلدة حلب، وفي يده سكين مخضبة بدماء الجنرال.

«المحاكمة كانت سريعة، وكنت حاضراً في ميدان الناصرية، واقفاً على أطراف الأصابع لأشاهد المشاعلية يضعون سليمان الحلبي فوق الخازوق، بعد أن أحرقوا ذراعاه التي لم يطعن بها كليبر، وقطعوا رءوس أعوان ذكروا أسماءهم من قسوة التعذيب. لم أجروا على الصريخ بأن الشاب الحلبي مظلوم، وأني البطل الحقيقي، ولم يجرؤ سليمان على إنكار الجريمة التي جعلت منه شجاعاً مغواراً مستحاكى الرواة بسيرته على ذلك المقاهي في السنين التالية. كم أردت أن أكون مكانه! وكم كرهت الفكرة حين رأيت العذاب في وجهه، وسمعت الصريخ الذي لم يتوقف حتى نفذ الخازوق من كتفه، ثم تركت جثته لتنهشها الطير».

رحل الفرنسي عن مصر بعد سنة من مقتل «كليبر»، وانقطع كل أمل لعم سمكة في فتح دكانه ثانية. لم يستطع سرد القصة على مسامع المعارف وإلا اتهموه بالخرف، أو ربما قدموه للمحاكمة بتهمة قتل سليمان الحلبي، حتى اعتلى محمد علي باشا العرش، والتقاء عم سمكة في مجلس شعبي سنة ١٨١١، فلوح من بعيد، وقبل يده، ثم استسمحه في سرد قصته لعله يُجزل العطاء أو يُعلنه بطلاً. وأنصت الباشا باهتمام، ثم ابتسم، ربت على كتف عم سمكة وهمس: «إني أعلم أن سليمان الحلبي مظلوم، ويكفيه أن مات فوق الخازوق، أما الخائن، فسيظل خائناً وإن ساهم في زوال حكم الفرنسيين»، قالها ثم أمر جنده الأرنؤوط بإعدام عم سمكة، ولولا رجل واصل، يدعى خليل باشا، كان من زبائن الدكان القدماء، توسط للسمك عند محمد علي باشا، لنفذ القتل. استضاف الرجل عم سمكة في بيته بعد العفو، أكرمه ونعمه، وما هي إلا أيام، ولسوء بخته، اتضح ضلوع ذلك الباشا في خيانة. اقتحم الأرنؤوط سرايته، اعتقلوه، وتم الزج بعم سمكة في سجن القلعة، بتهمة التآمر، ليصبح أقدم سجين حي، بدون محاكمة، بدون عفو، أربعة وخمسين عاماً، فقد خلالها أسنانه، أكلت الفئران أذنه وحفرت محاجر عينيه، والآن يضعونني معه، يا مصيبتك يا سليمان! وما كان من عم سمكة إلا أن صك وجهي بصفعة، لا أعلم من أين أتى بتلك القوة، ثم جذب شعري وصاح بأنفاس كالقبر: «ما تبقاش عامل زَي سُخاخ الجبال، تمّي لورا، صراخك كالنسوة لن يفيد، والولولة لن تُخرجك من هنا، عليك بأكل جير الحيطان مثلاً فعلت، حتى تبقى على قيد الحياة، فإن فيه قوة وعنفواناً، لا يحتويه اللحم، وحين يأتيك «حَمْضَم» ليضع العصا في مؤخرتك، أظهر الاستمتاع، حتى يزهد فيك».

وقبل أن أسأله مَنْ هو «حَمْضَم»، سمعت خطوات ثقيلة تسير خارج الزنزانة، رُفع الترابس، ثم انفتح الباب عن عملاق لا يقل طوله عن تسع أقدام، يحمل مصباحاً بيد، وباليد الأخرى يمسك بعصا من الحديد، في نهايتها أنشودة جلدية غليظة، رأيت مثلها مع صاندي الكلاب ومروضي السباع، أفلتت ضحكة من عم سمكة الخسيس، وهمس في أذني بغبطة: «تذكر، استمتع»، واقرب الأخير مني، تسبقه رائحة حامضة أجبرتني على السعال والعطس، ودون أن يتكلم، ألقى الأنشودة على رأسي فأحاط رقبتي، وضيق العقدة، حتى انقطعت أنفاسي، ثم خرج، يجر جرتي ورائه دون مقاومة تذكر، فالأظافر والأصابع حين تنغرس في شقوق الأرضية ما كانت لتقاوم فيضان نهر حَمْضَم الجارف، مررنا بزنازين خبط نرلاؤها على الأبواب،

وأنشدوا في صوت واحد: «ضم ضم ضم ضم»، حتى دخلنا من باب، ونزلنا درجًا، مسح بي سلمه، كالمعزة بين يديه، ثم دلفنا إلى غرفة ضيقة، فيها عروس حديدية، ربط أطرافها في أطرافها الأربعة، ثم أمال محورها حتى صار رأسي للأسفل، مزق سروالي، ومد إصبعًا غليظًا في شرجي، بحث عن شيء ضاع منه، ثم استبدل إصبعه بآخر غليظة.

قاومت الصريخ عملاً بنصيحة عم سمكة، فزهدني ضمضم ثم خرج، وما لبثت الأعين المضيفة أن ظهرت، فتران تُرحب بالضيف الوارد. ويجب أن أسجل هنا، أن فتران سجن القلعة لا تأبه بالصراخ والهش والتشنجات، وتُفضل النسيج اللين في الأجساد. قبل أن يصل الفأر الثالث فوق أبري، ويبدأ في قرض أغلى ما أملك، انفتح الباب، دخل زفت الطين ضمضم بالمصباح، أطاح بالفتران، ثم دخل وراءه بورك الأرنأوطي، وداغر بك مبتور الورك - إلهي يبتز وركه الأخرى وكتفه اليسرى ويجدع أنفه - وضع المونوكل أمام عينه ثم سألني: «كيف فعلتها؟ كيف أقنعتنا جميعًا بأن هناك قاتلاً يسعى خلف الباشوات؟ من أنت حقًا؟ طلبت منه أن يُخرج العصا من مؤخري أولاً حتى أفهم، فغرسها ضمضم بوصتين إضافيتين، وعقب بورك: «تلك العصا تُهدد للخازوق، اعترف أيها القاتل؟»، قبل أن يشير إليه داغر، ودون أن يفك جسدي من فوق العروس، صرخوا وضمعتني، بات رأسي في مكانه وهذا احتقان الدم فيه، فأجبته: «إني لا أفقه مما تقولون شيئًا»، فتلفت لسعة كرباج من ضمضم، على مؤخري وظهري، ثم قبض على خصيتي وبدأ يعتصر، وتعاف نفسي أن أسجل في اليوميات أكثر مما جادت به كرامتي المهذرة.

الخلاصة، أن بورك أعد تقريرًا مُحكمًا هدي، أكاد من إقناعه أن أقنع به، مفاده:

أنت الوحيد الذي تستطيع قطع رأس حافظ باشا في ظلمة جلسة تحضير الأرواح؟ فقد كنت تملك سكينًا، وتستطيع إخفاء الرأس في حقبتك. وقد رفضت فتحها وقت التفتيش حين أمرتك، بحجة عدم حرق الفتوغراف، ثم أخبرتني بعد يومين أن الصور قد فسدت، وقد فتشت الحاضرين كلهم، حتى الوسيط الأمريكي، وفتشت السراية، ولم أجد أحدًا...

«كيف وصل الرأس إلى باب القلعة يا حذق؟».

سألته، وكانت إجابته: «لقد أخرجت الحقيقة من السراية بحجة الخوف من أن يخطئها القواصة فتسقط، وحين ركبنا الخيل إلى الباب بصحبة داغر بك، لم تكن معك! كيف وصلت إلى اللوكاندة؟ ليس من الصعوبة أن يتولى شريك لك تعليق الرأس في باب القلعة قبل أن تغادر سراية عصمت باشا.

الدليل الثاني كان في بيت عصمت باشا، فقد تعرّفتك الحرمة بسك القلوب حين دخلت غرفتها، وصرخت بأنك القاتل، هل ذلك دليل يصح إهماله؟ أما الدليل الثالث فكان في بيت الحرمة همت إسحاق، خدّرت ابنتها لتضع البارود بصنعة ساحر ماهر وتفجر الحرمة، لتتحول الوفاة الطبيعية لعجوز تحطت العقد السابع إلى قتل عجيبة تثير الرعب في النفوس، ويسهل ضمها إلى ضحيتك السابقتين.

الدليل الرابع، كان اقتراحك يا سليمان أنندي نشر صورة الأسد في جورنال الوقائع المصرية، فقد تقدم إلى القرقول خطاط عجوز من حارة النحاتين، أفاد بأن هناك رجلًا زار دكانه وسدد ثمن الحفر أسفل سبعة تماثيل على شكل الأسود، باسم المشاعني، وحين شاهد صورتك، أقر بأنك ذلك الرجل.

وإن كان ذلك كله محض مصادفة؟ فالدليل الخامس، حامس، فقد أتت إلى القرقول أمس حرمة، تُدعى

نواعم مكرم، أفادت بأنها أمك، وقدمت فيك شكوى بأنك ابنٌ عاق، مجذوب ومناخوليا، استأثرت بميراث أبيك كله من بعد وفاته، ولا تتورع عن تجاهل خطيئتها على بابك حين تزورك لتستجدي الأموال، وترفض أن تتكفل بمصاريفها رغم ضيق حالها، مُدعيًا بأنها داعرة، ثم طالبت في الشكوى بالحُجْر عليك لفساد عقلك، وأفادت بأنها تشك في ضلوعك في دس السم لأبيك، وقتلك صاحب ميرك شعبي مُتَنقِل يُدعى «شفيق وزة»، قبل هروبك إلى دير بالمطرية للاختباء.

حين ذُكر اسم نواعم مكرم، لمحتُ بومة على كتف ضمضم، وأدركت أبعاد المؤامرة، فبوراك الأرناؤوطي ما ينفك يُراقب خطواتي منذ تولى منصبه، يزرع البصائين من حولي: بشاف! السفا صاحب القربة المسمومة، نعيمة الشركسية، وبائع حبّ العزيز الربيع بقرش الذي يناديها لتتنقل أخباري للسلطان عبد العزيز الأول؛ عدوي اللدود الذي ينشئ تاريخي ليصنع مني كبش فداء وعبرة، يريد أن ينتصر للقواصة الكسالي الناهبين لأقوات الناس، يريد أن يزيح إسماعين من فوق عرشه، ويعلم تمام العلم، أني الحجر الوحيد الذي يتصدى له، يريد أن ينصر الهجين على العبد لله ليستحوذ على جسدي، ويستغل سيرة نواعم مكرم القدرة ليُشهر بسُمتي.

حين أنهى بوراك لائحة الاعنام، برم شاربه ثم اقترب يفحص وجهي: «نظرتي فيك لم تحب يوما يا سليمان يا سيوفي، أشتُم المجرمين من مسافة بلاد، وما منعني عنك إلا قدر له أسباب، فما أنت إلا ثعبان أفاق، استحللت دم أبيك، ثم أصابك السعار، بات القتل عندك، متعة، حتى منمت السر، وأردت أن تُعرف، كي يسمع بجرمك الخلق ويذكروك في المجالس الخاصة والعامة، فاخترت الباشوات، اغتلت منهم أربعة دون وجه حق، ونحمد الله أن أدركناك قبل أن تكمل ما انتويت».

نظرت إلى داغر بك الذي سكّت دهرًا، ثم نطق كُفْزًا: «اعترف يا سليمان، اعترف وإلا ستكون موتتك حكاية شعبية تُخيف الأطفال».

وما كان مني إلا أن سحبت البلغم من صدري، وبصفت على وجه بوراك ولم أصبه، فعاجلني ضمضم بصفحة كسرت عنقي، تُوفيت على أثرها وقابلت الملكين، سُئلت، من ربي وما ديني؟ تلعثمت، فأرسلوني للمحجيم احتياطيًا، ثم اقترب أحد الزبانية بجردل ماء آمن، أو لعلّه بول، طس وجهي فاستفقت، في الزنزانة، تحتضني العروس الحديدية، بصقت ضررًا من فمي، ثم أخبرت مبتور الورك أني أتعرض لمؤامرة، وأن كل ما قبل تدليس وافتراء، المهدف منه إزاحتي من المشهد، حتى يحفظ القواصة ماء وجوههم، ويُداروا فشلهم في نقصي حقيقة قائمة الاغتيال.

طفع الإحباط في ملامح مبتور الورك، فخرج من الزنزانة ينقر الأرض في غضب، تبعه بوراك الأرناؤوطي بعد أن ابتسم لي، ثم همس في أذن ضمضم بكلمات لم أسمع منها - بسبب الزنّة التي أصابت أذني جراء الصفعة - غير كلمة «حتى يعترف»، وما لبث ضمضم أن عاد، كما يعود الدب ليأكل ضحيته بعد تعجيزها، أمال العروس الحديدية حتى بات رأسي للأسفل، التقط العصا وغمدها في مؤخرتي، كسيف يعود إلى جرابه، ثم أغلق الباب خلفه، تاركًا الفران لتولى رعايتي.

على مدار يومين بزنزانة القلعة، لم يقصّر ضمضم في زيارتي والعناية بي، كثر خيره، يفتح الباب كل بضع

ساعات ليظمنن على صحتي، يقشر جلد ظهري بكرباجه، ليصنع وجبة دسمة للفئران، قبل أن يُدير سيخ الكفتة، عشر مرات، وعملاً بنصيحة «أسيك بونا برته»: «أظهر الامتناع، حتى يزهد فيك»، والإيد التي ما تقدر تقطعها، بوسها. أغمضت عيني، وكتمت صرخاتي، حتى فقدت القدرة على الصراخ، لم يوايمني سوى تذكري لمعاناة المسيح على الصليب، يونس بداخل فم الحوت، ويوسف في السجن. سبّحت وصلّيت، حتى عفا الله عني، وكما أرسل إلى قابيل غراب يُعلّمه دفن هايل، أرسل لي فأر، زهد جلد ظهري بأمر من الله، وبدأ في فرض رسغي، قبل أن ينهش الحبل الذي يربطني بالعروس الحديدية، وما هي إلا دقائق وتحررت يدي اليمنى، ففككت اليسرى، ثم رجّيت بعد معاناة استخراج العصا من مؤخرتي - بعد يومين إضافيين لن يكون التعود اختياراً - فبعثت في الركن، وانتظرت زيارة ضمضم، حتى رفع الترابس وفتح الباب، وقبل أن يستوعب غيابي، غرست العصا الحديدية التي كانت في مؤخرتي، بعزم ما أوتيت، في مؤخرة رأسه، لم يصرخ، لم يلتفت ولم يسقط، ظل على حاله دقيقة كاملة، والدماء تتدفق من رأسه على الأرض، أصابني بالرعب، ثم سقط بغتة على العروس الحديدية وهربت الفئران من الزنازة.

اتخذ الأمر لحظات حتى تمالك نفسي، قبل أن أخرج وأسير في عمر الزنازين، أجزء العصا التي أخرجتها من مؤخرة رأس ضمضم بعد مؤخرتي، ويبدو أنها لم تقصّر في زيارة أي مسجون من قبل، فقد هملوا: «الله أكبر»، حين شاهدوها في يدي، وقد أدركوا أن ضمضم قد نفق، حتى وصلت إلى الباب الأخير، وكانت بانتظاري مفاجأة، ثلاثة حُرّاس بينادقهم، ومن ورائهم بورك الأرناؤوطي وداغر بك، أتوا لزيارتي، تحفّزت، ورفعت العصا مُستميّثاً، فإن سمّوك حرامي شرّ شر منجلك، ولكن مبتور الورك استدركني ورفع يده صائحاً: «مهلاً يا سليليان، لقد ظهرت براءتُك».



مرت ساعة أو يزيد، بين إطفاء، وتطبيب جروح تركت العلامات في ظهري، رُوحِي، ومؤخري، ومحاولات غير مُجدية لانتزاع العصا من يدي التي تشنَّجت عليها. وما كنت لأفعل، حتى استمعت لما أُنِي به مبتور الورك: «أمس، اختفى نسيم باشا من غرفة نومه، رغم وجود الخدم والجواري وأنجاله، وجدنا فوق سريره تمثال الأسد المحفور بكلمة «المشاعني»، ورسالة، أخرجها داغر من جيبه، ووضعها بين يدي: «سليمان السيوفي بري»، وصيَّج الباشا في ٦٢/ ٥٥». قرأت الرسالة مرتين، ورميت بوراك الأرناؤوطي بكل آيات الاحتقار والوعيد، ثم طلبت مُصحفًا، فتحتُه على سورة الجمعة، رقم اثنتين وستين في ترتيب السور، الآية الخامسة تقول: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْخَيْارِ يَحْمِلُ أَثْقَارًا يَتَشَاءُ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، سألت عن اليوم - لأنني فقدت الإحساس بالوقت في معية مضمم - ولما علَّمت أننا في الجمعة المباركة، طلبت أن نتحرك سريعًا.

مُحلت أيها الحكيم رغم آلامي، فوضعت فوق طست فارغة بداخل عربة داغر بك، وتحركت بنا الخيل من القلعة إلى «سوق الجمعة» جوار مسجد السيدة عائشة، خضنا في زحام الجلالة واليسرجية، يعرضون بضاعتهم من العبيد والجواري، ويتنافسون بلون الجلد وقوة الفكوك والعضلات، عرض وطلب، فيما تابعت عيناَي الأرقام المعلقة فوق السرادق، ولولا القواصة الذين يشقون الطريق، ما وصلنا إلى سرادق رقم اثنين وستين. الأقمشة كانت مُسدلة على المدخل، ومثبتة بجبال غليظة، دارت بإحكام حول العوارض الخشبية. نظرت لي داغر بك، يسألني النصح، فهزرت رأسي تأكيدًا أن تقدّم ولا تقلق، وما هي إلا دقائق وقطع القواصة الجبال بسكاكينهم، وأماطوا اللثام عن المشهد الأليم. حمار نافق، مُستلقٍ على ظهره، مُعلق، على ارتفاع ست أقدام من الأرض، قوائمه الأربع، مربوطة في عوارض السرادق الأربع، ومن منتصف كرشه المتفتحة، برز رأس نسيم باشا، مُعلق فيه كيس صغير علمت ما فيه قبل أن أفتحه.

خلال دقائق، انقلب سوق الجمعة رأسًا على عقب، انتهى البيع والشراء وسط استنكار الجلالة واليسرجية، مُحلت الجواري على العربات، وسار العبيد بجانبهن، صنع القواصة دائرة من الحبال حول السرادق رقم اثنين وستين، وشدوا زناد البنادق تحطيمًا لفضول الناس، أسدلت القماش، وأرسلت في طلب شكيب عبد الصمد، انتزعوه من المشرحة، دخل بترجرج، تأمّس لحالي كخنزير أصيل، قبل أن يفتح حقيقته ويُخرج مُعدات التشريح. طلبت خروج الجميع فانساعوا، ثم أشرت لبوراك باحتقار: «أنت أيضًا.. اخرج»، فنقذ على مضض، واستبقيت مبتور الورك ليكون شاهدًا على فحص الجثمان، وكذلك ليتقيأ ويشمئز ويتزحلق في الدماء ويقع لتكسر ساقه السليمة، جزاءً بسيطًا لما لحق بي في عهد مضمم.

قصّ شكيب الحبال الأربعة، فنزل الحمار النافق على الأرض، وضعت منديلًا على أنفي وفمي تخفيًا للرائحة، واقتربت بالعمدة المكبرة لأفحص رأس الباشا، الكيس المربوط حول رقبته كان يحوي العملة الذهبية فئة العشرة قروش، تأملت الغرز العريضة التي خاطتها بإبرة خياص، تبدأ من أسفل رقبة الحمار، وتنتهي عند الذيل، رأس الباشا لم يكن مقطوعًا ومثبتًا على بطن الحمار، فجسد نسيم باشا، كاملاً، كان يرقد بداخل الحمار.

الولادة كانت أعجب ما رأيت في حياتي، حمار ميت، يرقد على جانبه، ومن بطنه يطل رأس بشري لجنين

تخطى العقد السابع. اقترب شكيب، وبمقص دار سرقته يوماً من خياط، قص العُرز، وقبل أن ينتهي، اندفع جسد نسيم باشا من بطن الحمار عارياً لرجاء، مُغطى بالدم كما ينبغي للجنين أن يكون، ليستقر على أرض السرادق دون حركة. اقتربت منه، خبطته على طيزه فلم يبك، كبرت في أذن، وأقمت الصلاة في الأخرى، ولم يستجب، فحمله شكيب ووضعه على طاولة خشبية، وبعد فحص مبدئي وملت على أذنه وهمست: «نسيم باشا، اسم جميل مُنعش، رغم عُسر الولادة، وطبيعة الست الوالدة التي لا يشفع لها إلا فائدة لبن الحمير. وما هي ذه الأخبار التي لن تقرأها في الوقائع المصرية، لحُصتها من أجلك: لقد تم قتلك في سرايتك، فلم يكن المهجين ليصحبك معه مُحدراً أو مستيقظاً تحت تهديد سلاح، ففي الأولى احتمالية استفاقة، وفي الثانية فضيحة لم يكن المهجين ليُجازف بها. ونظراً لعلامة الضغط التي تحيط رقبتك، جحوظ عينيك - الذي يليق بك بالمناسبة - وخروج لسانك من فمك، بالإضافة للترسيب الأزرق الداكن في ظهرك، ذلك كله يشير إلى خنق مستمر بحبل غليظ، حتى الموت، مع الضغط بالركبة على وجهك، حتى تفجر نزيف دموي في شعيرات عينيك، من الخنق، ولن أنسى أن أشيد بمقاومتك، فأسفل أظافرك آثار خريشة لجلد القتال.

أما ظهرك، فتم كسر فقراته بمطرقة، ضربة لم تترك أثراً حيوياً عن الجلد - حدثت بعد الوفاة بزمان - حتى يسهل ثنيك مثل الجواب ويتم دمنك في بطن الحمار بيسر - بعد إفراغ أحشائه - لأن جنثائك كان في مرحلة التصلب الرمي، نيس تدريجي يبدأ من الرقبة والصدر، البطن، وينتهي بالرجلين، على مدار اثنتي عشرة ساعة تحولت إلى لوح خشبي، أي شخص مكان القتال كان ليكسر ظهرك فلا تلمه. بعد أن اضطجعت بين ضلوع الحمار، خبط البطن من الخارج، مُبقياً رأسك ليستنشق الهواء أو يطلب نارجيلة، وليصنع بك لوحة لن ينساها داغر بك، صديقك الذي اشماز وتقياً وكاد يتزحلق في الدماء. نسيم باشا، احرم أن تتلقى حمامك لتتخلص من أثر الولادة، واحرم ألا يلمحك صائدو العجائب؛ فهم لن يتركوا «ابن الحمار»، كائن نادر مكانه في فتارين المتاحف العلمية.

حين انتهت من الفحص، أخبرت مبنور الورك - شاحب الوجه النادم على اتهامي ظلماً - أن القتال تسلس حين انسحبت الحراسة عن السراية، مستغلاً القبض على الفاعل، الذي هو أنا. اختبأ في غرفة النوم، خلف ستائر أو أثاث، انتظر انفراده بالباشا السمين المطمئن، قبل أن يهاجمه من الخلف، ألقى بحبل غليظ في سُمك حبال الشنق حول رقبته، وأسقطه كالذبيحة أرضاً، ضغط على الوجه بركبته حتى صعد السر الإلهي، وفي الأغلب ولما انتهى، فتح النافذة وألقى بالجسد منها، ليهبط على الأرض، ففي ضلوع نسيم باشا اليمنى كسور متعددة، تشير لسقوط من مكان عالٍ، صحبه إلى نجاً أو سلخانة، وكان الحمار النافق في الانتظار، فرغت أحشائه استعداداً لاستقبال الباشا، تم الحشو، وأغلق بطن الحمار بإبرة غليظة، ثم علّق في الرقبة كيسٌ يحوي العملة الذهبية فئة العشرة قروش.

حين انتهت جلسة الحمار، تم لف جنثان نسيم باشا بالقماش، ووضع في تابوت مُغلق بالمسامير، تمهيداً لإرساله إلى أهله كي يدفنوه، أو ربما يحشون به حيواناً آخر، وليبقى بيني وبين الموت اسم واحد؛ رشيد باشا لاظوغي. حقيقة أيها الحكيم، لقد تمنيت أن يأتي المهجين إلى السرادق وليتبسني أو يقتلني، حتى يعفيني من الألم الذي انتاب جسدي، لم أعد أقوى على الهات ورائه، لم أعد أقوى على المواجهة، لم أعد أقوى حتى على المشي برجلين مضمومتين من بعد ضمضم، حتى الأفاعي السوداء في جسدي، نفقت، وطفئت جيفها في دماغي.

حين صاد السكون، انفض الزحام ورحل القواصة، لم يبقَ إلا العبد لله وداعر بك الذي قدم اعتذاراً عما حدث في غرفة الفئران بسجن القلعة، وناولني كيس جُنيهاً أعلم جيداً أنه كفيلاً بنقلي إلى عالم الأثرياء. أمسكت بالكيس، وزنته في راحتي، ثم ألقيته على الأرض بغضب، قبل أن أصرخ في داغره بعلو ما أوتيت: «كرامة سليمان جابر السيوفي لا تساوي كيساً يا داغر بك»، ولأول مرة أشعر بالرعشة في صوته، اقترب بتردد، ربت على كتفي، ووعدني بنوال الأجر الذي يُرضيني فوزاً ما يتم القبض على القاتل، فتلك القضية هي شغل أفندينا الشاغل، وسأشمل بالرعاية والعطف للبقية الباقية من حياتي، أنا وأولادي من بعدي. بدى العرض مُغريباً، لكنني استمسكت بالغضب في ملاحي، وطلبت إبعاد بوراك الأرناؤوطي عن طريقي، حتى أتفرغ لمتابعة التحقيق في المسألة، فوافق دون نقاش. ثم طلبت أن تُشدد الحراسة على الضحية السادسة، فأخبرني أنه بمجرد اختفاء نسيم باشا، سارع في جلب رشيد باشا لاطأ أوغلي، وأودعه صالوناً مغلقاً، مُحاطاً بالحرس، في نحت أفندينا ذات نفسه، وذلك كان اقتراحه. وحين التقط الكيس من الأرض، وشرع في وضعه في حقيبته، أمسكت بيده: «سأقبل ذلك الكيس اليوم فقط؛ لأنك رجل شريف، وإلا أكل التمساح سافك الأخرى». ابتسم مبتور الورك، قبل أن يأمر حرسه بتوصيلي إلى اللوكاندة.

في اللوكاندة، كانت بانتظاري فاجعة أسوأ من فاجعة مؤخري، يا أيها الإنسان، كم أنت هين وهش وهزيل! تمشي على الأرض فتتعثر في أحجار الخبث والخيانة والمعاناة، ثم تنهال عليك الكلاب والقروود والضباع لتنهش ما تبقى من سيرتك العطرة، وتغزو بدونيتها ونجاستها حياة ذكية، بذلت فيها كل التضحيات كي ترتفع إلى سماء المجد، وتتعطر بعطر الخالدين عن قدموا للإنسانية خدمات جليلة، وسطروا أسماءهم بحروف من ياقوت ومرجان في سجل التاريخ، وأصبحوا نبراساً تتحاكى بهم الأمم، حقاً، ما يبكي على الميت إلا كفته، والحمد لله أني... أنا.

لقد تحققت أسوأ كوابيسي؛ فخلال يومين، أفرغ ابن الرفهي بشاف غرفتي من العفش الذي قضيت سنيناً في شرائه، علاوة على تجميعه ورصه، ولم تكن تلك هي الكارثة، فقد كدّس كل أغراضي، في متور اللوكاندة، المتور الذي يمر به القمر هلالاً، ويعود بذراً، ليُفسد بأشغته القاتلة تركيب كل الأشياء، بل لم تكن تلك هي الكارثة، أين قشطة؟ وأين عنتر؟ ففرت فوق مكتبة العنق رغم سوء حالة مؤخري، أمسكت بتلابيه ونطقت شوشته ولحيته، وصرخت فيه علانية: «يا بصّاح العثمانلية، يا صليل العقارب يا خائن»، قبل أن يتدخل الناس بيننا ليخلصوه. فطلبت أن يحملوني إلى غرفتي، دخلت كثور أشعل الأطفال ذيله بالنفط، فوجدت باب غرفة عنتر مفتوحاً، الجتزير مفكوك والغرفة خالية، لطمت على خدود بشاف: أين عنتر؟ لم يفهمني، أين قشطة؟ فأفاد بأنها لم تكن بالغرفة حين شرع في تفرغها، أين اللبلاب؟ وما وراء اللبلاب؟ أين منظار القمر؟ أين الكاميرا؟ أين يومياتي يا ابن القحبة؟ وناولته اللكمات في كرشه ورقبته حتى كاد يتقيأ، ثم أقسمت إنني سأسمل عينيه وأجذع أنفه وأحرق اللوكاندة بعد أن أشق مصارينه وأجرحه منها في الحوار والازقة؛ إن لم ترجع أغراضي للغرفة. فتحجج المأبون بالإيجار المتأخر، وما كان مني إلا أن أخرجت الكيس الذي أعطانيه مبتور الورك، وأمام زبائن اللوكاندة، سكبت الجنيهاً فوق رأسه، نبحاً ونخاذل، ككل جاموس واجهت أسداً، فأمر الخادم بفتح المتور وحمل أغراضي للغرفة ثانية.

أيها العصاة الخميسون، أنتم كتنابلة السلطان، لا تقومون من الشمس للظل إلا بعلقة ساخنة على

مؤخرتكم، وها هو ذا صاحب العصا قد أتى.

رغم الألم الكامن، لم أغادر اللوكاندة إلا بعد التحقق من سلامة ما تبقى من أغراضي، فالتقواصة عادوا بعد خطفي وفتشوا الغرفة، ولم ينسوا الاحتفاظ بها طاب لهم، والله الحمد، هو قليل: أخذوا الكاميرا، والجنبيات، والملابس. غيرت الكالون والأقفال، دهنت المرهم على جلدي، وغمرت مؤخرتي بزيت الزيتون، وفي خروجي لم أنس رمي بضاص العثمانية الحفير بنظرة ملوذا الحديد والنار، قبل أن أهيم في الشوارع بحثاً عن أثر لقشطة أو عنتر، سألت أصحاب الدكاكين المجاورة، لم يلاحظها أحد، فاستأجرت حمازاً حجازياً مؤخرته عريضة، ووضعت فوق السرج مخدة من الريش، ثم اتخذت الطريق الصاعد حتى وصلت قرقول الرميعة، فوزت سجل المحاييس، وكان خالياً من أي ذكر لها، فخرجت على قرافة الإمام، حيث توقعت أن يستقر عنتر بحوش السيوفي الذي أوصيته بدفني فيه، لكن الحوش كان مهجوراً. مررت بقرافة المهاليك، سجن الحوض المرصود، مسجد السيدة زينب، شارع الخليج المصري، ثم أضاءت الفكرة، فلويت لجام الحمار ورجعت إلى طولون، وقرعت باب تكية الدراويش المكفوفين، الله الله.. الله الله.. حتى... الذكر كان غمغمة مسموعة، ورائحة البخور تسربت من عقب الباب. بعد قرن، فتح درويش كفيف يرتدي جلباباً أخضر: «من الطارق؟»، أخبرته بأني عابر سبيل، أبحث عن رجل يدعى عنتر، غمغم قليلاً ثم قال: «يا رسول الله مدد، أنت تقصد شيخنا «المحروق» أبو ست رجلين!»، اتخذ الأمر مني لحظات حتى أستوعب ما قال، ثم أجبتُه بنعم، عرف اسمي فغاب لقرن آخر، ثم عاد ويده جردل صغير، طلب مني خلع حذائي والوضوء بالماء والليمون، وقاية من وباء الكوليرا، قبل أن يتولني قبلاً خشبياً. سرت وراءه في الممرات، دون أن يتعثر أو يتحسس الجدران من حوله، حتى بلغنا صحن التكية، الدراويش المكفوفون في ملابس خضراء فضفاضة، على رؤوسهم اللبادات الطويلة، يرفعون أيديهم، ويتدورون بنعومة، كدوامات النيل، دون أن يصطدموا: «يا إمام الرسل يا سندي، أنت باب الله معتمدي، وبذنيابا وأخرتي، يا إمام الرسل تحذ بيدي»، تأملتُهم في خشوع، قبل أن ألحظ الشيخ المثلث الجالس في المقصورة في جلباب أزرق، أشار نحوي بيد مربوطة بالشاش، فالتحذت طريقي بين الدراويش، متحاشياً الاصطدام بأيديهم، سعدت السلام فجلست بجانبه، وحين أردت أن أتكلم رفع إحدى يديه ناهياً، فالتزمت الصمت، حتى انتهى الدراويش من رقصهم وجلسوا على الأرض في خشوع. «كيف وصلت إلى هنا؟»، ارتشف القهوة من فنجان بجانبه وصب لي فنجاناً عوجاً من كنكة ساخنة، ثم أخبرني بعد صمت: «من بعد اقتحام القواصة للوكاندة، تنبأت بمداهمتهم الغرفة وتفتيش كل شبر فيها، حاولت كسر الجنزير ولم أستطع، حتى اقتحمت قشطة الغرفة، كانت مخبئة وراء الستائر إلى أن اطمأنت بذهاب القواصة، فكنت الجنازير عن ساقي، وضعت عني الجلباب، ثم علقت الكاميرا على ظهرها ولم تنس أخذ صورة اختها من فوق الحائط، وبدلاً من الهروب لأسفل اللوكاندة، صعدنا إلى السطح. حسنتي قشطة أن أحاول الطيران ولم تتحمل أجنتي، أخبرتها أنني قد كبرت على تلك العادة، وأن الروماتيزم تمكن من مفاصلي منذ زمن، لم تبا، أمسكت بأجنتي ففردتها وحركتها، ولم أنجح سوى في الارتفاع شبراً عن الأرض، قبل أن أسقط عن ساقي. فافترحت أن نعبث إلى الأسطح المجاورة، ثم نزلنا من سلام بناية، تبعد عن اللوكاندة مسافة كافية لنخفيها عن أعين القواصة وأصحاب الدكاكين. سرت مع أميرة الليل، متدثرين بالليل، وجهتُنا حوش السيوفي بقرافة الإمام، حيث قررنا المكوث حتى تعود»، قاطعته: «أكنت تعلم أنني عائد؟»، أجابني: «لم يكن لدي أدنى شك، فأجلك لم يحن بعد»، ثم رفع صوته ليُسمع الدراويش المكفوفين: «هلمو يا مجانين الله، قوموا فارتقوا، حي». قام الدراويش

المكفوفون وتراصوا دون عناء، ثم بدءوا الدوران ثانية، فأكمل عنتر قصته: «حين وصلت وقشطة إلى قرافة الإمام، وتوغلتا بين شوارع الموتى بحثاً عن الحوش، شعرت بخطوات تتبعنا من بعيد، ثم فوجئت بعدوك وعدوي، هجين قمري، يقف بوسط الطريق، وفي يده مصباح. خانت قشطة، ونوارت خلفي، فاقترب، بأعين تحمل كل أحزان البشر، حاولت إقناعه، بأن ربي الدم لن يخرج إلا زرع الدم، وأن تحطيمك لصنم ما، تشييد لصنم أعظم، فاستخرج من جيبه سيفاً، وأبلغني رسالة من أجلك: «جارتك السوداء في حوزتي، ساعدني في الانتهاء من قائمتي، بالابتعاد عن مُراقبتي والكف عن تعقب خطواتي، وتذكر يا سليمان! لقد أنقذتك مرة، ولن أنقذك ثانية»، فالحاها ثم انقضت على قشطة، قاومتها مثل لبوة سوداء، تدخلت بعزم ما أوتيت، حتى كادت أمزق الجلباب وأطير، لكنه ضرب رأسي ببطن سيفه فاصطدمت بشجرة، وتكومت في ألم، قبل أن يتمكن منها ويلكمها بعنف لتفقد وعيها، حملها فوق كتفه مثل الذبيحة ثم رحل»، وتوقف عنتر عن الكلام حين رأى الحزن يكسو ملاحي، فنادى لدرويش عجوز يقف بالركن: «أتني بالصندوق يا مصطفى»، فتحرك الرجل دون أن يتحسس خطواته، غاب لحظات ثم عاد بالكاميرا، ولما استقرت أمامي ربت على كتفي: «تلك هي اللحظة الحاسمة يا سليمان، عليك أن تختار مصيرك، واعلم، نوح عليه السلام لم ينتصر على شيطانه، إلا بعد ركوب الغُلك، ونسيان الابن الذي هزمته أمواج الطوفان»، سألت ما يعني، فأجاب: «قشطة، حبل منك، في ذكر»، ألقاها ثم صاح في دَوَامات الرافضين: «حي»، فارتفعت الأيدي عاليًا وصاح المنشدون: «يا إمام الرسل يا سندي، أنت باب الله معتمدي، وبذُنْيايا وآخرتي، يا إمام الرسل خذ بيدي».



خرجت من تكية المكفوفين، كفيفاً أتخبط، أحمل بين ضلوعي أفاعي سوداء صغيرة تنقود ثورة، ترفع النبائيت والعصي بذيلوها، لتحطم أعضائي وتُشعل النار في رئتي وقلبي، فالهجين، اختطف قشطة؟ قمري الأسود، بقعة الخبر الوحيدة في ورقتي البيضاء، بعد أن بذرت في أحشائها نبتتي، فمن بعد عزيزة التي خانت العهد، فقدت الرجاء في ولي عهد يرث سليمان جابر السيوفي، والآن يأتي الهجين ليقتضي على آخر أمل، ويضعني في اختيار يُشبه حلم إبراهيم بذبح ابنه الوحيد، فلما أن أمكن الهجين من آخر أضحياته بالكف عن تعقبه والتخلي عن القضية، وليتهدى الأمر بقوتي بعد انتصاره على ضحايا القائمة، أو أكشف غطاءه، وأفضح اسم الضحية السابعة، فيرسل قشطتي بسليمان الصغير إلى القبر، قطار بلا سائق ومكابيح بلا كابيح. إما القفز فأتحطم، وإما البقاء فأتحطم.

ولما كان لزاماً عليّ التدبير الحكيم ونبذ اليأس، ولأنني لم أعد أملك شيئاً أخسره، فقد صليت ركعتين، ورسمت الصليب على رأسي وصدري، ثم دهنت المرهم على جلدي وعلقت الكاميرا على ظهري، وطلبت من داغر بك زرعي في نخت أفندينا، كي أستجوب الضحية السادسة، رشيد باشا لاظ أوغلي، لعني استكشف بين كلماته سرّاً يقودنا لوقف نزيف الدم. وافق بعد تفكير، ثم أرسلني في مركب خشبي مُغمض العينين، أبحر من مرسى بولاق الدكرور إلى جهة غير معلومة، يقف فيها ينجت أفندينا، حرصاً منه على سرية المخبأ في حالة خطفني واستجوابي.

ونسيت غمماً، أنني أعاني من دوار البحر.

حين وصلت، مُلئت من المركب مثل الققة، ووُضعت على ظهر اليخت المفخّم، قاومت الدوار قدر المستطاع، ثم سمعت صوت بورك الأرنأوطي، يأمر الجند بإدخالني إلى الباشا، قبل أن يمس في أذني: «لا

تُثير غضب رشيد باشا؛ فهو مُسلح، تجايلته بشموخ، حتى رُفع الغطاء عن عينيّ في صالون فخم يليق بأفندينا: لوحات المستشرقين، شمعدانات مذهبة، قنابل نصفية لمحمد علي باشا وإسماعيل باشا، أثاث طراز لويز السادس عشر، وشبابيك منحوتة ومغلقة بإحكام، الحرس الكثيف خلف الباب، خطوات بورك الأرنأوطي تتمشي فوقنا، وتنصت، وعنى الكنب، في نهاية الصالون المظلم، جلس رشيد باشا لاظ أوغلي يُدخن.

رغم الثراء، ورغم العيشة الرغدة التي وُلد فيها ذلك الباشا دونًا عن بقية الباشوات، فالملامح والكتفان كانت تحمل جبالًا من اليأس والخوف، فهو سادس المُبشرين بالجحيم، عليم بخير نسيم باشا «خليفة الحمار» ومن قبله، شركاء الكوبانية الملعونة، عبدة الأسد، الصنم الذي جر عليهم القتل والتكيل، علم أيضًا أن لا شيء يُوقف ذلك الوحش، فقواصة المحروسة، وداغر بك من ورائهم، وأفندينا إسماعيل، والعبد لله ذات نفسه، لم يستطيعوا كبح جماح ذلك الهجين.

ابن لاظ أوغلي كان يرتدي قميصًا من الحرير الأخضر، تحته سروال أسود، يحزمه زنار عريض فيه غدارة ذهبية وصيف منقوش - ولو استطاع لوضع على حجره بندقيّة جاتلينج سريعة الطلقات - فوق ذلك كله جبة مشغولة بخيوط الذهب، لم أجتهد لأعلم أن تلك الملابس كانت لوالده الكتبخدا المرعب لاظ أوغلي، الصديق الأقرب ورفيق كفاح الباشا محمد علي.

نمت، حاولت حفظ الاتزان، ثم ألقيت سلامًا لم يرد، فسحبت كُرسيًا، واقتربت منه، رمقني بتحفظ، واستمسك بمقبض الغدارة الذهبية المحشورة في زناره، رفعت يديّ في استسلام، ثم أخبرته بأنّي مُكلّفت من داغر بك بالتحقيق في الوقائع الجارية والتحدث معه للتوصل إلى القاتل. أبدى فتورًا، وحين اقتربت شبرًا إضائيًا شممت رائحة النبيذ فأدركت أن الكحول قد سبقني وولج عقله، جلست، فسحب من الشبك نفّسًا فيه عبق الأفيون، ورماني بنظرة حادة: «لا تبدو قواصًا»، كانت تلك بداية جيدة. «هذا صحيح، فلست بقواص، أنا مُصور، ولم آت هنا إلا من أجل التقاط صورة بالكاميرا، لابن رجل يُعلّم التاريخ أسطورة مشّت على تلك الأرض يومًا، ساكن الجنان، محمد باشا لاظ أوغلي، اسمح لي أن أسأل، تلك كانت ملابسه؟»، رمى رشيد باشا رأسه إلى الوراء، لحظات طالت، ثم فرك عينيه وأجابني: «نعم»، طلبت منه التقاط صورة تذكارية، لم يُبدِ رفضًا أو موافقة، نصبت الكاميرا ووضعت لوح الزجاج الخلفي، وضغطت الزناد مع تزامن احتراق لمبة مغنسيوم، تفاجأ الباشا بالضوء المبهر فرقع الغدارة في وجهي وشد الزناد، فأخبرته أن ذلك ضوء للتصوير حتى هدا، وما هي لحظات حتى استدرجته فبدأ يحكي، وقد أيدّه في ذلك القرار الأفيون والنبيذ.

«أبي، كان صديق طفولة محمد علي الباشا، وُلد في نفس الشهر من عام ١٧٦٩، كانا إخوة رضاعة، التحقنا بالجندية في تركيا قبل أن يُسافرا معًا إلى مصر سنة ١٨٠١، للإشراف على خروج الحملة الفرنسية. وما لبث محمد علي باشا بدعم من أبي أن سلك طريقه وسط الفوضى التي تلت خروج الفرنسيين وتخبّط مشايخ المصريين، ليتولى الباشا عرش البلاد سنة ١٨٠٥، ويصبح أبي، ذراعه اليمنى، ناظر ماليته، الكتبخدا، ورئيس الدواوين. لم تكن نعمة لتعرّ أسفل العرش، دون علم لاظ أوغلي باشا، كان يكلف البصاحين بالتنكر ليجوبوا المقاهي والمسكك ويتنصتوا على البيوت لمعرفة أخبار الناس، يملئون رسائلهم بالأسرار، ويُودعونها في بيت حُرمة تُدعى «حُسنه العتر» تسكن في السيدة زينب، لتوصلها بدورها عبر مراسل خصوصي إلي أبي

في كل يوم اثنين.

في كل حي، من المحروسة وحتى الأمشانة، كان هناك «حُسنه العثر».

تخرج من النبيذ كأشأ وناولني أخرى، وقد انفتحت شهيته على سرد الأبحاد، نفخ الأنفاس إلى السقف وأردف: «لا أذكر أن هناك وفاة بين رجال القلعة، مثل الذي كان بين أبي ومحمد علي باشا، واجها المصاعب والأهوال حتى استقر بهم الحال، ولم يعد هناك غير شوكة وحيدة، بحجم حوت أحذب، تغز ظهر العرش، وتورق أبي: المماليك. فبحلول عام ١٨١١ كان الرعاع قد بلغوا من الغرور والتمرد مبلغًا عظيمًا، فإما استعادة المجد البائد قبل دخول الفرنسيين، وإما إحداث الفوضى الشاملة وتقسيم البلاد لمديريات منفصلة، وقد حاولوا أكثر من مرة اغتيال الباشا، في طريق السويس، وأمام باب القلعة، وكذلك تعرض أبي لمحاولة اغتيال كادت تُودي بحياته في الإسكندرية. لم تنفع معهم محاولات الصلح والإرضاء، وحتى حين عرض أبي على زعيمهم حُكم الوجه القبلي مقابل المال، واشترط عليه عدم التحالف مع الإنجليز المتربصين. تخاذل ونمايع، كر وفر، عنتريات وكسكسة، المهمل، الأغبياء، لم يدركوا أن الزمن لم يعد زمنهم، أجبروا أبي أن يُدبر خطة، جهنمية، ميرية، لا يعلمها إلا أصابع اليد الواحدة».

فجأة قام رشيد باشا فاعتلى الكنية بغثة ورفع يده بحماس مُبالغ فيه: «ندعوكم، سادة المماليك، لحفل بمناسبة تولي أحمد باشا طوسون بن محمد علي باشا قيادة الجيش الخارج إلى الحجاز للقضاء على الوهابيين. يا لها من فكرة عبقرية!».

قالها ثم قفز من فوق الكنية وكاد يقع، تماسك ثم أشار لثيابه: «أذكر يومها، كان أبي يرتدي تلك الملابس، ويضع نفس ذلك السيف، وتلك الغدارة، محشوة بالبارود، كان عمري عشرين عامًا، أمرني أن أصحبه، وأن ألتزم بكل ما يقول بالحرف الواحد. اتخذنا طريقنا إلى قاعة العرش، وقفنا بالباب واستقبلنا المماليك مع الباشا الكبير، شربنا القهوة، تبادلنا الأحاديث النافذة وصحكننا، ثم تقرر الرحيل، ودّعنا طوسون باشا، والمماليك، واتخذ الجيش أهبة الاستعداد، تحرك منحدرًا تجاه باب العزب، يتبعه أربعائة ومسبعون من خيرة رؤساء المماليك، في أبهى حلل فوق أئمن السروج، يليهم الوجاقلية والألدشات، والجند الأرنأوط، بقيادة «صالح قوش». أمرني أبي أن أدخل الشرفة، فدلقت عنى استحياء، الباشا الكبير كان ممتنع الوجه يُدخن في عصية وبجانبه أبي، يتأملان المشهد المهيب، خرج آخر جندي بالجيش إلى ميدان الرميّة، وإذا بباب العزب يرتج ثم يُغلق من الخارج، بأمر من إبراهيم أغا، وما كنت لأنسى الصيحة، خرجت من فم صالح قوش، فارتج المكان بوقع شد زناد البنادق، ثم بدأ الضرب من قوات الأرنأوط بالقزب والبنادق، تجاه المماليك، حتى ظن أكثرهم أن تلك هي الساعة، صراخ وعويل، سقوط من فوق الخيول، الفراوي والثياب الفخمة الثقيلة تُعيقهم. تناثرت الدماء، وتفجرت الرؤوس، الامتعطف قات أوانه، ومحاولات تسلق الصخور هربًا انتهت بالفشل، وجز العنق حتى لمن استغاث بالحريم. لم يتحرك الصديقان، راقبا ما يحدث بأعين جاحظة، وإذا بأبي يخرج ويأمرني ألا أتبعه، تابعت القتل ساعة كاملة دون أن أنبس بكلمة، بجانب الباشا الكبير الذي تابع باهتمام، قبل أن يظهر أبي، وسط الجند الأرنأوط، يأتون له بالمماليك الذين نجحوا في تسلق الصخور، مُساقين كالخراف يوم العيد، فيفصل أبي رؤوسهم بضربة سيف واحدة - كان عفيًا رحمه الله - ثم يُلقى المشاعلية بالرءوس إلى حوش الديوان، لتتراص بعد ذلك في هرم، يشهد عن أسطورة لاظ أوغلي باشا، اسم مهيب، لا يذكره الناس في عُرف نومهم إلا همسًا. والآن يأتي من يحدد ابنه!». قالها بأسى، ثم أطاح بزجاجة

النيبذ إلى الحائط فتكسرت: «وماذا حدث بعد المذبحة؟ هل تظنه انتقاماً من أحد أبناء الممالك؟»، ضحك بشالة: «يا غبي، لقد أبدناهم عن بكرة أبيهم، وصحفت أبنائهم، وطاردا فلولهم حتى الحبشة، وقطعنا لسان كل من سولت لهم أنفسهم ذكرهم. الممالك، جنس مُنقرض، لا وجود له». «وماذا بشأن الكوبانية؟ هل هي أموال الممالك؟»، ضحك ثم سكث بفتة، وتحجرت عيناه: «أموال الممالك صودرت لخزانة الباشا، أما الكوبانية، فقد رُويت بذرتها بدماء ملعونة.. دماء رجل عارضنا يوم المذبحة». كان ذلك حين سمعنا على سطح البخت وقع سُقوط، وزن جسد رجل، وبندقية، تدهجرت حتى سقطت في الماء، تبعه إطلاق نار مُكثف، في كل اتجاه، صرخات مبتورة من حلق تذبذب، ارتعد رشيد باشا ورفع سيفه، وما كان مني إلا أن جاهدت في حمل شمعديان ولم أستطع، فألقى رشيد باشا بي بخنجر صغير، ثم ساد السكون بفتة، وتحفزت الأعين، أشرت إليه ألا يُحدث صوتاً، فبدأ في إطلاق البارود والسباب عن السطح في نوبة هلع: «أيها الخنزير، واجهني رجلاً لرجل»، لحظات وانفتح كالون الباب، توارب في ترقب، فانهاه عليه ابن لاذ أوغلي بالبارود، حتى سقط الجسد على العتب، اقتربنا في جرح، وفي ضوء القمر، شاهدنا بورك الأرنأوطي، مطعوناً في رقبته، وقبل أن تصدر عنا ردة فعل، سمعنا من خلفنا، من جهة الشباك الذي انفتح فكشف النيل، صوت خطوات سريعة، توكض نحونا، وفجأة، سقطت الغدارة من يد الباشا، بذراع الباشا من بعد الكوع، على الأرض. فتح فمه بصرخة لم تخرج من شدة الألم، وتراجعت حتى تعثرت في المنضدة فوقعت، وحين نالكت نفسي، واعتدلت، شاهدت الهجين يحتم على صدر الباشا، جرّده من سيفه، كتم صرخته بقماشه حشرها في فمه، ثم جرّده من رقبته وخرج من الباب في هدوء، بعد أن رمقني بحدة: «لا تتحرك». قبع، ولو استطعت أن أدخل في جلدي مثل الشراب المقلوب لفعلت. مرت الدقائق، كأنها سنين، كسرت ضرساً، وتصيب العرق على الأرض، ثم تعالت صرخات الباشا. حشجة، عويل طويل، فنادتني نفسي: «إن أقر في النيل يا سليمان، جرّب حظك مع نور القمر والتماسيح، فهي على الأقل أوسع رحمة من الهجين. زحفت حتى الشباك المفتوح، وقبل أن أقر، إذا بالهجين ينقض من ورائي، مسح ساقي حتى كاد يخلعها، ألقاني على وجهي، وأطاح بالخنجر الذي أقبض عليه بين أصابعي: «إن كنت ستقتلني فلا تُعذّبي، اجعل موتي سريعاً كالبرق، فأنا أعلم كل شيء عنك، أعلم أنك من أحفاد الممالك، وأعلم أنك تنتم لأب أو جد قُطعت رأسها يوم المذبحة الكبرى»، مسع الهجين دماء الباشا من فوق سيفه، ثم جلس القرفصاء على بُعد شبر مني وعقب: «أولعها أم».

لم أستوعب ما يعني؛ فالممالك لم يكن بينهم حرمة حين قُتلوا يوم المذبحة! التفت الهجين ذراع الباشا المقطوعة، تأملها، ثم أخرج العملة الذهبية من جيبه، دسها بين الأصابع الباردة وأغلقها، بقشيش متواضع لابن لاذ أوغلي باشا، ثم وضع الذراع في حجري وهمس: «من الذي ادّعى أني من الممالك الأوساخ؟»، ساد صمت طويل، فيضان في نهر الغباء، وتوقف عقلي عن التنفس، قبل أن يعقب: «جارتك السوداء في قارب على الضفة الأخرى، مربوطة بالحبال، وحية، كانت نعم طعم اضطررت إلى زيارة الضحية السادسة التي لم أكن أعلم مكانها». وقبل أن يخفي، ضغطت زر التصوير، فاشتعلت لمبة المغنسيوم، برق بعينه في غضب، ثم تبخر مثل دخان في مهب الرياح. نظرت للذراع، فتقيات، وضعتها بجاني ثم قمت، أو هكذا ظننت، ضربني الدوار فترنحت، جلست، ثم زحفت، فوق جسد بورك الأرنأوطي، وفوق جث الجند القتلى، خُضت في دمائهم، حتى بلغت السطح. القمر كان كاملاً، والنهر ساكناً كالمرأة رغم قرب الفيضان، أما رشيد ابن لاذ أوغلي باشا، فقد كان جالساً في هدوء، في ثياب والده المبهرة، فوق خازوق - ساري

اليخت سابقاً - اخترق مؤخرته، فأمعاء، فرثيه، ليخرج من فمه الناظر للسماء، تاركاً من تحته بركة دماء باردة، وأبحاًذا بائدة.

وقفزت إلى المياه رغم الرعب ورغم نور القمر، رغم التماسيح ورغم ضعف البصر، سبحت إلى الضفة الأخرى، وبصقت ورد النيل حتى أدركت القارب المربوط بجذع الشجرة، الباذنجانة كانت مُتكومة على جانبها، موثوقة اليدين في الرجلين، فزعت حين رأتني، قبل أن تتنفس، صعدت للقارب، وحللت عُقدتها، قبل أن أجذب، حتى بحيرة فيكتوريا، حتى المحيط الأطلسي، حتى كوكب المشتري.



أنباء ما حدث من وقائع بعد حادث نحت أفندينا.

مقتل ابن لاط أوغني باشا على متن نحت أفندينا، كان له وقع مُهين مؤلم، خاصة بعد مقتل نسيم باشا، والعتور على جُثته في سوق الجمعة بعد لجوئه للقلعة، عار اضطر الديوان أن يتستر عليه ويُخفي أخباره عن الفضوليين والصحافجية، وبالطبع عن السلطان عبد العزيز الأول الذي يُسعده كثيرًا كل ما يحل بالديار المصرية من خراب. رُفع جثمان الباشا عن الخازوق، كُفّن في السر، ودُفن دون أن يُفتح الثابوت، وتم غسل اليخت من دماء الموتى، قبل أن يُبحر عن متنه فبطان بظافمه إلى ميناء إيطالي ليتم إصلاحه وتبديل الأخشاب التي اخترقها البارود.

الشك والالتباس والارتباب لم يغادروا وجه داغر بك بعد أن قصصت عن مسامحه وقائع مذبحه اليخت، ولولا الصورة التي التقطتها للهجين بلعبة المنسيوم؛ لألقاني في غياهب سجن القلعة. دار في غرفته كالنحلة، ثم سألتني: «لم كنت الوحيد الذي نجا؟ لم أبق على عليك؟»، وبنض النظر أني شعرت من صيغة السؤال وكأنه لوم موجه للهجين بسبب تركي حيًا أكثر منه استفسارًا، إلا أني أجبت: «الهجين تعهد يقتلي بعد انتهاء القائمة، وقد تركني حيًا بعد كل اغتيال حتى أصبح شاهدًا موثقًا لانتقامه، وإلا صار القتل عنده، حفرًا في الماء. استمع لتفسير من أذن، ونقياه من الأخرى، ثم أخبرني أن أفندينا أمر باستئجار رجل بوليس إيطالي يُدعى «كارليس مو»، سيصل القاهرة غدًا عن متن سفينة، وهو مدعو لحفل الاستقبال المقام بسراي قصر القبة بمناسبة تولي «توفيق» نجل أفندينا البكري، منصب ولي عهد، وليتولى الإيطالي رئاسة إدارة القواصة - كنت يومًا أطمع في ذلك المنصب - ويتسلم التحقيق في قضية الباشوات.

وضع في يدي كيسًا إضافيًا: «هذا كيس أخير، ثمرة مشاركتك في القضية، وضمانة ألا تنفوه بشيء مما حدث، بشرط، أن تخفي عن المشهد تمامًا». سألتها، كيف أخفي والضحية الأخيرة لم تظهر؟ فأجابني بأن الذين ماتوا كانوا أعضاء الكوبانية، ستة أشخاص، وليس هناك ضحية سابعة إلا في تخيلتي، وقبل أن أغادر، استدركني: «سليمان أفندي، زمن القواصة انتهى، وكذلك زمنك؛ فالبوليس الطليان سيحكمون تلك البلاد بالعلم والحديد والنار».

أما قسطة المسكينة، فحين عُدنا إلى اللوكاندة بعد ذلك اليوم الشاق، كانت تمر بنوبة دُعر لا مثيل لها، علاوة على رجفة لم تغادرها حتى سقيتها اللبن الدافئ، نامت على ذراعي فتأملتها حتى كدت أفقد ذراعي، من التتميل، وحين استيقظت، وضعت يدي على بطنها فابتسمت، وأشارت لرسم أختها بالفحم على الجدار، بين الأطفال الكثيرين. سألتها بياس: «أحك لي، ماذا حدث؟ هل آذاك الهجين؟ أين احتفظ بك؟»، وكأنها ستفهم يا سليمان؟! «الهجين ليس من المهالك»، رمقتني باستغراب، ولسان حالها يكاد ينطق: «لا أفقه لغتك أيها المعتوه»، «الهجين يتقم لأم وليس لأب أو جد»، تكومت بجانب الحائط، فممت إلى أغراضي المبعثرة، أرتبها في غرفة عترة الذي رفض العودة للوكاندة، مُتججًا بأن تكية المكفوفين تحتاج إليه، كما يحتاج إليها، فقد بدأ وزنه يتناقص، وبدأت أجنحته تقوى وتشد منذ واطب على رقصات المولوية، ثم أخبرني بأن غرفته الآن تليق بطفل جديد، سيقول له يومًا عمي عترة.

عزمت أن أشتري بكيس النقود الذي ربحته - مكاناً لأصمتي - سريرًا للطفل نصفه أبيض، والنصف الثاني ليل حالك، مخدة من ريش النعام، ناموسية، ستارة لا تنفذ نور القمر، وسجادة ناعمة، حتى يتعلم المشي عليها، هل سيكون له ذيل؟ هل ستكون عيناه زرقاوين مثل أمه؟ هل سأسميه صالح؟ هل ماتت الأفاعي بداخلي؟ أم أن عودة قشقة أعادت لي أنفاسي وأرغمت الأفاعي بالسحر الإفريقي على الرحيل؟ هل سيظهر المهجين في حياتي ثانية؟

لقمعت الكنكة بالقهوة المحوَّجة، وأشعلت سيجارة، وشرعت في ترتيب الغرفة، وضعت مرتبتى في غرفة عنتر، ونصبت المنظار الفلكي خلف النافذة، وما هي إلا لحظات، وبدأت قشقة تُشاركني في إعداد بيتها الجديد، وضعت أحواض الزرع بجانب الحائط، سَقَت اللبلاب، فرشَت الملاءة، ثم بدأت في إفراغ الصناديق من البرطمانات، الأجنَّة العجيبة لم تُثر اشمئزازها، ولعلها ستُخرجهم في يوم من الأيام لتلتهمها بعد التتبيل، رصَّتها فوق الرفوف كأنها ترص المزهريات، حتى سقط من يدها برطمان فتكسرت، أو هكذا ظننت، خرجت إليها، فوجدتها تنظر في فزع لم أفهمه إلى خنافس الكركدن السوداء الكبيرة، غنيمة رأس عصمت باشا؛ ثاني صحايا المهجين، ترعى بين زجاج البرطمان المحطم قرب ساقبها، وتُشير قشقة إليها قائلة: «إيمو، إيمو». أفلتت مني ضحكة، حبيبتى تأكل لحم البشر، وتشمئز من الخنافس! «إيمو، إيمو»، دعيني أحملها بعيداً، إنها فاتلة رفيقة مثلك، «إيمو، إيمو»، وقبل أن أمد يدي لألتقطها، صرخت، وأبعدتني، ثم التقطت الفحمة ورسمت على الحائط، خنافس كثيرة، ثم وضعتهن في حوض. سبحان الله، قشقة تفكر في مشروع تجاري؛ مزرعة خنافس. احتضنتها، وقد أدركت أن حياتنا لن تكون سهلة، فعاودت الصراخ، ثم استأنفت الرسم، باب؟ وجه مُثلَّم يشبه المهجين؟ هل ترسمين المخبأ الذي اختُطف فيه؟ المكان الذي تربت فيه الخنافس؟ نجاة اهتممت بالخطوط، حتى رسمت سيدة، وكرسياً مُميزاً، رأيتها من قبل. فتشت الصناديق حتى عثرت على ملف صور الجرائم، مررتها أمام عيني قشقة حتى صرخت، حين كان بين أصابعي، صورة من صالون سراية عصمت باشا، صورة للكرسي ذي الظهر العالي، المكسو بالتغطية المشغولة.

ضرب جبهتي سهم الألم، كُذت أسقط لكنني تمالكت نفسي، بحثت عن مُفكرتي مثل فأر حفار، حتى عثرت عليها، فرزت أسماء الباشوات التي نقلتها من الدفترخانة يوماً، ثم توقفت أمام اسم، معلومات ضئيلة، وبيانات شحيحة عن زوجة وابنة، سألت عنه الموظف يومها، فأخبرني أنه باشا غضب عليه أفندينا سنة ١٨١١.

لم يكذب عنتر حين قال عن قشقة.. إنها الخلاص.

بعد نصف ساعة، عَبَرَت جزيرة الروضة، وتمشيت تحت أشجار الجميز، حتى وصلت إلى سراية «عصمت باشا» المطلة على النيل. «نمرة سبعة مكة المقياس في حالة أردت الزيارة يوماً أيها الحكيم»، قرعت البوابة حتى ظهر الخادم، نظر في وجهي بانزعاج، فذكرته نفسي، وطلبت مقابلة «مسك هانم». في الصالون انتظرت دقائق، لاحظت خلالها رسمة، لامرأة جميلة، قبل أن يذق الكعب فوق السلام، دخلت الحُرمة مسك في ثوب أسود بدت فيه فاتنة، رغم الحزن البادي، رحبت بي، طلبت لنا شايًا، ثم جلستنا، سألتني عن سبب الزيارة، فسألته عن جرح كتفها، حمدت الله على ما قدر، فأخرجت من جيبِي ظرفاً فيه خمسة جُنيَّهات، واعتذرت لها عن فشلي في العثور على القاتل، وكذا فساد صور جلسة تحضير الأرواح: «يبدو أن الحضور

الميتافيزيقي كان أقوى من أن تتحمله عدسة الفوتوغراف». رفضت بإباء: «ما حدث يوم الجلسة يستوجب تعويضًا يليق بك»، فسألته عن السيدة الجميلة في الرسم، ابتسمت: «إنها زوجة المرحوم الأولى»، أبدت استغرابًا كوني لم ألاحظها حين زُرت السراية، مرتين، وكان ردها: «الباشا رحمه الله كان يغار عليها حتى آخر يوم في حياتها، مسكينة، لم ترَ النور يومًا»، ترحمنا عليها: «متى تُوفيت؟»، نظرت للسقف تستدعي ذاكرة: «منذ عشرين عامًا»، «ولم تُنجب للباشا أطفالًا؟»، ابتسمت في أسى: «الباشا كان عقيمًا»، قمت فأغلقت الباب وسط دهشتها، وأودعت المفتاح جيبي: «ماذا تفعل؟»، ابتسمت مُطمئنة: «لا أريد للخدم أن يسمعوا ما أقول»، هزت رأسها في اهتمام فأردفت: «لقد وضعت ثقتك فيَّ يومًا، وناولتني العربون في وقت عوز، ولن أخذلك، سأحكى لك قصة.. قصة ذلك الشمعدان»، وأشارت لشمعدان يطابق الذي ألقته يومًا على الهجين، أثناء مقاومته، استغربت ما قلت، وأفلتت منها ضحكة، فأردفت: «حين تحدثنا أول مرة، في العربية، قلت بالحرف، إنك التقطت الشمعدان حين هاجمك القاتل، قذفته ناحيته فأخطأه، ثم تعثرت خطأك فسقطت وزحفت، فأطبق عليك وخنقك، حتى غيب عن الوعي، اليس كذلك؟»، هزت رأسها إيجابًا، فطلبت منها حمل الشمعدان وإعادة تكوين المشهد. ابتسمت في استغراب، كررت طلبي، فاستجابت، توجهت للشمعدان، أمسكت بجذعه، وحاولت رفعه، فلم يرتفع عن رخامة المنضدة نصف بوصة، ثم حاولت ثانيًا فشلت، وضربت العصبية ملامحها، فعاجلتها: «مسك هانم، أنت لم تُلقي الشمعدان، لأنه ثقيل، جدًّا، بل لقد نسيت وحاولت رفعه بذراعيك المصابة»، تنبّهت فابتسمت ابتسامة صفراء: «لا أعتقد أنني فهمت مقصودك!»، سألتها الصبر: «دعيني أكمل القصة يا هانم، لقد اختلفت الحوادث، اختلفت مقاومة القاتل الذي أصابك إصابة محسوبة، نُوحى بالقسوة، وفي نفس الوقت، لا تترك فيك أثرًا دائمًا، ولكي تبدو الأمور طبيعية، ادعيت إلقاء الشمعدان أثناء مقاومته، مُتناسية وزنه، أو ربما لأن القاتل، مقتول العضلات، هو من اقترح إلقاءه، سيدتي، ذلك الشمعدان النحاسي يستعصي عن الرجال حملهُ، ما بالك بقذفه في وجه قاتل زوجك وأنت مفزوعة!». ساد صمت طويل، لم تقاطعني، رمقتني بتوتر فأردفت: «ثم مرت الأيام، ودعوتني لجلسة تحضير الأرواح، تولى الدجال الأمريكي استعراض الأعيه، قبل أن يتسلل القاتل إلى الصالون، من باب سري، مثل كل سرايات الوجاه أمتالكم، ويقتطف رأس حافظ باشا من بيننا، وفي قلب الفوضى، يدس الرأس في المخبأ الوحيد الذي يناسب أبعاده، بل هو مخبأ لا يجوز تفتيشه، كاميري الخشبية، قبل أن يعود من نفس الباب، الذي أظنه هنا»، وأشارت للمكان الوحيد في الحائط الذي عُلق فوقه لوحة زيتية جديدة، تحمل منظرًا طبيعيًا، بحيرة وشجرة وفتيات بفساتين بيضاء وملائكة، وما إن ضغطت الحائط أسفل اللوحة بكفي، حتى انفتح باب سري يُفقي إلى غرفة صغيرة، بحجم إنسان. راقبت أصابعها التي تعانقت وتشنجت: «لا شيء يختفي بلا أثر، فالقاتل وخلال اللحظات التي أغلق فيها بورتال الأناضوطي الصالون، خرج من مخبئه بالرأس الذي جزه قبل دقائق، دسه بداخل الكاميرا، وعاد إلى مخبئه، ليمر أمام كل الأعين، قبل أن يُعثر عليه مُعلقًا في باب العزب؛ الباب الذي شهد مذبحه القلعة، وحين طبعت الفوتوغراف، مُتحفّرًا لرؤية شبح زوجك العزيز، اتضح أن الزجاج الحساس تعرض للضوء فاحترق، لتظهر الصور بيضاء، ثم اكتشفت أن الكاميرا، مُلطخة من الداخل بالدماء، ليزداد بقيني بحضور روح القاتل».

قامت الحُرمة، واتجهت للباب في عصبية، فعارضتها: «لم تنتهِ القصة بعد يا هانم، تلك السيدة التي تُشبهك بشكل كبير، لم تكن زوجة عصمت باشا فقط، بل كانت أمك، وقد أخبرني القاتل في اليخت، أنه ينتقم لأم»،

انعقد لسانها عن الكلام فعاجلتها: «لقد صرح رشيد باشا لآظ أوغني، قبل لحظات من موته، بأن الكوبانية، رُويت بذرتها بدماء ملعونة: «دماء رجل عارضنا يوم المذبحة»، وبالإضافة لقصة عجبية، سمعتها من فم سجين بالقلعة، يُدعى عم سمكة، حكى عن باشا نبيل، كان السبب في إنفاذه من الإعدام، ولسوء البخت، تم اتهامه بالتآمر. مما طابق بيانات عثرتُ عليها في الدفترخانة، ذكر فيها اسم باشا مغضوب عليه، اتهم بالتآمر، وتم إعدامه سنة ١٨١١، ذلك الباشا كان يملك زوجة وابنة، في مثل عُمرِك؛ ذلك الباشا كان يُدعى، خليل المصري.

لم تنبس الحُرمة بكلمة، فأدركتُ أنني أصبحت الهدف، نظرتُ في عيني، ثم نظرتُ ورائي، مثلما نظرتُ عزيزة يومًا لسيد عجوة، فالتفتُ، وكان الهجين حاضرًا. زحفتُ الأفاعي السوداء فوق السجادة، تتجه نحوي، وقد اشتَمَت العرق الذي غمرني والبول الذي أوشك أن يُبلل سروالي. جلستُ على الكنب، أو وقعت، الهجين بدون لثامه، والحرق في جبينه، كان في منتصف الخمسين، يملك عيني مسك هائم وأنفها الحاد، ويرتدي بدلة الافرانكا قُمة في الأناقة: «لم أظنك بذلك الذكاء يا سليليان أندي»، اقترَب، فكدتُ صوتي، سحب الكرسي ذا الظهر المكسو بالقُطيفة، وجلس، فتضاعف الألم في جبهتي، أشعل سيجارة ثم تحدث: «دعني أكمل القصة، فأنت رجل يشناق للحقيقة. خليل باشا المصري، كان من الأثرياء، يملك آلاف الأفدنة، وعددًا من المصانع، لكنه لم يكن محبوبًا من رجال الباشا، لأنه لم يصادقهم، ولم يُهادنهم، كان يتحاشاهم لعلهم بغيبهم، حتى وصفوه بالغرور، ولعلك مثل العامة، لا تعلم إلا نصف القصة، دعني أحكي لك ما حدث يوم واحد مارس سنة إحدى عشرة، حين انغلق باب العزب على المماليك، واختلط ذوي الرصاصات بالصرخات، وقعت بالناس كرسية، وهرب من حضر ليشهد خروج الموكب المهيب، أغلقت الحوانيت، وبدأت رموس المماليك تُلقَى في حوش الديوان، تتكوم وتنزف، كالبطيخ الفاسد، وعندما تحقق الجند من قتل أمراء المماليك، انبثوا كالجراد طالعين النهب والغنيمة، عاثوا فسادًا وولجوا البيوت، وهتكوا الحرم وسحبوا الجوارح والخونندات وسلبوا ما عليهن من جواهر، وكل أمير ملك دارًا كبيرة، تم الاستيلاء عليها. نُهب في تلك الواقعة ما لا يقدر حصره، ولا يُحصيه إلا الله، ولم يتوقف النهب حتى نزل الباشا بنفسه في الضحى، راكبًا في موكب، وحوله الأمراء والجند مُشاة، والفرح والسرور بقتل المماليك طافح في الوجوه، أمر بقتل بعض رموس النهابين، ثم أصدر لآظ أوغني أمرًا بتعقب فلول المماليك الذين لم يحضروا المأدبة الدامية، فانطلق الجند كالضباع الجائعة، تشتت ذكر المغضوب عليهم، وكان تلك فرصة لن تتكرر، للتخلص من خصم عنيد مغرور لا ينحني. فاجتمع خمسة رجال وامرأة، على شهادة واحدة: «خليل باشا المصري يأوي أمراء المماليك في بيته»، لتتجه قوة من الأرناؤوط إلى سرايتنا، ويتم خطف خليل باشا؛ أبي، أمام أعيننا، بعد تبادل إطلاق رصاص لم يحدث، وتحمل بعض رموس المماليك الفارين لتُلقَى في حوش الديوان، بينهم رأس أبي، الخائن»، هنا بكت مسك القلوب، انحدرت دموعها بمزوجة بالكحل على وجنتها قبل أن تتكلم: «كنتُ أبلغ من العمر خمس سنوات، وكانت أمي حبلى في عني» - الهجين اسمه عني - «وبسبب جمال وجهها، لم يقتلها عصمت باشا، كانت نصيبه في التركة، اتخذها جارية، أراد الاستمتاع بها، وإذلالها، أنجبت عني بأعجوبة، وعاشت حبيسة في طابق علوي مُغلق بمفتاح، ضُربت بالكرباج لأنها تنظر في عينية بعد انتهائه منها، ضُربت بالكرباج لأنها تنفَس، ضُربت بالكرباج لأنها نجحت في تهريب عني وهو طفل صغير، إلى الصعيد، بصحبة خادمة مُخلصة، بعد أن ألقى عصمت باشا المصباح عني وجهه فأحرق جلده، وضُربت أمه بالكرباج لعدم إنجابها، الباشا لم يكن يعلم أنه العقيم، حتى أصاب أمي المرض، ولما ماتت، اتخذني زوجة،

دون أن أختار أو أعترض، حتى استطعت العثور على علي، يبحث اتخذ سنيناً؛ لأن الخادمة التي ربته، ماتت في شوطة الكوليرا، دون أن تخبر زوجها عن حقيقة الطفل الذي يعيش بينهم».

سكتت، فتأملت الأفاعي السوداء، كانت تُصغي معي، مشدوهة تهز ذيوها في توتر. سحب علي نفساً من سيجارته ثم استطرد: «بقية التركة التي تركها والذي من فلادين خصبة ومصانع، تم تقسيمها بين الجثاة وأبنائهم، الذين اقترحوا عمل كوبانية يحفظون بها سر الأموال ويُتمونها، وتكون غطاءً للسيطرة على الأسواق. جميعهم، كانوا يعلمون مصدر الأموال الدامي، وجميعهم اتفقوا على الصمت، واتفقوا أيضاً ألا يتحدثوا في أمر الكوبانية إلا إذا أرسل أحدهم للآخر بالرمز؛ رأس الأسد». سألته: «أنت هو المشاعلي؟»، فأجابني: «ذلك هو لقب الأسرة التي تربيت بين أفرادها في الصعيد، وتلك كانت المهنة التي امتنتها بينهم، حتى أكسبتي اسمي، ثم تواصلت مع مسك؛ أختي التي بحثت عني سنيناً طويلة، وكانت قد اطلعت على أوراق الباشا الخاصة، وأن وقت حصاد الرءوس».

«لقد استغللت وجودي كل ذلك الوقت، حتى يتخط القواصة بين الأدلة، ويتم اتهامي، فأساهم دون أن أدري في استكمال مخططك الجهنمي للاستيلاء على الحكم أيها المهجين القمري الزاحف».

لم أجرو من هول الموقف أن أنطق بتلك الكلمات، لكنني سألت: «هل سُرسل ورائي العقرب الأحمر؟»، رمقني في استغراب شديد. «عقرب أحمر؟!»، الخبيث، يُنكر تهديدي بالعقرب أمام أخته، فاستطردت: «من هي الضحية السابعة؟».

نظر لساعة الحائط التي دقت ثمان دقائق وأردف: «ستقرأ الخبر في الوقائع المصرية»، ثم أخرج طبنجة صغيرة وصوبها لرأسي: «أخرج المفتاح»، وضعته في راحته فقبض على تلايبي، ودفعني أمامه، صعدنا السلام حتى حجرة تخزين صغيرة بالدور العلوي، وضعني فيها وأغلق الباب.

أضأت قداحتي، تأملت الكراكيب المحيطة، ثم راقبت النار، واتخذ الأمر مني دقائق حتى أهضم وأستوعب ما ألقاه على مسامعي المهجين الصعيدي المشاعلي الأخ الأصغر لمسك هانم والمسمى بعلي، الصورة أصبحت واضحة، الأسود والأبيض والرماديات بينهم، لا يبقى إلا معرفة الشخص الذي يُعطيني ظهره، الضحية السابعة، ولم تأتني الفكرة إلا حين انطفأت نار القداحة، عيد ميلاد توفيق؛ الابن الأكبر لأفندينا، المهجين يرتدي بدلة فخمة، وبابيوننا، المهجين يحمل لأفندينا هدية، طبنجة صغيرة.

بحثت بين الكراكيب عن شيء يصلح أداة لفتح الباب ولم أجد، فلم يكن هناك سوى كتب قديمة، علاوة على أن المفتاح والنج في الباب من الخارج، ولأن للنوبة كرامات سأفرغ لها يوماً مساحة في يومياتي أو أجمعها في مجلد، فقد ألهمني الوحي أن أقطع صفحة من كتاب كبير، وأدسها تحت عقب الباب، أسفل الكالون، وأن أقطع جلدة كتاب وأبرمها حتى تصبح مُتنامكة، وأدسها بداخل ثقب الباب، وبعد عناء، سقط المفتاح من الثقب على الورقة، فسحبته بحرص حتى مرت أسفل الباب، فالتقطت المفتاح، وفتحت الباب بحرص.

المراية بدت خالية، أخرجت سكينتي ونزلت السلام، فلم أصادف أحداً، وقبل أن أفتح الباب الكبير، التقطت أذني صوتاً، كان الخادم العجوز، نظر للسكين بين أصابعي فامتلاً وجهه بالهلع، سألته أين الحرمه، فأخبرني بوجل أنها رحلت منذ قليل، فخرجت راكضاً، ركبت النيل حتى الضفاف المقابلة، واستأجرت كارتة بحصانين ولم أبخل، أوصلتني حتى قصر القبة.

أمام القصر، طلب الحراس إبراز الدعوة، فكتبت اسم داغر بك على ظرف مُغلق بداخله رسالة قصيرة: «المشاعلي في الحفل. سليمان السويقي»، انتظرت ربع الساعة حتى أقلتني عربة صغيرة إلى مدخل، وقف أمامه مبتور الورك يفرك ويفور توترًا: «لقد حذرتك الاقتراب»، أخبرته أن الوقت الآن من ذهب؛ فالقاتل بالداخل، وينوي اقتناص الضحية السابعة. «مَن هي؟»، سألتني فأخبرته أن اسم أفندينا يليق بالحدث، فهو يسعى لأن يُنهي الانتقام برصاصة توضع في متحف، وانفجرت الألعاب النارية فوقنا فارنعد داغر بك وأمسك عضدي ودفعني للداخل.

الحفل كان فاخرًا، فأفندينا يعشق البذخ، رَبي مرزوق يحب العلو ولو على خازوق، الطعام من كل صنف، والضيوف من كل جنس: فرنساوية، جريج وطاليان وأمريكاوية ونمساوية وعثمانلية، فساتين مرصعة، نهود عامرة بالجواهر، بدلات الأفرانكا، وشباب مُتغطرة، ضحكات صاخبة ونبذ وموسيقى نُحِت «ساكنة بك» بجلالة قدرها، تشدو بصوت ساحر في فستان أبرز رشاقة فرس مخري، رغم بسنها الكبيرة، وقُبِح ملامح وارته بنصف خمار حريري. في نهاية القاعة وقف ولي العهد توفيق، تحسبه فتاة جميلة في الثالثة عشرة، لولا الزي الذكوري والشنب الناعم، يرحب بالضيوف، ومن ورائه أفندينا، مندجما في حديث مع «كارليس مو»؛ رئيس القواصة الإيطالي المرتقب. إسماعين المسكين، لا يكاد يدري أن بين زحام الأبهة وجلال قدر الضيوف، يترى قاتل.

نُحِضت القاعة المزدهمة، يتقدمني داغر بك، بعدما أصدر أمرًا للحرس بالتأهب دون إحداث بلبله، حتى لاح إسماعين، أشرت إليه من بين الرؤوس فتجاهلني. ابن اللذين! هانت عليه العشرة في حضرة الخواجات! كان ذلك حين لمحت الفستان الأسود؛ مسك هانم، كانت تنظر لي بوجل من بين السيدات، فصرخت عاليًا: «ها هي ذي»، الصبيحة كانت عالية، فتوقفت التخت عن العزف، التفت الرؤوس ناحيتي، ورمقتني المطربة «ساكنة بك» بغضب واشمئزاز. قبض مبتور الورك على ذراعي بأصابع من حديد: «ماذا تفعل يا مجنون؟»، جذبتة بعزم ما أوتيت تجاه «مسك هانم» وصرخت: «تلك الحرمة، أتت بصحبة أخيها ليقتلا أفندينا»، سرت الهمهمة، وانتبه أفندينا، فاضطرب وجه الحرمة، تراجعت خطوة، فاقتربت، وقبضت على راسها فصرخت: «ماذا تريد؟»، أجبتها: «أين أخوك؟»، فجذبت راسها: «ليس لي إخوة.. ابتعد عني»، وجالت ببصرها في القاعة، ثم رمقت الساعة الكبيرة التي أشارت للتاسعة مساءً، فأدركت أن الوقت قد حان، وما هي إلا لحظة، وانطلقت الرصاصات من جهة غير معلومة. ثلاث طلقات، أخفضت الرؤوس، وساد بعدها الهرج والمرج، وهاجبت الصرخات.

وسقط أفندينا.. مُضربًا في دمانه.

أبناء ما كان من وقائع بعد حادثة قصر القبة.

كانت ليلة عصبية، لم تشهد البلاد مثلها منذ مقتل الوالي عباس حلمي في قصره بينها على يد غلامين من حراسه، استنفر الجند، ونزلت الخيالة في الشوارع لتدور حول قصر القبة، تم حبس كل المدعويين بالقاعة بعد استخراج أفندينا إسماعين وولي عهده منها. وُضع المسكين على سرير غائب عن الوعي، ينزف من ثلاثة ثقب، ومن حوله الطبيب الألماني «دي ليو» بك، والطبيب المصري «محمد علي باشا البقلي»، ولقيف من المساعدين. أجريت عملية جراحية، فاستُخرجت رصاصتان، واستقرت الأخيرة بجانب القلب، تهدده من مكن حساس يصعب الوصول إليه.

في القاعة المكتظة بالمدعويين، بكى النساء، وعلا هم والخوف على المصير وجوه الرجال، قبل أن يصدر القواص الإيطالي أوامره بتفتيش الحضور، أكثر من ألف نفس، علاوة على فحص الحقائق والشرفات.

كيف اختفى قاتل أفندينا؟

ولماذا وجدت الطبنجة الساقية التي أطلقت الرصاصات، في جيب ولي العهد المراهق توفيق؟

تم التحفظ على العبد لله، والحرمة مسك القلوب التي أنكرت أقوالي، استمر الاستجواب بمعرفة القواص الإيطالي، حتى تمام الواحدة وخمس وثلاثين دقيقة من ظهر اليوم التالي، حين انتشرت الأنباء الحزينة، فقد صعد الشر الإلهي. مات إسماعين، مات الأخ الذي لم تُنجه أم، مات قبل أن يُنهي حفر ترعة السويس، قبل أن يفرح بالانتقال إلى قصره الجديد بضاحية عابدين، مات قبل أن نستكمل جلسات السمر مع النارجيلة والأفيون في حوش الديوان بالقلعة.

بعد أسبوع، أعلن القواص الإيطالي فشله في العثور على القاتل، فقدم استقالته وتنحى، عاد لبلاده مخذولاً مدحوراً نادماً على التواجد بالمحروسة في عهد سليمان السيوفي، أما العبد لله فتم الإفراج عنه بعد كتابة تقرير كامل للملابسات الحادثة، وسبيل معرفتي بالمؤامرة، مما أدى لسجن الحرمة مسك القلوب، تمهيداً لمعرفة مدى تورطها من عدمه.

خرجت من القرقول، إلى لوكاندة بير الوطاويط، صعدت إلى غرفتي فاحتضنت قشقة التي مضغها القلق، نظرت إلى بحر عينها وقلت لها: «مي لييا كيبي نيامورو»، فبرقت عينها بالحب والعشق، وقررت لحظتها، أن الوقت قد حان ليكمل سليمان السيوفي نصف ديت، فأغلب إخوتي من الأنبياء - عدا المسيح - متزوجون، ولعل ذلك يُعجل بنزول الرسالة، دعواتك أيها الحكيم العزيز.

في اليوم التالي توجهت لتكية المكفوفين، استقبلني عتر، وكم تغير رفيق الدرب، فقد نصف وزنه أو أكثر، أصبح رشيقاً كفرس النبي، قبل جبهتي ومسح على رأس قشقة بالزيت، قبل أن يعقد قراننا وسط فرحة الدراويش، ولأول مرة، قرر أن يحملني على ظهره، ومن أمامي وضعت قشقة، رفرف بأجنحته فارتفعنا، وسط التهليل والتكبير، في زفة ملوكية، تضاهي زفة السلطان عبد العزيز الأول على عروسه. دار بنا عتر فوق القاهرة، وكاد يرتطم بمئذنة مسجد الباشا الكبير حين مررنا بالقلعة. طوال الرحلة، لم يكف ذيل قشقة عن الحركة، سعادة افتقدتها منذ غادرت قبيلتها، حتى أنك عتر، ونال التعب منه، فهبط بسلام فوق سطح

اللوكاندة، وهمس في أذني، بأن قشقة بنت حلال، وسأرزق منها بمعجزة فريدة، تتحاكى بها الأمم، ثم احتضنتي، ودس في كفي خلسة، سن أفيون، غمز بالآلاف الأعين، ثم ودعني إلى لقاء قريب. فحملت قشقة، ودخلت بها الغرفة، استلقيت، ونهلت من أنهار العسل الأسود، ووعدتها بيني وبين نفسي، أن نزور قبيلتها بعد إنجاب «عنتر» الصغير، لتلتقي أباه وأمه.

في فجر اليوم التالي، وفي ميقات الأرق المزمع، استيقظت، جلست على السرير، محاولاً التمسك ب المنام عجيب تتطاير تفاصيله، رأيت فيه أفندينا إسماعيل، حياً يُرزق، بذراً مُنوراً، يُكمل بناء قصره الجديد، ويُخطط لحفل افتتاح ترعة السويس. تفاءلت، رغم أنه كان ينثر الذهب من حوله، وذلك فال سعي في المنام.

رأيت كذلك عزيزة الشبكشي، وكأنها حية، تقف بشباك المارستان، لمحتني فلاعبت إصبعها الوسطى، وبصقت على الأرض بالقرب مني: «سفوخس»، فصاحت فيها بملء صوتي: «سلام على التي راحت تنتقم من أبوها ورجعت حيلة».

ورأيت في المنام أمي، وقد أكلتها الشيخوخة، تقف وراء باب غرفتي رغم تشيدي على الشيبب الشرابي بمنعها من الصعود، تسب وتصبح من بين الأسنان المتهاكة، بعبارات لا أذكر منها إلا: «طالع جلدك، آخر عمره، كان يكلم الحيطان ويطارد قطط الشارع».

ورأيت في المنام أيضاً، أني أفض رسالة من المهجين، كتب فيها أنه مُعتقل في زنزانة تحت الأرض بسجن القلعة، ينتظر تنفيذ حكم الإعدام شنقاً، بعدما تم القبض عليه قبل ثوانٍ من إطلاق الرصاص على أفندينا، وأنه لن ينسى التجربة التي مررنا بها، رغم قسوتها، وسيبقى بوعده، فقد ذكر اسمي للتو، أمام العقرب الأحمر، وسيأتي في أثري.

انتفضت مُزعجاً، مع أذان الفجر، نظرت في فروع اللبلاب التي رسمت كلمة «نبي»، ثم انجهمت إلى النافذة لأؤكد من غلقتها، فوجدت على الإطار جراحة، حكّت جناحيها في أدب، باركت زواجي بتمنيات طيبة، قبل أن تسألني على استحياء: «الا تظن أن المهجين ربما قد استولوا على جسد ولي العهد توفيق تمهيداً لغزو مُرتقب؟».

قالتها، واعتذرت عن زيارتي في يوم صباحتي على قشقة، ثم طارت.

أيها الحكيم العزيز، أتمنى أن أجد لديك تفسيراً مقبولاً للحلم العجيب الذي راودني، وسأطلعك في اليومية التالية على خطتي في مواجهة العقرب الأحمر.

النهاية